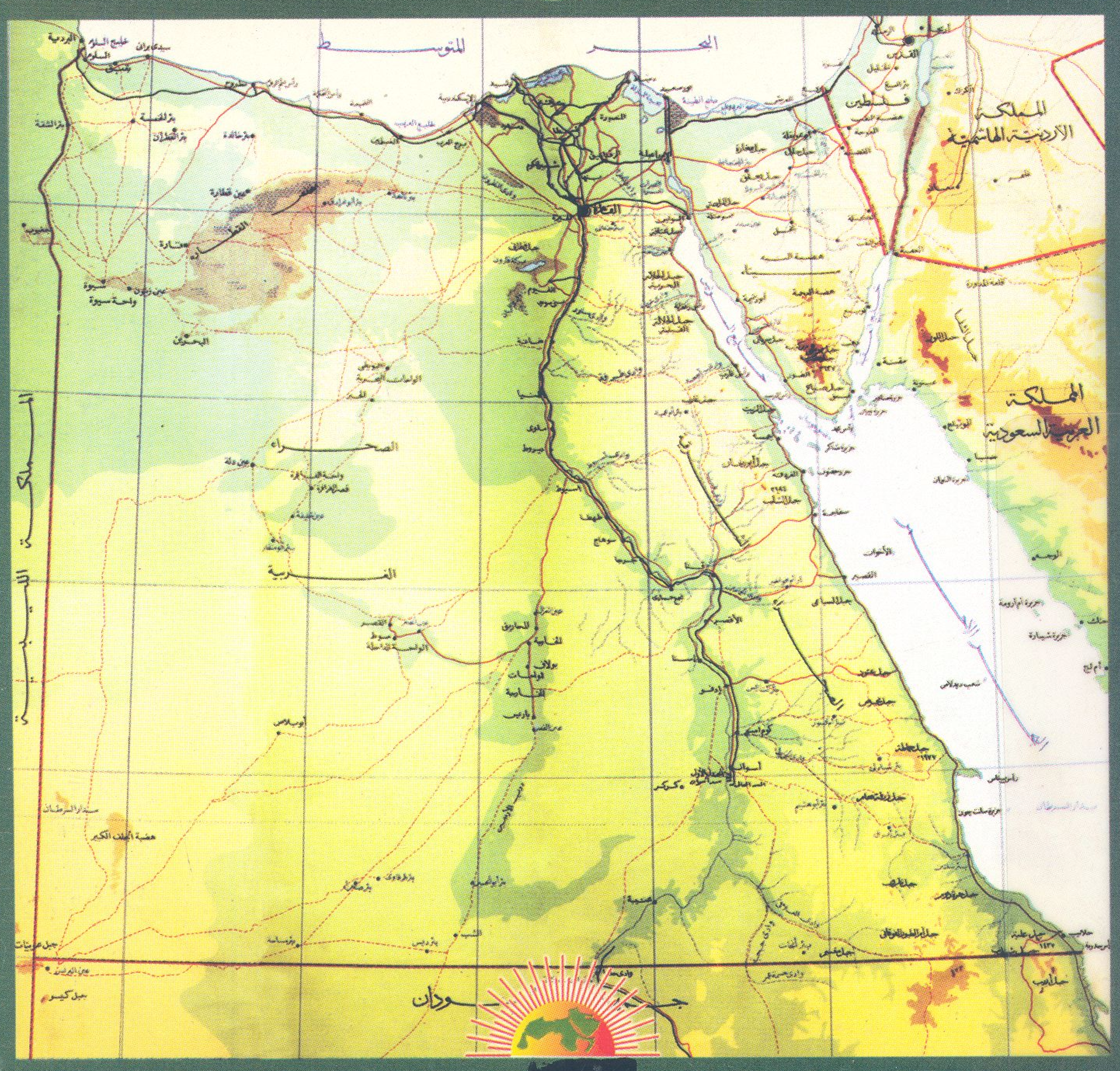
محمد الحديدى

استرداد مصر

هل هناك مخرج مما نحن فيه؟





استرداد مصر



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل .

- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة

- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .

- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .

- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية

٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات - القاهرة

تليفون وفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

محمد الحديدى

استرداد مصر

هل هناك مخرج مما نحن فيه ؟

REGAINING EGYPT
IS THERE A WAY OUT ?

BY
MOHAMED EL-HADIDI



الكتاب : استرداد مصر

الكاتب : محمد الحديدى

الناشر : مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى : القاهرة ٢٠٠١

رقم الإيداع : ١٦٢٥٧/ ٢٠٠١
الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-291-346-1

الغلاف
جرافيك : ناهد عبد الفتاح

الجمع والصف الالكترونى :
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيذ : أحمد أمين
تصحيح : زكريا منتصر

إهـــداء

إلى شريف الحديدى ..

راجياً أن يقرأ هذا الكتاب عندما يكبر ،

ويقول لنفسه : كم كان مخطئاً ، جدى العجوز ..!

المحتويات

مقدمة الناشر

كانـــت ثـــورة ٢٣ يولـــيو ١٩٥٢ ــ ولا تزال ــ أهم حدث فى التاريخ الحديث والمعاصر لمصر والأمة العربية ، وكان لها ــ ولا يــزال ــ أثر هائل فى مستقبل المنطقة بحكم الأخطار التى حملتها والمتغـــيرات الـــتى أحدثتها والأجيال والقوى الاجتماعية والسياسية التى لا تزال ترى فيها تجربة وفكرًا أو خلاصاً من الواقع المأساوى الذى تعيشه المنطقة الآن . وليس هناك شك فى أن هذا الواقع الذى نعيشه الآن يستدعى فكر الثورة مجدداً ومتجدداً ، وأهم ما فيها تلك الإدارة الوطنـــية المستقلة والصلبة التى امتلكها ثورة يوليو وثوارها. والتى حققت بها الإنجازات الضخمة .

ونظـــرة على الواقع المصرى والعربى والدولى قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وبعدها تؤكد حجم التحولات الهائلة والتغيرات العميقة التى أحدثـــتها الثورة ، إذ أنهت الملكية ، وقضت على الإقطاع والقوى المســـتقلة والمســـيطرة علـــى مقدرات الإنسان والوطن ، وطردت الأجنـــبى وحققت الاستقلال ، وامتد تأثيرها عربياً لتتغير الخريطة السياســـية للوطن العربى وتحصل أقطاره على الاستقلال، وتنتشر دعـــوة القومـــية العربـــية وتصبح الوحدة العربية تعبيراً عن رغبة الشعب العربى فى عودة الوضع الطبيعى لأمة مزقها أعداؤها ضد رغبتها ..

ليس هذا فحسب بل إن الاستعمار القديم قد انسحب تحت ضغط قوى الثورة العربية وانتهى عهد الاحتلال الأجنبى البغيض، وغابت الإمبراطورية التى لم تكن تغرب عنها الشمس .. كل هذا وذاك كان بفعل الإرادة الثورية وإرادة التغيير التى أمتلكتها الأمة العربية بقيام ثورة يوليو .

وبقـدر ما كانت الثورة تنتقل من إنجاز إلى إنجاز، ومن معركة إلى أخرى ، وبقدر ما كانت حركة الثورة مستمرة ، فإن من يعمل ويتحرك لابد وأن يتعرض لأخطار وانكسارات ، وكان من الطبيعى أن تجـتمع القوى المعادية لثورة يوليو وقائدها التاريخـى جمـال عـبد الناصـر وتتصيد الأخطاء ، وتدير المؤامرات إلى أن كانت هزيمة ١٩٦٧ التى أحدثت جرحاً عميقاً ودامياً وانكساراً فى مسيرة الثورة العربية وحركة التحرر الوطنى.

وظهـرت قـوى عـدة تحاول أن تثأر من الثورة ، وأن تلغى وجودها الفاعل على الأرض العربية ، ليس هذا وحسب بل حملت ثـورة يولـيو المسـئولية عن كل المصائب والكوارث التى حلّت بمصر وبوطننا العربى قبل التاريخ وبعده ، ولم تر فى ثورة يوليو إلا الأخطاء والانحرافات والهزائم ..

ومركز الحضارة العربية ، إذا يختلف اختلافاً واضحاً وبيناً مع مجمل الآراء والأفكار والأخطار التى ضمنها الصديق الكاتب كتابه هـذا ــ وهـى أفكـار نرى سهولة دحضها ومواجهتها فى حوار موضوعى ومع ذلك فقد صدر هذا الكتاب عن دار مركز الحضارة العربية وهى مؤسسة ثقافية مستقلة ذات رؤية عروبية وقومية .

الناشر

هذا الكتاب

تلـــك الحقبة من تاريخ مصر المعاصر ، التى تمتد من ١٩٥٢ حـــتى ١٩٧٠ ، كـــان لهـــا ، وسيظل لها ، أثر هائل فى أحوالها ومصـــير شعبها ، إلى قرون طويلة ستأتى . وقد تناولتها كتابات كثـــيرة ، الـــبعض يمجدونها إلى حد التقديس، والبعض يقيمونها بمقايـــيس يسمونها سلبيات وإيجابيات ، ويعدون مآثرها وكبواتها، والـــبعض (ومـــن هـــؤلاء عدد من كبار مفكرى مصر وأدبائها ومؤرخـــيها) لا يـــرون فيها إلا كارثة ماحقة . مؤلف هذا الكتاب يـــرى ذلـــك أيضاً ، فقط ــ وبكل تأكيد ــ ليس لأن أصحاب هذه الأسماء الكبيرة يفعلون ، خصوصاً وأن منهم من يبغضون الثورة ــ كما تسمى(ومؤلفنا لا يراها ثورة بأى مقياس ولا بأى درجة) ــ من منطلق انتمائهم لأيديولوجية أو أخرى ، وهو ــ المؤلف ــ إن كان يبغض شيئاً فهو فكرة اعتناق الأيديولوجية ، مما يشير إليه فى هـــذا الكـــتاب . كمـــا أنه يرى أن غالبية من يرون فيها كارثة قد عـــالجوا الأمـــر مـــن مجرد زاوية أو أخرى ، كأن يركزوا على الإجـــراءات التعســـفية كالاعـــتقال والتأميم والمصادرة والتعذيب والتنكيل أو على إهدار القيم ، وحكم الفرد ، مؤلفنا لا يرى فى هذا كلـــه ــ على بشاعته التى لا تطاق ــ سوى نواتج جانبية للكارثة الأصـــلية وهى ، الوقوع فى شراك خديعة نصبتها قوى خارجية رأت فـــى نظـــام الحكـــم فى تلك الحقبة فرصة تفوق كل الخيال وتـــتجاوز كل الحدود ، فرصة لاستلاب مصر وانتهاب مواردها واستعباد أبنائها وبناتها وانتهاك حرماتها واستباحة كل ما فيها وكل مـــا يـــأتى منها وينتج عنها . ولم يكن خارج مصر فرد واحد لا يعرف أن الصراع العسكرى مع إسرائيل لن يفيد منه إلا إسرائيل،

وليس القصد من ذلك مجرد الكشف عما وقع وعمن هو مسؤول، فهـذه أمور منتهى منها ، بل القصد هو أن يدرك أبناء بلدنا الذين دفعوا هذا الثمن الفادح من دمهم ومالهم وأبنائهم وبناتهم وكرامتهم ونفوسـهم ، أن يدركوا أن الداء لا يشفى إلا إذا عرفت الجرثومة الـتى أحدثـته وإلى أى حد تفشت فى دمائنا وأوصالنا ومدى ما أحدثته من تلف فى جسومنا وعقولنا ونفوسنا . وبكل تأكيد ، نحن الآن فى أول الطريق إلى ذلك، حكامنا سياسيون إداريون يؤمنون بالعمل الجاد من أجل المستقبل ، العسكريـون قـادة محترفـون (١٩٧٣)، السـفراء دبلوماسيون يدركون حقائق العالم المحيط بنا (طابا)، مصر الآن عضو عامل وصالح فى المجتمع الدولى ، هذه الصورة المبشرة بالخير لا تكتمل إلا بإدراك الحقائق ، والحاضر والمسـتقبل ليسا سوى نتاج حلقات الماضى ، الماضى ليس أموراً طواها الزمن، إنه يكمن فى أعماق كل منا ، ويتمثل فى كل قطرة ماء حولنا وكل نفحة هواء تحتوينا وتستنشقها صدورنا ... والذى يعطى لهذا الإدراك مزيداً من الأهمية ، هو ـ فيما يتصور مؤلف هذا الكتاب، إن ما لحق بمصر من الأذى، وما أصابها من التلف، أكبر وأعمق بكثير، من قدرتنا على إدراكه أو تصوره، ولعل هذا يـرجع إلـى سطوة وسائل الإعلام فى عصر التليفزيون ، وإلى استغلال الكفاءات الفنية التى كانت باقية من عصور سابقة لم تكن ـ على مساوئها ـ على هذا القدر من النزعة إلى إخماد الأنفاس وكبت الضمائر . وهكذا فإن فداحة الكارثة قد طغت على قدرتنا ـ وأيضاً على رغبتنا فى تصورها.

نصيحة ...

لا تقرأ هذا الكتاب إذا كنت من الذين :

(١) يطلقون التعميمات ويتخذون منها قواعد لتفكيرهم ، مثلاً: كل اليهود أولاد كذا وكل الأمريكان أولاد كيت ... إلخ ، نحن هنا فــى سبيل ممارسة التفكير العقلانى القائم على المنطق ، أنا لست على أى درجة من الاستعداد لأن أمتلئ بغضاً لجنس بأكمله أو لفئة اجتماعية من أولها لآخرها ، اليهود بشر فيهم من يستحق البغض ومنهم من ... حسنا ، لا يستحقونه.

(٢) يميلون إلى التعليل الميتافيزيقى ويستغرقون فى الخرافات، اليهود جن خفى، إنهم وراء كل ما يقع فى هذه الدنيا. الزلازل التى حدثــت فــى أسوان والقاهرة كانت من تدبيرهم، موجة الحر التى نعــانى منها هم الذين صنعوها بالتعاون مع ال "سى- آى- ايه" ، إلى آخره. وقد رأيناهم يأخذون بــ" الصرمة القديمة" سنة ١٩٥٦، من حلفائهم الأمريكان، وكان ممكناً أن ينالهم المزيد ، وهذا الكتاب يظهــر ــ أو هذا واحد من أهدافه ــ كيف أننا نحن الذين وضعنا لهم ما يريدونه على صينية من الذهب وقدمناه لهم.

(٣) يؤمــنون بأيديولوجــية ثابــتة فــيها وصفة لكل أوجاعنا ومشاكلنا كان ترفع شعار "حتمية الحل الاشتراكي" أو "الإسلام هو الحــل" ــ العقائد شيء واستخدامها فى استعباد الناس بالممارسات الفاشســتية ، شيء آخر . الخالق أعطانا عقولاً لكى نفكر بها، لا لنســلمها لأمثال تشاوشيسكو أو بن لادن ، هؤلاء كلهم دجالون لا يؤمن الواحد منهم بحرف واحد مما يبشر به .

(٤) يجدون لذة فى حل المشاكل بمجرد فقدان الشعور بوجودها إنكار المشكلة لا يؤدى إلى اختفائها، سوف تعــود إلــى الظهــور

وتـرغمك على مواجهتها بقدر من الألم يتفوق على فقدانك للقدرة على الإحساس.

(٥) يقدسون الحكام ويعدونهم آلهة لا يُسألون عما يفعلون مهما كانت الكارثة التى تنال شعوبهم من جراء جهلهم وحماقتهم، هناك إله واحد فى هذه الدنيا وهو فوق ، فى السماء . نحن نعيش عصراً تطـور فـيه سـلوك البشر نحو حكامهم وأصبحوا يرونهم على حقيقـتهم الـتى رآها الضرير أبو العلاء المعرى ، عندما قال من ألف سنة أنه سئم الحياة فى أمة "أمرت بغير صلاحها أمراؤها" ، وكيف أنهم "ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ــ وعدوا مصالحها ... وهـم ... أجـراؤها !" ــ نعم ، الحاكم أجير لدى الشعب، تماماً كناظر الزراعة، مطلوب منه أن يحقق صالح شعبه وإلا أتى بغيره وحاسبه على أخطائه . ثلاثة رؤساء أمريكيون قدمُوا للمحاكمة فى قـرن وربـع ، وهم جالسون على مقعد الحكم ، هيلموت كول ، رئيس وزراء ألمانيا الذى حقق معجزة الوحدة ، بسمارك الجديد ، لـم تشفع له إنجازاته العظمى، وقدم إلى المحاكمة، لا بتهمة إنشاء خزيـنة فى بيته ليوزع الملايين على محاسيبه ، بل بتهمة "إساءة اسـتخدام ١,٢ مليون دولار تلقاها كتبرعات للحزب الديمقراطى المسـيحى الذى يرأسه وانتهى الأمر بأن دفع غرامة تعادل نصف ملـيون جنيه مصرى من جيبه. ولا يقتصر هذا على أوربا، عبد الواحد فى إندونيسيا ، إسترادا فى الفلبين ، كل هؤلاء امتدت إليهم عصـا التأديب. تأمل ما فعلته القيادة الفلسطينية بشعبها وما تزال تفعلـه إلـى هذه اللحظة ! اتهموا عبد الناصر بالخيانة لأنه أعلن موافقته على مشروع روجرز، ثم رفعوه إلى مرتبة قديس . اتهموا السـادات بالخـيانة ووزعـوا الشربات عند اغتياله ورفضوا أن يشـاركوا فى محادثات مينا هاوس حيث كان لهم مقعد مخصص وعلـم مـرفوع ، ثم ذهبوا إلى نفس المكان : كامب ديفيد (اتفاقية اسـطبل داوود الخيانية كما تسميها إذاعة دولة عربية لا تشير إلى

إسرائيل إلا بعبارة : قطعان الهمج الصهاينة ... إلخ) ، وعادوا من كامب ديفيد بالخيبة . أثناء كل هذا الرفض لجهود السلام ، كان ما يقــرب من ربع مليون إسرائيلى قد استوطنوا الضفة وغزة ، من المسؤول عن هذا ؟ كل الناس إلا الوحيد الذى هو مسؤول . نفس هذا المسؤول أعلن وقوفه إلى جانب صدام حسين فى عدوانه على الكويت والسعودية مما أدى إلى خراب بيوت عشرات الألوف من الفلسطينيين الذين أقاموا حياة جديدة ورغيدة فى بلدان الخليج . من المسؤول عن هذا الأذى الماحق ؟ كل الناس، إلا المسؤول .

ولا حول ولا قوة إلا بالله !

كنــت أشــاهد تليفزيون "بى ــ بى ــ سى" منذ أسابيع ، وكان واحد من "وزراء" السلطة يجيب على أسئلة المذيع تيم سيبا ستيان، مضــى المذيــع يستجوبه بشأن ما يشاع عن تبديد أموال السلطة الفلســطينية على البذخ والطائرات الخاصة وعما يشاع عن نهب أموال الشعب الفلسطينى ، هذا بالضبط هو التعبير الذى استخدمه المذيع "pocketing " ، يعنى دسها فى الجيوب ، كان "الوزير" قد بدأ يتحدث عن الاحتلال ، "نحن محتلون" ، مضى يجيب على كل هــذا بهذه العبارة : "نحن محتلون" – "نحن محتلون" ، أما دعاوى النهب والسلب ... فهم معذورون فيها ، لأنهم محتلون .

بعــد كل هذا مطلوب من الناس أن يموت أولادهم فى معارك غير متكافئة وغير مجدية ، ومطلوب منى أنا كمواطن فى بلد مثل مصــر، حيث المواطن كما يصفه يحيى حقى فى قنديل أم هاشم : "بولـــه دم وبــرازه ديدان"– مطلوب منى أن أنام على البغضاء وأصحو على الكراهية. لآ ، هاتوا زعماء أكفاء ومخلصين أولاً ، وسأكون، وأنا فى أرذل العمر، على استعداد لأن أموت معهم فداء لوطنى ، وليس فداء لهم .

هــل لدى هؤلاء الهمج أغنية تقول "أنا شفت بنجوريون والنبى يامة ؟" ــ الواقع أن بنجوريون ، مؤسس دولة إسرائيل، واشنطون

إسـرائيل كما يعدونه، سقط من رئاسة الوزارة بسبب خطأ وزير دفاعه لافون، في فضيحة لافون كما تسمى، لا سرق ولا نهب ولا خـرب الـبلد ولا أودى بشـغبها إلـى أسوأ مصير. هذا هو لب موضوعنا.

الحق والقوة ...

"اسمعوني إذن ... إنني أعلن أن القوة هي الحق، وأن العدالة هي ما يحقـق صالح الجانب القوى . إن مختلف أشكال الحكومات تسن القوانين ، ديموقراطية، أرستوقراطية ، أوتوقراطية ، طبقاً لما ترى أنه يحقق مصالحها، وهي تفرضها على الشعوب بوصفها هي "العدالة" – وتـنزل العقاب بمن يخالفها بأن تصفه بالظلم والافتراء ، أنا هنا أتحـدث عن الظلم على نطاق واسع ، والذى أقصده سيكون فى أوضـح صـورة له فى الأتوقراطية ، التى تلجأ إلى الاحتيال وإلى الـبطش لكي تصادر مال الآخرين وحقوقهم ، لا بالتجزئة ، بل بالجملة . والآن ، عندما يأتى رجل ويستولى على أموال المواطنين ثم يحيـلهم إلى عبـيد أرقـاء ، فإنه بدلاً من أن يوصف بأنه لص ومحتال، فإنه يحظى بالسعادة والمباركة من الجميع . وهذا لأن الذين يشكون من الظلم ويذمونه هم أولئك الذين يخشون أن يقع عليهم وأن تغولهم عواقبه ، وهو لن يكون ظلماً أو عدواناً عندما يكون فى طائلتهم أن يرتكبوه فى حق غيرهم" .

السوفسطائى ثراسيما خوس

محاورات أفلاطون ٣٣٨ – ٤٤

لست أدرى لماذا أجد فى هذه الفقرة أكمل وأشمل وصف لمأساة الشـعب الفلسـطيني! لعلـه ما تتصف به من استطراد ، فهى لا تعـرض لمشـكلة الأخـلاق فحسـب، بـل أيضاً لمشكلة القيادة والأوتوقراطـية. وهذان يصلحان تصنيفاً لما نحن بصدده ! حقاً، هـل نتجت المأساة عن عدوان اليهود على العرب، والذى يأتى –

كما أظن أنه لابد أن يكون الآن واضحاً تماماً بعد نصف قرن من التجارب، وبعد أن مات القادة والزعماء من الجانبين وجاء غيرهم ثـم غـيرهم ــ يأتى من أنهم هم الجانب القوى فى هذا الصراع العجيـب، هـل نتجـت المأساة عن أنهم هم الأقوى وبالتالى فهم يفرضون إرادتهم ويصبحون هم الحق والعدالة؟ أم أنها نتجت عن الأوتوقراطـية الـتى تسود من هم "أبناء عمومة" الجانب المعتدى عليه ــ وسنأتى لذلك حالاً، والتى تجعل... حسناً، بعض الشعوب، لـن نقول كلها ، لكى لا نقع فى المحظور ، يجعل الشعوب التى هبـت لنصرة المظلوم، تبدو أمام العالم أنها ــ كما يقول أفلاطون ــ تعانى من الأوتوقراطية وتعامَل من حكامها معاملة العبيد، بعد أن نهـب هـؤلاء الحكـام أموالهم وساقوهم كالخراف إلى... إلى مصـير شعب العراق مثلاً، هذا المثال هو الوحيد الذى يمكننا أن تـأتى بـه هنا ونحن مطمئنون. حقاً، ياله من خطأ فادح نقع فيه عندما لا نرى من هذه المأساة سوى عدوان القوى على الضعيف ، دون أن نحاول أن نسأل أنفسنا عن طبيعة القوة والضعف، والسبب فى هذا وذاك ؟

سـوف نمضـى الآن فى استعراض المشكلة برمتها ، وليس مجرد الانفعال لحادث وقع أمس أو سيقع غداً ، فالتاريخ ليس أياماً منفصـلة ، إنه متوالية عددية، لا يمكنك أن تصل إلى خمسة دون أن تمـر علـى أربعـة ، وإذا أردت أن تحـذف أربعة فاعلم أن حساباتك مختلة وخاطئة.

بالضبط ما هو الموضوع ؟

عندما نشبت حرب ١٩٤٨كنت أنا طالباً فى السنة النهائية بكلية هندسـة جامعة فؤاد الأول كما كانت تسمى إذ ذاك ، وصدر أمر بتكليف جميع الخريجين من تلك الجامعة ومن جامعة فاروق الأول بالإسكندرية، كما كانت تسمى أيضاً، وخدمت فى سلاح المهندسين

منذ ذلك الوقت لغاية ١٩٧٠وبالطبع حضرت الكثير من الوقائع الحربية خصوصاً ١٩٦٧، وبالتالى فلست واحداً من شباب اليوم الذين لا يعرفون بأمر هذه الأحداث إلا مما يوضع فى أذهانهم كما توضع اللقمة فى فم الرضيع فلا يجد بديلاً عن ابتلاعها.

خلاصة القول أننى عاصرت هذه الأحداث وأزعم أننى أعرف الكثير بحكم الظروف ، وعندما قامت "الحزكة المباركة" سنة ١٩٥٢اتصل بى ضابط كبير من قيادة سلاح المهندسين وقال لى إن المخابرات الحربية طلبت منه مندوباً ليكون عضواً فى لجنة تمثل فيها جميع الأسلحة وأنه قد رشحنى. ذهبت لمقابلة رئيس هذه اللجنة وكان أحد معاونى "البكباشى زكريا محيى الدين" الذى كان يرأس جهاز المخابرات إذ ذاك، وشرح لنا جميعاً أن مهمتنا هى أن نمر على دواوين الحكومة ونحن مسلحون بالطبنجات وبتحقيق شخصية مذكور فيه أننا "مندوبو القيادة" ــ وأن نبلغ عن كل وكيل وزارة مثلاً ليس جالساً إلى مكتبه ... إلى آخره . قضيت خمسة أيام فى هذا العمل الغريب بدت لى خمس سنوات، وقدمت لرئيس اللجنة ــ الذى أصبح بعد ذلك سفيراً فى الخارجية ــ مذكرة قلت فيها أن هذا العمل لا يناسبنى ولا أنا مقتنع بهذا الأسلوب.

أذكر هذه القصة لمجرد أن أدلل على كراهيتى للانتهازية وللارتقاء على أشلاء الآخرين، وهل غياب وكيل وزارة عن مكتبه يدل على إهماله أو وجوب تحطيم مساره الوظيفى، منذ متى؟

أنا مجرد مواطن مصرى عادى يحب الصدق والحقيقة، والتحليل المنطقى. فما هى بالضبط قصة ما يسمى "الصراع العربى الإسرائيلى" ؟

مناسبة هذا التساؤل كانت ــ وقد يبدو هذا غريباً ــ كانت حصول صديق عزيز على جائزة الدولة التقديرية . وفى تلك المناسبة شاركت فى الاحتفاء به فى جمع صغير من الأصدقاء.

أثـــير بالطـــبع موضوع مأساة الشعب الفلسطيني والأطفال الذين يموتون برصاص جنود الاحتلال.

وســـمعت من المحتفى به رأيه الذى سبق أن سمعته منه مرات عديـــدة، وهو يصف مشكلة فلسطين دائماً باستخدام كلمة "الزرع"، بمعنى أن أمريكا جاءت إلى بلادنا وزرعت فيها هذا الكيان الشاذ ــ وعـــندما أقـــول له أن الذى أدى إلى هذا هو الفجوة الحضارية التى تفصل بيننا وبين العالم المتقدم ــ الذى تنتمى إليه إسرائيل ــ وأنني من هذه الوجهة ، لا أرى فارقاً بين الإسرائيليين والإنجليز فإنه يسارع بالقول بأن هؤلاء ليسوا محتلين ، بل إنهم مستوطنون، ليســـوا جيشاً يمكن إجلاؤه ، بل إنهم زرعوا فى وطننا كما تزرع الشجرة الخبيثة . ثم يشير إلى مواضع من سفر الخروج وغيره فى التوراة تدل على مدى وحشية اليهود وتدلل على ذلك بما فعلوه فى ســـقوط أريحـــا وغـــير ذلـــك ، وكيف أنهم لا يقفون عند حد فى ممارسة سفك الدماء ، ولا يفرقون فى هذا بين البشر والبهائم. ثم يمضــــى الصديق العزيز فى هذا فيشبه الإسرائيليين باللصوص ، ويقول لى : ماذا تفعل لو أن لصاً اقتحم بيتك وقعد فيه ؟ هل تستلم لهـــذا الوضع ؟ ما الذى فعلته أنت نفسك عندما تسلل الغرباء إلى بيتك فى العجمى ؟ هل سكت على هذا ؟

الذى يعنينا من هذه التشبيهات هو ما أنوى أن أدلل عليه مـــن افـــتقارها إلــــى الدقة . وسوف أبدأ بقصة بيتى فى العجمى ، وهو "شاليه" استأجرته من واحد من أعراب المنطقة المسماة "البيطاش"، وهـــذا بـــاع العقـــار لشخص آخر حاول إغرائى بشرائه ولكننى رفضت أن أشترى شيئاً لا وجود له إلا فى الهواء ، وهذا ما حدث لشخص آخر بنوا له دوراً علوياً وباعوا له البيت ــ ولغيره أيضاً، خلاصـــة القـــول إن شخصاً معه عقد بيع لهذا العقار رفع دعوى صـــحة ونفاذ وحصل على حكم بذلك ، وكنص القانون فإنه يطلب من المحكمة تمكينه من دخوله لأنه مغلق ، وعندئذ تأمر المحكمة

المباحث بأن تتحرى عن سبب الغلق ، ولأن هذا المكان مغلق معظم السنة لأننا لا نأتى إليه إلا فى الصيف فقد أفادت المباحث بأنه مغلق لوجود نزاع غلي الملكية، وليس لأن شاغليه غير موجودين الآن ، وفى هذه الحالة يأمر القاضى بفتح المسكن عنوة وجرد محتوياته وتسليمها له على قبول الأمانة، وهو يعرف جيداً أن الأمانة منعدمة فقط لا حيلة له فى ذلك.

وهكذا اتصل بى جيرانى فى المصيف ليقولوا لى أن غرباء يجلسون فى شرفة بيتنا وعلى مقاعدنا ويرتدون ملابسنا ويستمتعون بمخزون الشاى والقهوة فى أكوابنا ، وأن شريكهم ونديمهم فى هذا هو البدوى الذى استأجرنا منه البيت أول الأمر.

نصحنى البعض بأن أقتحم البيت وألقى بهم إلى الشارع ، فهذا مسكنى وهذه ممتلكاتى أنا وزوجتى ــ وبأن آخذ معى اثنين أو ثلاثة من الفتوات المستأجرين لحمايتى من بطشهم أو اعتدائهم إذا حدث . إلا أننى كنت قد سمعت بموضوع البيع، وبالتالى فهمت أن هؤلاء الأشخاص لابد مسلحون بمستندات قانونية تدل على امتلاكهم له ، صحيح أنهم قد "استعبطوا" وتظاهروا بأنهم لا يعرفون أننى مستأجر للدور الأول ، ولكن هذا لا يجعلهم لصوصاً فى نظر القانون ، فقد دخلوا البيت بحكم محكمة ، تماماً كما دخل اليهود فلسطين بقرار من الأمم المتحدة، هؤلاء وهؤلاء لصوص ومعتدون من الوجهة الأخلاقية ، إلا أنهم ليسوا كذلك من الوجهة القانونية ، وإذا لجأت إلى القوة فى اقتحام المسكن فسوف يعمل بالطبع محضر وقد يجد المحقق ــ أو القاضى فى النهاية ــ أن تصرفى لم يكن قانونياً ، وربما يقول لى : "لما أنت يا أستاذ صاحب حق ، لماذا لم تلجأ إلى القانون؟" ، وإذا تصادف أن الصدام أدى إلى إصابات أو خسائر مادية أو ــ لا سمح الله ــ بشرية، فإن القاضى قد يجد أننى أنا المذنب ــ دفاعى سيكون أننى شاغل لهذا المسكن ومعى ما يثبت ذلك . قلت لنفسى : إذا كنت

ســوف أضــطر لأن أثبت حقى فى شغل المسكن وإلا فسأبدو أنا المجرم وأنا المعتدى ، فلماذا لا أبدأ من هنا ؟ لماذا لا أبدأ بإثبات حقى أمام القانون؟ ذهبت إلى الشرطة فأوفدوا معى مندوباً استدعى الشــخص الذى كان بالداخل، وجاء معه عقد البيع وقرار المحكمة بفتح المنزل عنوة، أقفلنا المحضر وتحول إلى النيابة حيث قال لى رئيســها أنــه لا حيلة له أمام اقتحام المسكن بحكم محكمة ، لو لم يكــن هــناك سند قانونى لكان أصدر قراراً بالقبض على هؤلاء الأشخاص وتسليمى المسكن ، وأضاف : "حقك واضح ولكن لابد مــن رفــع دعوى" ـ وهذا ما عملته ، دعوى مستعجلة ، وصدر الحكم بتمكينى من المسكن بعد ستة شهور من إقامتها ، وبدلاً من أن أقــتحم البيــت محاطاً بفتوات يلبسون الجلاليب، ذهبت ومعى محضــر ، و فى حماية قوة من الشرطة وتصادف أن قائدها كان ضابطاً شاباً اسمه محمد حازم ، رأيت على مكتبه ونحن فى قسم البــيطاش كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى، وفى الحال وكما هو معتاد حدث التعاطف المعتاد بين الأدباء ، خصوصاً وأن الأمر كــان روتينياً تماماً ، فما عليه إلا أن يلبس الطبنجة وينادى على مساعديه ... وهذا بالضبط ما حدث . دوره فى الموضوع ليس له دخل بالنزاع الأصلى .

إلا أن هذا لم يكن ما حدث فى موضوع فلسطين . الذى حدث هــو اتــباع طريقة "الفتوات"، وبدون أى ترتيب أو استعداد. كان الإنجليز ما يزالون فى مصر، بل ويقال أنهم كانوا يمدون الجيش المصــرى بالذخيرة من مخازنهم فى قاعدة القناة ، والقوات طبعاً لابــد أن تعــبر القناة وتتقاطع معهم فى طريقها إلى فلسطين، أما الجيش الأردنى فكان قائده إنجليزياً هو الجنرال جلوب باشا، وكان الضباط الإنجليز ينتشرون فى وحداته، إذا أضفت إلى كل هذا أن الإنجلــيز هــم الذين أصدروا وعد بلفور سنة ١٩١٧، الذى ينص على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين (النظر بعين العطف ...

إلــخ ، كــان هو النص المستخدم)، وإذا أضفت إلى هذا أيضاً أن فلســطين كانت تحت الانتداب البريطاني لغاية إعلان قيام الدولة الــيهودية سنة ١٩٤٨بمقتضى قرار الأمم المتحدة الذى صدر فى أواخر العام السابق لها ، وإذا أضفت أن جولدا مائير كانت تتردد علــى قصر الرغدان فى عمان وتقضى أياماً وليالى فى التفاوض مــع الأمير عبد الله الذى أصبح الملك عبد الله ، وهى أمور تألفت عــنها الكتب، وكما هو معروف فإن الملك اغتيل بأيدى مجموعة فلســطينية اتهمته بأنه تعاون مع اليهود على اقتسام فلسطين، وإذا أضفت الوقائع التى تلت ذلك ومنها هجوم الإسرائيليين على مصر، واحــتلالهم أبــو عجــيلة ، وتقدمهم نحو العريش (وفى منتصف الطــريق بيــن أبــو عجيلة والعريش كانت توجد دبابة إسرائيلية محــترقة ، ورأيــتها فــى إحــدى زيــاراتى أثناء عملى بسلاح المهندسين) ــ ثم أنه بعد ذلك تقايل المصريون مع الإسرائيليين فى روديس وأبرمت أول اتفاقية هدنة بينهما وبمقتضاها انفك الحصار عن قواتنا الموجودة على الشريط الساحلى من غزة إلى العريش ، إذا أضفت هذا كله ستجد أنه لا يوجد أدنى شبه بين حرب ١٩٤٨ – ١٩٥٠، ومعركة العجمى التى خضتها أنا وخرجت منها منتصراً . ولــو أن مصــر ومعها الدول العربية لجأت إلى الطريق الذى اتبعته أنا وهو التعامل مع المشكلة بالقانون وتجنب أسلوب الفتوات ــ خصوصاً إذا كان الخصم هو أيضاً مزوداً بالفتوات بل ومتفوقاً عليــنا جــدًا فى هذا الجانب ــ ولو أن هذه الدول استمعت لآراء حكمائها من السياسيين من أمثال إسماعيل صدقى مثلاً ، والحبيب بورقيــبه ، بل والملك عبدالله الذى لم يكن موقفه سوى تمثيل فى تمثــيل ، لكانت إسرائيل قد قبعت فيما هو مخصص لها فى قرار الأمــم المتحدة ، وهو ما لا يتجاوز عشرة فى المائة مما هو لديها الآن، يتساوى فيه سكانه من اليهود مع سكانه من العرب ، أقل من نصــف ملــيون لكــل منهما بل إن هذا عاد وحدث سنة ١٩٥٦

وتحولـت إسـرائيل إلى حارة يهود كبيرة وفرضت عليها العزلة عندما ضربها أيزانهاور بالصرمة القديمة ومعها بريطانيا العظمى وفرنسا التى كانت عظمى هى أيضاً.

إلا أن هذه حكاية جديدة يحسن أن نبدأها من بدايتها، و يالها من مهزلة يندر أن تجد لها مثيلاً فى التاريخ، قديماً كان أم حديثاً !

ثعابين ، هذه المرة :

بعد اللقاء المذكور بيومين ، اتصل بى صديقى المحتفى به مرة أخرى ، وطلب منى قراءة عامود فى الأهرام بقلم الصديق الكاتب الصـحفى أحمـد الفقيه، فى أهرام ٢٠٠١/٧/١٩، يعنى قبل عيد الـثورة المجـيدة بأربعة أيام فقط. أخرجت نفسى من حالة التأمل الصوفى التى تنتابنى كلما حلت ذكرى الحركة المباركة ، وتجعل روحى تغوص فى أعماق من الطهارة الثورية لا مثيل لها فى بقية مشاعرى . وأكاد أقترب من "الإلهام" الذى هبط على القائد العظيم عندما أمر بحشد قواته فى مايو ١٩٦٧، نعم ، هذا هو التعبير الذى استخدمه صفيه المقرب سامى شرف، ورواه من سمعوه منه عندما سألوه عن الموقف ! "هذا إلهام جاءه" ، جاءه كالوحى من السماء.

أنا لا أقرأ كل شيء فى الجرائد ولا أقرؤها كلها ، لم يكن هذا العـامود قد فاتنى ، فعليه صورة الأخ الفقيه وهو صديق شخصى وعزيز، فقط لم أكن قد قرأته بعد .

العنوان هـو "مع الاعتـذار للأفاعـى" ـــ وهو لا يذكـر لا إسـرائيل ولا فلسـطين بالاسم، إنه.فقط يحكى عن صاحبه الذى تسـللت الأفعـى إلى حديقته وحاول قتلها فلم يستطع، فدعا أبناء عمومـته لمعاونـته بكـل ما لديهم من عصي وفؤوس ، وعندما أصـيب واحد منهم بلدغة منها، (ليس واضحاً لى هل هذا الواحد هو صاحب الحديقة أم واحد من الذين هبوا لنجدته ، الكلام صحيح فى كلتا الحالتين على أى حال) ، تركوه يلقى مصيره وحده مسلحا

بالحجارة .

حســناً ، أنــا لا مانع لدى إطلاقاً أن نصف الإسرائيليين بأنهم لصوص أو بأنهم ثعابين ، وأن نعتذر للثعابين عن هذه الإهانة. لا مانع لدى بأن نصفهم بكل ما لا يمكن وضعه على الورق ، الذى لدى مانع منه هو أن يكون هذا كل ما نظن أننا نعرفه عنهم ، وأن نــتعامل معهــم على هذا الأساس ، لدى ألف مانع ومانع من أن تكــون معلوماتــنا عــن أعدائنا مجرد قصائد من الشعر المنثور، وركيكة أيضاً .

شىء اسمه الناصرية :

"مــاركس الــذى نسبت إليه الشيوعية لم يكن حاكماً، بل كان صاحب فكرة، أما عبد الناصر فكان حاكماً وليست له فكرة معينة ثابــتة ، ولكــن هناك من يقولون أن هناك شيئاً اسمه الناصرية من مــنطلق التقليد للماركسية . ولعبد الناصر أكثر من كتاب قامت عليه الناصرية ... له فلسفة الثورة ، وله بيان ٣٠ مارس، وبذلك فهو من حيث المبادئ والأفكار ، أثرى إنتاجاً من ماركس".

"جمال عبد الناصر عندما قرر دخول حرب اليمن ، لم يكن قد قرأ كتاباً واحداً عن اليمن ، وكل معلوماته جاءته من رجال يمنيين أو دخلاء على اليمن لكل منهم مصالح خاصة .

وقــد قرأت كل ما كتب عبد الناصر وقال ، فلم أستدل على أن الــرجل قرأ قراءة تذكر .. بل لا أظن أنه قرأ كتاباً كاملاً خارج كتب الكلية العسكرية . وكتاب فلسفة الثورة الذى وضعه وكلفنا ترجمــته إلى كل لغات العالم وطبعناه بالألوف هو دون شك أكثر كتــب الفكر السياسى العالمى سطحية ، والدوائر التى رسمها كلها وهمية ، وهو نفسه لم يكن يعرف معناها الحقيقى " .

د. حسين مؤنس : "باشوات وسوبر باشوات"

ـ أن المهمة الكبرى لحامل القلم والفكر ، هى الكشف عن وجه الحقيقة.

ـ أدهشنى بعد ذلك ما جاء فى بعض الصحف العالمية : أن كتاب فلسفة الثورة هذا تتولى توزيعه فى الخارج جهتان فى نفس الوقت : السفارة المصرية والسفارة الإسرائيلية.

ـ كان عبد الناصر فى أوائل عهده قد أعد خطبة يلقيها ويعلن فيها خطة أو رؤية للسلام فى المنطقة ، غير أنه سمع من السفير الأمريكى وقتئذ ، كلمة استقبله بها فى زيارة فلم تعجبه الكلمة ، وانفعل وغير خطبته واتجاهه فى الحال . وكان لهذا المسلك الانفعالى تأثيره على مصير الوطن كله ... كما سارت الأمور كلها بعد ذلك فى شؤون الدولة خارجها وداخلها على هذا المسلك وبهذا المحرك ! انفعال ورد فعل.

ـ كانت قبائل اليمن التى نريد استمالتها إلى جانبنا لا ترضى بغير الذهب، فكانت تلقى إليهم من طائراتنا الزكائب الممتلئة بالأصفر الرنان . كما كانت ترمى من الجو لجيوشنا أطنان التموين والغذاء من صفائح الجبن الفاخر والمعلبات واللحوم والفاكهة ، ولكن الشمس الحارقة وعدم وجود ثلاجات كان يفسد الأطعمة فتترك فى أماكنها مكدسة وقد لعب فيها الدود وانتشرت فيها رائحة العفن فلا يقربها أحد ، وأهل مصر من الجياع والمحرومين لا يعرفون أن طعامهم هذا الذى يتمنونه ملقى للحشرات على تراب اليمن السعيد . وكانت القبائل تأخذ ذهبنا بالنهار وتصطاد ضباطنا فى الليل وتجز رؤوسهم وتبيعها للطرف الآخر. غطاء الذهب الذى نملكه قد ضاع بأكمله فى هذه الحرب الضائعة .

ـ يجب إبعاد شخص الزعيم عن كل مسؤولية ، فالمسؤولون دائماً هم الآخرون، وهكذا استمر هو فى كرسى الحكم على مصر والزعامة الناصرية على العرب جميعاً – تلك الزعامة التى خربت مصر ونكبت العرب.

ـ إن فكـــرة الزعامة على العالم العربى هى التى أضاعتنا جميعاً ، وهـــى التى استحوذت على فكر عبد الناصر وجعلته قوة مدمرة لنفسه ولمصر وللعرب.

ـ ألوان من التعذيب بلغت فظاعتها مبلغ الأساطير.

ـ كـــان الانسحاب فى حرب ١٩٦٧ باهظ الثمن ، فظيعاً فى مـــنظره ونـــتائجه وآثاره ... بل كان فى رأى الخبراء العسكريين مجزرة بشرية رهيبة ، فالأمر بالانسحاب السريع لجيش كبير انتشر فى الصـــحراء واتخـــذ مواقعه بمعداته على مدى أسابيع ، ودعوته لـــلجرى حافـــياً تحـــت وابل من نيران العدو لهو قرار أهوج من مسؤول فقد أعصابه ويستحق المحاكمة.

ـ دفعـــتنى المشاعر ودواعى الوفاء فاقترحت إقامة تمثال له فى ميدان بالقاهرة ، جاءتنى خطابات من بينها واحد يقول فيه صاحبه أنـــه موافق على إقامة التمثال ولكنه يرى أن يكون مكانه ليس فى القاهـــرة بل فى تل أبيب، لأن إسرائيل لم تكن يوماً تحلم بأن تبلغ بهـــذه السرعة هذه القوة العسكرية ، ولا أن تظهر أمام العالم بهذا التفوق الحضارى ، إلا بفضل سياسة عبد الناصر .

توفيق الحكيم : "عودة الوعى"

هل من الضرورى لكل حاكم أن تكون له "فلانية" ؟

كالماركسية واللينينية و"الكوكتيل" المشهور، الماركسية اللينينية التى طبقت أوعلى الأقل حدث تظاهر بتطبيقها فى أماكن عديدة ، مـــن روســـيا إلى ألمانيا الشرقية ورومانيا وكوبا ، بل فى اليمن الجنوبـــية ... والنتائج أوضح من أن تتطلب أدنى تعليق ، وسوف يشهد من يبقون أحياء ، مصير كل هذه الأماكن ، فيما عدا ألمانيا، الـــتى تحولت إلى خراج متقيح فى جسد ألمانيا الموحدة ، وبالتالى فإنهـــا سوف تنعم بـــ "وحدة المصير" الذى لا تكف صحافتنا عن الحديث عنه ، وسنأتى لذلك .

هل هذا ضرورى ، أن يتحول الدكتاتور إلى أفلاطون زمانه؟

وهل هناك بسماركية وتشرشلية وروزفلتية ؟ ولماذا لا يقنع حكام دول لن نذكرها بالاسم ، بما قنع به هؤلاء الحكام الذين أنقذوا شعوبهم من الهلاك ؟ أنه حتى الإمبراطور اليابانى العظيم "ميجى" ، واسمه الحقيقى هو "موتسوهيتو" ، لم يخرج على العالم ولا زعم أتباعه أن هناك شيئاً اسمه "الميجية" أو "موتسوهيتية" .

لقد عشنا لنرى فلسفات توضع لتكون مواثيق لمستقبل البشرية، تنسب لأسماء نفر لا يعدون أن يكونوا أنواعاً من الفتوات ذوى النوادر والحكايات، تأمل كيف اتخذ قرار توريط مصر فى حرب ١٩٦٧ وحاول أن تتساءل ! ترى أى حساب عمل قبل اتخاذ خطوة كهذه ويا ترى ماذا كان مستوى دراية من اتخذه..لا بأحوال العالم، بل درايته بأحوال بلده وقواته ؟ شراء الترام فى أروع صوره!

ــ احنا جاهزين يا عبد الحكيم ؟

ــ برقبتى ياريس .

هذا كل ما دار فى اجتماع نشرت الصحف أنه استمر أربع ساعات، وصدرت تصريحات تؤيد صحته ، منها ما رواه نائب الرئيس حسين الشافعى وهو يدين المارشال ويحمله المسؤولية .

إذا كان قدرنا أن توجد كلمة كهذه، الناصرية نسبة إلى ناصر، كما أن الملوخية منسوبة إلى الملوك، فلنتأمل فى مضامينها لعلنا نجد شيئاً. طبعاً كان مفروضاً أن تكون "العتريسية"، عبد الناصر نفسه لا ذنب له فى الموضوع.

تتمثل الفلسفة الناصرية ــ فيما يحكى ــ فى كتاب "فلسفة الثورة"، الذى لا يبدو لى أنه يزيد على صفحات من الشعر المنثور، بالغ الركاكة متهالك اللفظ والمعنى ، يتحدث عن ثلاثة آفاق للعمل الوطنى والسياسى ، إفريقيا والعالم الإسلامى ثم العالم العربى، الذى هو جزء من الإسلامى طبعاً ، وهذا ما جعل سفارة إسرائيل توزعه فى كل بلد هى فيه لترى العالم أن فى مصر حاكماً مستبداً يحلم

بالنفوذ فى هذه الدوائر الثلاث ، وقد اقتنع العالم بذلك كما هو واضح من النتائج.

ثم هناك مبادئ الثورة، التى يدرسها الأطفال المصريون فى المدارس، وهى تبشر بالقضاء على ثلاثة أشياء وإرساء أو إقامة ثلاثة أخرى .

القضاء على الاحتكار، باحتكاره ! أى الانفراد به، ثم القضاء على الإقطاع الذى لا وجود له ، فمصر لم يكن بها إقطاع بل مجرد ملكية زراعية مسطحة لا يقوى صاحبها على تحويلها إلى ما اصطلح الناس على إطلاق هذا الاسم عليه ، بسبب طبيعة الأرض وأنموذج الرى النهرى الترعى واحتكام السلطة المركزية.

ثم يأتى القضاء على الاستعمار. ما الاستعمار ؟ وكيف سيكون القضاء عليه وعلى أى نطاق؟ وما نهاية هذا كله؟ على أية حال، فقد توصل عبد الناصر إلى ما يشبه مشروع صدقى بيفن الذى كان معروضاً علينا فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقبل أن يخرج الإنجليز ـ وهذه فيما نظن غاية القضاء على الاستعمار، وإلا فماذا هى؟ ـ كان قد استجار من الرمضاء بالنار وجاء بالروس ... لينبهروا هم بما لدينا فى بنزايون وعمر أفندى. على أى حال، كانت خطب عبد الناصر وإجراءاته وأحلامه ، تدور حول ما يلى :

ـ **دعوى القومية العربية** ، وفحواها أننا ما دمنا كلنا نتكلم لغة واحدة ونديـن بملة واحدة فنحن إذن وطن واحد، ويجب ـ لكى نصبح أقوياء ـ أن نتحد ونصبح دولة واحدة تسمى ـ مثلاً ـ الجمهورية العربية المتحدة *، كما حدث فى حالة مصر وسوريا

* أمكننا أن نسترد اسمنا على الأقل ! كنت فى بعثة تدريبية فى صيف ١٩٦٦ ، قبل النكسة المباركة بأقل من سنة ، وفى حفل استقبال أقيم لنا ، اقتربت منى أحدى السيدات . وقرأت اسمي واسم بلدى على البطاقة المعلقة على صدرى ، وقالت لى ـ أى والله ! ـ لا تؤاخذنى على جهلى يا سيدى ، أين تقع الجمهورية العربية المتحدة ؟ تذكرت هذا ، ومارست ما سمية يوسف الشارونى " الضحك حتى البكاء " ، عندما قرأت عن مشاجرة ببين الجاويش النوبتجى الذى كان يحكم سوريا بعد ذلك بسنتين ، اسمه أمين الحافظ ، وعبد الناصر فى مؤتمر قمة (قمة من تحت يعنى) ، وقال له انه يحذره مما أسماه تدخل الجمهورية العربية المتحدة فى شؤون سوريا ! وكانت تلك الجمهورية قد فقدت سوريا ثم ربع مصر ولكنها ما تزال متحدة .

اللتيــن أصبحتا إقليمين، أحدهما شمالى والآخر جنوبى، يحكمهما طــبعاً زعــيم معبود من هذين الشعبين، وهكذا فإن جميع الدول المســماه بالعربــية ، يجب أن تدخل هذا الاتحاد بما فى ذلك دول نظامهــا هو الملكية الوراثية المطلقة، كدول الخليج والأردن وليبيا (إذ ذاك) والعراق (إذ ذاك) والمغرب، بمعنى آخر لابد من "قلش" هذه العروش وتوحيد هذه البلدان، من المحيط الهادر ــ ولماذا هو هــادر؟ ــ إلى الخليج الثائر، وهو لابد ثائر، يغلى، لأنه لا يطيق هــذه الفــرقة الــتى صنعها الاستعمار، وتعتمل فى أعماقه أحلام الملايــين فــى الوحــدة. ليس هناك شىء اسمه كويتى ومصرى وتونسى (برغم المثل الشائع الذى يقول: آيه لم الشامى ع المغربى ؟) هناك مواطن عربى يعيش فى الكويت وآخر فى مصر وهكذا. وآيه ذلك وحدة الشعبين العربيين فى سوريا ومصر التى استمرت ثلاث ... ثلاث ماذا ؟ ثلاث سنوات كاملة ! وعندما انفصمت كان مــا جرى للمصريين فى سوريا هو آية الوحدوية المحايدة ! وكان العلاج سهلاً، شغل القيادة بالميثاق، وشغل الناس بمعادلة لتخفيض إيجار المساكن تهون إلى جانبها حسبة برمة كما تسمى .

ــ **دعــوى الاشتراكية** . كل هذا لا يكفى . فكما أن الحقيقة قد تجلــت للزعــيم العظيم ، وفتح عليه الله ــ استغفر الله! فتح عليه خروشــوف وبريجنيف وأذنابهما فى مصر ، كمال رفعت وعلى صــبرى والأســاتذة الماركســيون ، فتحوا عليه بنور الاشتراكية متمــثلاً فى طائرات السوخوى ودبابات من جميع الأرقام. كما أن هــذا قد تجلى له، فلابد للمادية الجدلية أن تبسط جناحيها كالطائر الميــمون فــوق وحدة العرب، بما فى ذلك الجزيرة العربية ذات البترول وموطن "فلوس البترول" (التى تحدث عنها عندما روى أن الضابط الهمام، عصام، أخذ فلوس البترول التى أعطاها له الملك ســعود ليقــتل عبد الناصر وجاء بها إليه لتكون نواة لمشروعات الفشنك المسماه بالقاهر وأيضاً بالظافر. لماذا لم يسموها " ناصر "

و"عامر" ؟) والتى فيها أيضاً الكعبة الشريفة والحرم النبوى .

والاشـتراكية هنا شيء منطقى جداً . سوف تشترك أقاليم هذا الوطـن العربى فى كل شيء : هناك من لديهم الفلوس ومن لديهم التكنولوجـيا ، وهكذا ، كنظرية الأوانى المستطرقة ، نصبح كلنا سـعداء ولا أحد يملك شيئاً، كلنا نملك كل شيء . أما إسرائيل و "مـن هـم وراء إسـرائيل" ، فلدينا القوة النووية العظمى للاتحاد السـوفيتى وهى كفيلة بأن تسكت صنائع الإمبريالية فى كل مكان، وهكذا نسترد "حقوق شعب فلسطين" ، باستخدام "أكبر قوة ضاربة" فى الشرق الأوسط ، خصوصاً بعد أن تتحول شعارات "لم الشمل"، ووحـدة الصفوف ، ووحدة المصير ، وقد أضيف إليها الآن "تنقية الأجـواء" مما يوحى بأن الأجواء إذن ملوثة. كما تتساوى الأقاليم فـى الثروة (وهو ما نادى به صدام حسين أيضاً، اقتسام الثروة ، آه، اللـى فى جيبك فى جيبى ، إحنا مش إخوات؟) سوف يتساوى الـناس داخـل كل إقليم ، وما عليك إلا أن ترجع إلى عبد الحليم حـافظ لكى تتحقق من إمكانية هذا كله. وطنى يا مالك حبك قلبى ... يا وطن الشعب العربى .. ياللى ناديت بالوحدة الكبرى بعد ما شفت جمال الثورة ... جمال، والثورة ؟

أغلبنا لا يريدون، ولا يستطيعون، أن يتصوروا وقع هذا الكلام على حكام دول المنطقة وشعوبها .

مقتطفات من كتاب الملك حسين : "حربنا مع إسرائيل"

ـ وسط هذا الجو المحموم لم يجد السوريون أنسب من أن يرسلوا إلينا فى ٢١ أيار (٢١ مايو سنة ١٩٦٧) سيارة لتنفجر فى الرمتا عـلى الحـدود ، وكان من المفروض أن تنفجر فى قلب عمان ، وأسـفر هـذا الحـادث عن مصرع ١٤ أردنياً . ورداً على هذا الشعور الأخوى قطعنا علاقاتنا مع دمشق . وقد أدى الحادث إلى

إشـــاعة القلق فى الأردن ، ففى هذه الظروف الدقيقة لم نعد نعرف ممن نحذر : من عدونا إسرائيل ، أم من حلفائنا العرب ؟

ـــ اســـتبعدت أن يكون الرئيس المصرى راغباً فى الوصـــول إلى الحرب ، بل قام فى ذهنى أنه لا يتوقع نشوب نزاع ، فى حين كنت أنا مؤمناً بحتمية هذا النزاع.

ـــ فى يـــوم ٢٨ أيـــار (مايو) ١٩٦٧ قطعت خطوة أخرى فى تصـــعيد النزاع : فقد عقد الرئيس عبد الناصر مؤتمراً صحفياً فى القاهـــرة وأعلـــن أمـــام ٣٠٠ صحافى : "إذا أراد الإسرائيليون الحـــرب، أقـــول لهـــم أهلاً وسهلاً، تفضلوا" ، وهذا يعنى "أيها الإسرائيليـون ، ابدأوا أنتم بإطلاق النار .

ـــ كانـــت رغـــبتى فى مقابلة عبد الناصر غريبة عندما نفكر فى الشتائم والإهانات التى تصبها إذاعة القاهرة منذ سنة على العرش الهاشمى .

ـــ ذهلـــنا عندما شاهدنا أحمد الشقيرى يخرج من الطائرة وراء الملك ، كان يبدو واثقاً من نفسه وهو عارى الرأس و يرتدى ثياب الميدان من طراز ماوتسى تونغ . تقدم نحونا من دون أى إزعاج ، كان شيئاً لم يكن. كأن الوصول إلى الأردن كان بالنسبة إليه أمراً طبيعـــياً جداً . تصرف معنا ، ونحن الذين نعرفه تماماً، كأن شيئاً لم يحدث بيننا . يبدو أن السيد الشقيرى نسى أنه يعلن ، منذ سنة ، بأنه "يجب إسقاط نظام عمان قبل نظام تل أبيب" وهذا كله لم يمنع الشقيرى من تقبيل البعض ومصافحة البعض الآخر .

(زيد الرفاعى)

ـــ أخـــى العزيز الملك حسين : يوم يكتب التاريخ ، سيذكرون شجاعتهم وصمودكم

(برقية من عبد الناصر)

وشىء اسمه القومية العربية...

فـــى سنة ١٩٥٣ ، سرت إشاعة مؤداها أن أستاذ الجيل أحمد لطفـــى السيد (باشا) يستعد لكى يشغل منصب رئيس الجمهورية ، (نجا بجلده !) - وكتب المفكر والعلامة الكبير إذ ذاك مقالاً تحت عنوان "مصر تحكم بأبنائها لأول مرة منذ ألفين وخمسمائة سنة" ــ أذكر هذا لأنه ربما يكون هذا هو السبب فى أن الكثيرين من أبناء بلدنـــا يرفضون أن يتأملوا الحقيقة بشأن تلك الحقبة وما جره هذا كله عليهم، لأن هذا سيكون اعترافاً ضمنياً بأننا لا نصلح لأن نحكم أنفسنا، ما أن حكمت مصر بأبنائها حتى ذاقت من الفقر والاستعباد والهزيمة والخراب والقمع والتعذيب والتشرد والإذلال ما لم يسمع به أحد طوال ألفين وخمسمائة سنة، كأن قضية الحكم ليس فيها إلا هذا : أن يكون الحكام من أبناء البلد .

لـــم تكن مصر تحكم بأبنائها عندما نشأت فيها أول مكتبة وأول مـــتحف فى تاريخ البشرية ، وعندما زارها أفلاطون وعاد ليذكر فـــى الكتاب السابع من "القوانين" أنه يشعر بالخجل لمستوى تعليم أبـــناء بلده من الإغريق عندما يقارنه بمستويات تعليم الأطفال فى مصـــر ، حيث يتقنون الحساب وهم ما يزالون يتعلمون الأبجدية، وتعد الألعاب الحسابية لإقناعهم وتوسيع مداركهم . لم تكن مصر محكومة بأبنائها عندما دحرت الغزاة من الصليبيين وعندما قصمت ظهـــر التتار الذين مسحوا آسيا بأكملها ، ولم يكن من أبناء مصر ذلـــك الأحمـــر الوجه الأزرق العينين الأصفر الشعر الذى لم يولد فـــيها ولـــم يعـــرف لغتها ، ولكنه خلصها من قبضة الأفاقين من السفاحين السفلة واللوطيين الذين أفسدوا وأذلوا أهلها ، لم يكن من أبنائها ولكنه كان لديه من البصيرة ما يكفى ــ كما قال عنه بيرم التونسى ــ لأن يراها ببصره وبصيرته "كنوز، بس اللى يعرفها!" ــ لـــم تكـــن تحكـــم بأبـــنائها عندما أنشئت فيها واحدة من أعظم جامعات الدنيا إذ ذاك ، كان من أعلامها لطفى السيد ، وبذلت فيها

الأميرة فاطمة إسماعيل ـ بنت مصر، بكل تأكيد ـ الكثير الوفير من مالها الموروث عن أبيها الخديوى، وعندما أنتجت أمير الشعراء أحمد شوقى، والعلماء من طبقة مشرفة وعلى إبراهيم وكامل حسين والسنهورى ووحيد رأفت ، وأقطاب الفنون والآداب والموسيقى والمسرح وكل شيء ، فقط ، متى يكون الإنسان ابن بلده ؟

هل الأمريكان أبناء بلدهم ؟ والأستراليين والكنديين ؟ سواء من يتكلمون الإنجليزية أو الفرنسية ؟ ولماذا لا يظهر فيهم زعيم يلم شملهم ويحقق أحلامهم فى الوحدة ؟ أليسوا يتكلمون نفس اللغة ويدينون بنفس الديانة ؟

ولماذا لم يظهر فى سويسرا وبلجيكا زعماء يدعون الذين يتكلمون الألمانية والفرنسية والإيطالية وغيرها من اللغات ، إلى ثورة تعيدهم إلى تلك الأوطان ؟

عندما اشترك الأمريكان فى الحرب العالمية الثانية وغزوا ألمانيا وإيطاليا ، ألم يكن ربما أكثر من نصف جنودهم من أصول ألمانية وإيطالية ؟ وكانوا يقابلون أقاربهم فى البلاد التى دمروها فى زحفهم ؟

لو كانت القومية هى مجرد اللغة التى يتكلمها الناس، ومعها ديانتهم ، لوجب إذن أن تتغير خريطة العالم وتظل تتغير بصفة دائمة.

المسلمون فى الهند عددهم يفوق عدد المسلمين فى الباكستان، وفى بنجلاديش ؟ وهم يتكلمون الأردية والبنجالية والبنجابية ، حسب نشأتهم ، والمسلمون الذين لا يعرفون العربية ، من إيران شرقاً إلى أندونيسيا، عددهم يبلغ أضعاف المسلمين الذين يعرفونها.

اذا لم تكن القومية هى اللغة والدين ، فما هى ؟

هذا هو السؤال ، أليس كذلك ؟

إلى أى "قوم" ينتمى الفرد الإنسانى ؟

هناك عوامل كثيرة ، أقلها شأناً هو الأصول العرقية واللغة والدين . وهذا لا يعنى أبداً أننا نقلل من شأن هذه العوامل. فاللغة وسيلة الإنسان إلى التعلم والعمل ومعاشرة الناس والكون، والإنسان حيوان ناطق ، وبدون اللغة يصبح حيواناً غير ناطق . والدين وسيلته إلى الله ، وبدونها يكون مشوش الإيمان منعدم القيم. كل هذا صحيح . فقط هذا شيء والقومية شيء آخر.

وقد كان البطالسة من الذين حكموا مصر ، وكانوا يتكلمون اليونانية ، ولكنهم تشربوا حضارة مصر وديانتها وأصبحوا مصريين .

وفى أمريكا اليوم ملايين من أصول فلسطينية ومصرية ، قد لا يكون الذين هاجروا منتمين تماماً للبلد الذى هاجروا إليه ، ولكن أبناءهم أو أحفادهم على الأقل سيكونون كذلك . هكذا حال الدنيا .

بل إن الأمر لا يقتصر على هذا ، كل من لديه القدرة المالية المطلوبة فى بلد مثلنا ، يحاول أن يعيش حضارة العصر لأنها هى الحقيقة الصلبة ، تأمل المدارس الأجنبية ، وتأمل الجامعة الأمريكية ، بل دكاكين ماكدونالدز (التى هى عندهم نظير عربة اليد التى تبيع الكشرى والفول المدمس ، لا أكثر) تأمل سلوك الشباب فى الديسكو وعلى نواصى الشوارع ، إن لم تكن هذه هى "موضة العصر" فما هى ؟ الغاضبون عليها هم الذين لا ينالونها ، ومن ورائهم زعماء غارقون فيها ، يشعلون أحقادهم لكى يستبعدوهم ، هذه هى القصة بلا زيادة ولا نقصان .

هل يوجد شيء اسمه العالم العربي ؟

حقـــاً ، الكـــيان الصهيوني مفهوم . صحيح أنه ليست له حدود واضـــحة ، وكانـــت جولـــدا مائـــير تقول : حيثما يقف الجندي الإسرائيلي ، هذه هي حدود إسرائيل ، وكيف لا ؟ نحن أعطيناهم صـــكاً بممارســـة البلطجة يوم ظهرنا أمام العالم بمظهر المتخلف الفقير الذي يتخذ موقع القوة العظمى ويريد أن يحل مشاكل العالم ، اليوم عندنا مشكلة الكونغو (نؤيد الثورة على السفينة بونتي ! نؤيد ثورتكـــم ، أرسلوا الأولاد ! حقاً ، ما أعظم النكتة المصرية ولعن الله من أصاب أصحابها بما أصابهم). وغداً لدينا مشكلة فيتنام ... إلخ ، أما مشاكلنا في الصحة والتعليم والتموين ... فما أسهل حلها، نضع ضباطاً في مقاعد هذه الوزارات وفي الحال تتحل المشاكل. قد ترى هذا صحيحاً أنت وأنا، ولكن العالم ــ وهو يضم إسرائيل، ويجلســـها فـــي الأمم المتحدة، شئنا أم لم نشأ ــ فهو يرانا بمنظار يختلف قليلاً .

الكيان العربي ، بالضبط ما هو ؟

في سنة ١٩٥٣أعلنت قيادة القوات المسلحة عن مسابقة بعثات إلى الولايات المتحدة في مختلف نواحي الخدمة، وكان فيها مسابقة مخصصـــة لسلاح المهندسين تقدمت إليها ، وكان الامتحان يتكون من: المادة الفنية (معدات ميكانيكية في هذه الحالة)، ولغة إنجليزية ، ثـــم معلومات عامة. وكان اختبار المعلومات العامة ثلاثة أسئلة يختار المتقدم واحدًا منها، وكان اختياري "جامعة الدول العربية" .

كان قد مضت بضع سنوات على إنشاء هذه المنظمة التي لست أدري ، لـــم أكن إذ ذاك أدري ، ولا أدري الآن بعد مضي نصف

قرن ، كيف أصفها دون أن أرتكب جريمة أو أقع فى محظور أو آخــر ؟ وأنـــا لســت صحفياً أو مفكراً ، أنا ضابط فى الجيش ، (وقتذاك) .

إلا أنـــنى لم أعبأ بشىء ، ومضيت أكتب أننى لست أرى دوراً لهـذه المنظمة وكيف يستسيغ من فيها أن يبقوا فى مناصبهم وقد رأوا الأنظمـــة العربـــية ترسل قواتها إلى فلسطين لا فى محاولة لإنقـــاذ شعبها من الضياع والهوان ، بل رغبة فى اقتسام الغنيمة. إمـــارة شرق الأردن تحولت إلى مملكة على حساب هذا الشعب، وواضــــح أن الإســـرائيليين اســـتولوا علـــى بير سبع لكى ينعزل المصــــريون فـــى الخليل وبيت لحم ويضطروا إلى تسليم المنطقة للأردنيين ، فلا سبيل لهم إلى الانسحاب سوى من ذلك الطريق، لم أذكر شيئاً عن اللد والرملة والعملة ، تركت هذا لعبد الحليم حافظ، ثـــم انتقلـــت إلـــى الدول العربية التى ليست مواجهة لإسرائيل ، وذكرت أن دورها فى الموضوع هو لا شىء .. مجرد إرسال قوة رمزية ، غالباً تتكون من أشخاص مطلوب إبعادهم .

مضـــت هـــذه الســـنوات الطوال ورأينا دولة عضواً فى هذه المنظمة تنقض على دولة أخرى وتعيث فيها سلباً ونهباً وإحراقاً، وتعلـــن إنهـــاء وجودهـــا وأنها قد تحولت إلى محافظة رقم ١٧، وانعقـــدت القمة . أنا لا أنتظر من هذه المنظمة عملاً إيجابياً، فقط علـــى الأقـــل يحـــدث إجماع على الاعتراض على هذا العمل ــ تصـــور ! أن هـــذا لم يحدث، ستة أعضاء من هذه الدول الاثنتين والعشـــرين ، وافقت على ما حدث ؟ أظن أنه لو أن الذين اختشوا بقـــى مـــنهم واحـــد فقـــط لكان قد أغلق مقر هذا الشىء المسمى بالجامعـــة، (ولست أدرى من أين جاء هذا الاسم) ، ثم يتحول هذا المقـــر إلـــى فندق أو مدرسة أو حتى سوبر ماركت . يا لها من مهزلة ! كم ملياراً يا ترى من أموالنا نحن الفقراء ينفق على مآدب الكافيار والطائرات المجهزة لانتقال "الآلهة" ؟ أما عندما يأتى الأمر

لمصــر فالإجماع ! تعليق عضوية مصر.. ونقل مقر الجامعة إلى تونــس، رحم الله السادات : "لو أن نقل الجامعة من مصر سيعيد حقوق شعب فلسطين فنحن على استعداد لأن نحملها على أكتافنا" .
لحق بمصر الملك حسين فى الصلح مع العدو، ولا شئ، وعقد ملك المغــرب مؤتمــراً حضــره يهــود العــالم بمــا فيهم مئات من الإسرائيليين، ولا شيء ! وعندما جرؤ البعض على انتقاده قال إن هذه مسألة داخلية فى المغرب ولا شأن لأحد بها.

تــرى ما هى بالضبط أهمية حقوق شعب فلسطين عند الأنظمة العربــية ؟ وأيهــا يعــد بحــق طرفاً فيما يسمى بالنزاع العربى الإسرائيلى ؟

هل صحيح أن قوات إسرائيلية ساعدت الأردن فى القضاء على المقاومة الفلسطينية فى أيلول الأسود ؟ سنة ١٩٧٠ ؟ إذا أخذنا فى اعتبارنا ما كان يمكن أن يحدث لو تغلب الفلسطينيون على الملك حســين واضطروه لمغادرة بلاده لعرفنا كيف أن هذا الأخير كان محقاً تماماً فى أن يستعين بالشيطان نفسه كما فعل تشرشل . فقط ما الذى يدل عليه هذا كله ؟

هل توجد دولة من هذه الاثنتين وعشرين، فيها نظام يهمه بأى درجة أمر الشعب الفلسطينى، بخلاف دول المواجهة، التى وجدت نفسها فى مأزق جغرافى ، وبخلاف مصر التى .. ما علينا.

وما الذى تحقق بعد هذا كله ؟

وهــل كانت الأمور تكون أسوأ من هذا لو أن أحداً لم يعترض على قرار تقسيم فلسطين ؟

وهــل أى دولــة أو عدد من الدول فيما يسمى بالعالم الثالث ، يمكنها أن تفرض إرادتها بالقوة فى موضوع كهذا؟

نحــن نذكر ما حدث لإنجلترا وفرنسا وإسرائيل سنة ١٩٥٦، ومــنه أن نويرين بيفان النائب العمالى ، وقف فى البرلمان يقول: قبل أن نلجأ إلى شريعة الغابة ، علينا أن نتذكر أننا لسنــا أقــوى

الوحوش التى تعيش فيها .

ألسـنا نـرى الـدول المنتجة للسلاح الذى ينفع فى الحروب الحديـثة، كلها مؤيدة لإسرائيل وساهمت فى إنشائها ودعمها بكل شىء وبكل طريقة ؟

آن الآوان لأن نتساءل : لماذا يدعمونها ؟

العالم الثالث وحضارة العصر :

يجب أن يكون واضحاً لنا أن الغالبية العظمى من الدول العربية ـ كمـا تسـمى ـ غارقة فى مشاكلها هى ـ سواء كانت مشاكل الحكم وانتقاله ، أو مشاكل الفقر والمعيشة ، أو العلاقات الخارجية والأخطـار المحيطة ـ وأن دورها فى مشكلة فلسطين لا يتعدى خطـبة تقـال فـى مؤتمر ، أو ـ إذا كانت الدولة خليجية، وبعد مجـىء ثمار البترول فى أواسط الخمسينيات ـ مبلغ من المال . وهـذا المبلغ عادة لا يصل إلى الشعب الفلسطينى ، إنه يذوب فى حمامـات الفنادق الفاخرة وفى رمال الريفييرا . لا يفوتنى هنا أن أذكـر بالخـير والإعجاب ما فعلته دولة الكويت بالذات ، فتحت أبوابها ووظائفها للفلسطينيين ، بما فى ذلك منصب وزير الخارجية فـى ذلـك الوقت ، الذى كان فلسطينياً ، (كان اسمه فايز صايغ) وتـأمل مـا لقيته الكويت نظير ما قدمته من خير وتضحيات. إن أحاسيس الغيرة والنقمة والرغبة فى تدمير الآخرين كتعويض عن إصـلاح الـذات وتحسين الأحوال، هى التى تتمثل فى العلاقات العربـية أكـثر مـن أى شىء آخر ، ومن ذلك الشعار الذى كان يـرفعه أحمـد الشـقيرى ، وهو أن تحرير عمان يجب أن يسبق تحريـر فلسطين، هذا مع مراعاة أن المملكة الأردنية فتحت هى أيضـاً أبوابهـا للشـعب الفلسـطينى ، وكمـا هو معروف، فإن الفلسـطينيين يشـكلون غالبـية سكان المملكة، وانظر ما أوشكت

الأردن أن تلقـــاه فى أحداث أيلول. ولو أن الضفة الغربية تحولت إلـــى جـــزء من المملكة الأردنية ولو أن المملكة سعت إلى كسب اعـــتراف العالم بذلك ـــ وأظن أن هذا كان متاحاً بسهولة ـــ لكان شـــعب تلـــك المنطقة قد عاش فى دولة مستقلة تنعم بحكم مستنير وسياســـة رشيدة ، وإذا أردت تقييماً للملك حسين فما عليك إلا أن تعـــيد الاســـتماع لمـــا يســـمى خطاب التنحى ، والذى يأتى فيه الاعـــتراف بفضـــله وشهامته وشجاعته ، بعد سنوات من الردح الـــبذئ والسباب الرخيص "ابن زين" ، وماذا فى ذلك ؟ كما كتب أديب معروف ذات مرة، ما الذى يضير إنساناً أن تكون أمه اسمها زين ؟ (ولسنا نريد أن نشير إلى ما يشاع عن امهات الحكام ومن أيـــن أتـــوا) يا لها من تفاهة وسفاهة، وبعد هذا نتساءل ما الذى جرى لنا ؟ حقاً، اللى اختشوا ماتوا، هكذا يقول المصريون، ويقال أنهـــم ماتوا فى الزلزال الذى ضرب الإسكندرية أيام الفاطميين ، وكـــان الـــناس يســـتحمون فـــى حمـــام عمومى، خرجوا عرايا ومذعوريـــن، "خلعوا برقع الحياء" إذا كان البديل هو الموت، أما الذين لم يقدروا على ذلك، الذين "اختشوا" ، فهؤلاء الذين ماتوا .

حقاً ، ما أفدح المصيبة وما أعظم الكارثة.. لا يكاد يوجد نظام حكم فى العالم العربى طوال سنوات الحرب الباردة، لم يحاول أن يســـتغل مأساة الشعب الفلسطينى لمصلحته هو، باستثناءات تتمثل فى دول الخليج ، التى ليس لديها إلا المال والوظائف ، وقدمت هذا بقـــدر عظـــيم، ســـواء كان هذا تعاطفاً، أو خوفاً من الرأى العام عـــندها، أو مـــن تهديـــد الفلســـطينيين الذين أعلن بعضهم أثناء الســـبعينيات أنهـــم سوف يتسللون إلى غرف نوم الحكام، كل هذه كانت مسببات للسخاء العظيم الذين قدموه. وهناك دول مثل لبنان، لا ناقـــة لها ولا جمل فى المسألة لاعتبارات معروفة جيداً، ولكن النكســـة جاءتهـــا باختلال فى التركيبة الاجتماعية وغزتها فصائل الـــتحرير التى بدأت تلعب فيها نفس الدور الذى لعبته فى الأردن

وهو تصويب السلاح لا إلى العدو الإسرائيلى عبر الحدود، بل إلى صدور أصحاب المتاجر والمطاعم، أدى هذا ـ كما نعرف ـ إلى حرب داخلية طاحنة قسمت لبنان إلى مناطق نفوذ طائفية، بقية هذه القصـــة معـــروفة للجميع وعواقبها ما تزال ماثلة. لبنان على أية حال، بلد لا يستطيع أن يعطى شيئاً، وكانت مركزاً للإشعاع الثقافى والحضارى، كان يمكنها أن تلعب دوراً بهذه الصفة.

هـــناك استثناءات أخرى: تونس. فى ظل حكم بورقيبة ، ظلت تونس تحتفظ بروابط ثقافية مع فرنسا، وكان بورقيبة يرى حتمية التعامل مع إسرائيل، ويرى أنه لا فائدة من النزاع المسلح ، وأظن أنه لم يعد هناك ضرورة للدفاع عن هذا الموقف. بعد نصف قرن نرى جميع العرب يرفعون شعار أنهم: دعاة السلام !

ليبيا : أيام السنوسى ، يعنى لغاية قيام ثورة الفاتح العظيم سنة ١٩٦٩ ، ثم الجزائر ، بلد المليون شهيد ، بطولة، ما فى ذلك شك، إلا أن الحـــياة فيها أشياء كثيرة ذات قيمة بخلاف البطولة ، منها الحكمة مثلاً ، كما فى حالة بورقيبة ، خصوصاً إذا كان مليونٌ من البشـــر سوف يهلكون من أجل زعماء يسرقون الملايين ويقتلون بعضهم بعضاً، وما عليك إلا أن تتأمل النتائج! آه ، المغرب ، أيام محمد الخامس ثم الحسن الثانى، البلد الذى هو بداية العالم العربى مـــن ناحية المحيط الهادر .. الحرس الملكى الخاص فى هذا البلد يتلقى تدريبه فى إسرائيل فيما يقال. لا ألومه على ذلك. انعقد مرة مؤتمـــر قمـــة هناك، وطبعاً ثارت الخلافات، ووقف الملك الحسن يقـــول لـــــ "ضيوفه" ـــ "المطارات كثيرة فى المغرب" ـــ وفعلاً، انفضوا بعد أن طردهم رئيس المؤتمر، الذى أصبح بعد ذلك رئيساً للجنة القدس !

مجـــرد ربـــط كل قرار يتخذ بإجماع هذه التوليفة العجيبة من المندوبيـــن ، لا يعنى إلا استحالة اتخاذه ، اللهم إلا إذا كان موجهاً ضـــد البقرة الحلوب . أما البقية ، فكما يقول المثل : ما قدرش ع

الحمـــار قـــدر ع البردعة . كل واحد يرى أن المشكلة لا تحل إلا بتحرير بلد عربى آخر من نظامه العميل .

نحن نعيش عصراً معيناً، ومع تمسكنا بأهمية الماضى، وحتمية المســتقبل ، فإن لهذا العصر حضارة تفرض نفسها علينا، والذين ينكرونها إما يفتقرون إلى ما يلزم لمعايشتها، أو يريدون تعزية من يفتقرون إليه. ولكن هناك فارقاً كبيراً بين ما هو واقع حاصل، وما هـــو قضية أخلاقية. مواثيق الأخلاق ضرورة للمجتمع الإنسانى، ولكن الحياة ليست بأكملها قضية أخلاقية، والفرد الإنسانى قد يكون ملـــتزماً ومتعاطفاً، ولكنه يظل فى موقف يفرض عليه أن يتنافس مـــع الآخرين ويتسابق معهم من أجل لقمته. هناك نمط حضارى يهيمـــن علــــى هذا العصر، وهو لا يتمثل فى مجرد أمريكا التى أصبحت "ملطشة" بسبب موقعها القيادى، بل هو أمريكا واستراليا وكندا وأوربا واليابان والنمور الآسيوية، قد يكون أصدق تمثيل له هو مجموعة الدول الصناعية، وإذا تمكنت روسيا من أن تفيق مما حـــاق بها من حقبة الشيوعية (والذى حاق بنا أدهى وامر وأضل سبيلاً ولا أظن أننا سوف نستطيع أن نشرئب بأعناقنا فوق الوحل الـــذى غرقنا فيه) فإنها سوف تنضم إلى هؤلاء. سوف نعود إلى الخريطة الحضارية للعالم وموضعنا فيهـــا بعد ما سيأتى.

هل مازلت تتصور أن هناك شيئاً اسمه العالم العربى ؟

هـــل مازلـــت تظـــن أن هـــناك شـــيئاً اسمه الصراع العربى الإسرائيلى ؟

مـــا فتــئـــــنا (حلوة دى ؟) ما فتــبئـــنا نتحدث عن لم الشمل ووحدة الصف، ونعيد ونزيد، مضى القرن العشرون بأكمله ونحن نخدع شعوبنا بهذه التعبيرات التى ليست جوفاء فحسب، بل أيضاً ركـــيكة وســـمجة وعديمة المغزى. كل دولة عربية دون استثناء تقريـــباً، دخلـــت فـــى صراع مسلح مع دولة عربية أخرى، على الأقـــل. أو حشـــدت قواتها كما حدث بين سوريا والأردن، بشكل

يذكرني بنجيب الريحاني وهو يتشاجر مع جاره في الدور العلوي فـــي فيلم "سلامة فى خير"، ويصعد الدرج جرياً ثم يهرول نازلاً. ضــع نفسك مكان إسرائيل، سواء الحكومة أو الشعب، وحاول أن تفكر أو تشعر بما يفكرون به أو يشعرون ؟ ما الذى وراء هذا ؟

وراءه حقــيقة لا نـــريد أن نعترف بها أو حتى نواجه أعماق نفوسنا بها: العرب مجموعة من الدول ليست بينها روابط حقيقية. مـــتفاوتة فـــى كـــل شىء ومتباينة فى كل جانب وكل مظهر من جوانـــب الحـــياة ومظاهـــرها. مستوى المعيشة، مستوى التعليم، التقالـــيد، العادات، العلاقات الدولية، نظم الحكم والإدارة، الفنون، الملابـــس، طبـــيعة الأرض، النشاط الاقتصادى، العملة، بعضها قصـــاقيص أو كوبونات محلية، وبعضها له مكانة عالمية كالدينار الكويتى مثلاً وبقية عملات الخليج والأردن. ليس لدينا شىء يعطيه أحدنا للآخر .. اللغة؟ آه، أية لغة يا سيدى العزيز؟ إن قيمة أى لغة هى نتاج ما يفعله بها أصحابها. فما الذى نفعله بها؟ هل جامعاتنا تجـــرى الـــبحوث بالعربية؟ هل توضع المؤلفات الفكرية والعلمية باللغـــة العربـــية؟ إننا حتى لم نعد نفهم بعضنا بعضاً، وأتمنى أن نجمـــع فى صيوان واحد أساتذة اللغة فى كل الأنحاء ونجرى لهم امتحاناً!

والأدهى من هذا كله ، مصيبة الشيوعية .

الـــذى أقصده بالشيوعية ليس التنظيم الحزبى ولا موقف دعاه الماركســـية كما يحب صديقى المذكور أن يقول "عبد الناصر كان بيحـــبس الماركســـيين"، صحيح . وكذلك ستالين . لم يكن ستالين يكتفى بحبس الماركسيين ، أنه كان يعذب ويقتل أنبياء الماركسية مـــن نـــوع تروتسكى وغيره ، فهل هذا يا أخى العزيز، ينفى أن الاتحاد السوفيتى كان تطبيقاً لنظرية الشيوعية ؟ البلد يكون شيوعياً عندما:

(١) يتحالف مع الشيوعية العالمية، ممثلة فى الكتلـــة الشرقيـــة

أيام الحرب الباردة .
(١) يخضع اقتصاده لبيروقراطية الدولة.
ألــم يحدث هذا في مصر ؟ وهل ينتفي لمجرد أن تشاوشيسكو مصــر كـــان يحبس الماركسيين ثم يعود فيطلق سراحهم ويخرج الواحــد مــنهم من الحبس ليجلس على رأس مؤسسة صحفية أو إعلامــية ؟ الســؤال هو : ماذا كان تأثير هذا التحول على موقف العــالم مــن قضية فلسطين ، العالم الغربى الذى لا ينام الليل من الرعب النووى ، ويجد أن مصر ، ومعها سوريا ، وهما الدولتان اللــتان تتصــديان لهذه القضية ، كلتاهما حليفة موسكو، ومعهما مــنظمة الــتحرير الفلســطينية ؟ هل تنتظر من دول مثل فرنسا وألمانــيا وإنجلترا ثم أمريكا أن تقول لنفسها: معلش ، برضه إحنا لازم نكــافح من أجل القضية ! الذى حدث هو أنها قالت لنفسها : مش بس متخلفين، ومش بس أعداءنا من أيام الحروب الصليبية ، ومــش بس حكامهم بينهبوا ثرواتهم ويضيعوها فى المغامرات، لأ وكمان متحالفين مع أعداءنا وعمالين يقولوا لنا اشربوا من البحــر الأبيض ومن البحر الأحمر.

يقال أن ليندون جونسون عندما سمع بقول عبد الناصر موجهاً حديثه إليه: اشربوا من البحر، قال لمساعديه: سأجعله يشرب من المجــارى. ولكــنه ــ فى واقع الأمر ــ لم يشرب من المجارى، شــربناها كلها نحن الشعب، بينما القائد الملهم يشرب الايفيان فى قصــره فــى منشــية البكرى والشماشرجى يقول فى مذكراته أنه اقــترح عليه أن "نأخذك إلى مكان آمن فى الصعيد !" الشعب كله فداءً لقائده المحبوب، المهم ألا يتعكر دمه، "والنبى ما تزعل أبداً " هذا يحدث وما يقرب من نصف مليون من أبناء البلد يهيمون فى الصحراء ويموتون من الظمأ والجرحى منهم ينزفون تحت الشمس الحارقــة، والطيور الجوارح تغرس مناقيرها فى لحومهم وهم ما يزالون أحياء، والإسرائيليون لا يعرفون ما يفعلونه بهذه الجحافل

ســـوى أن يبـيدوهم كأسراب الذباب .. وكفى ما هم فيه من جمع الغـنائم من العربات والجرارات والدبابات والمعدات الإلكترونية التى رهنت مصر قطنها وكل ما لديها عشرات السنين من أجلها! وبدلاً من أن ينزل الزعيم إلى الشارع ليعلن أنه على استعداد لأن يدفـع أى ثمـن يريده الإسرائيليون، معاهدة سلام، أى شيء، فى سبيل إعادة هؤلاء الجنود إلى بيوتهم، بسيارات الجيش المصرى، ووقـود مـن مسـتودعاته فى سيناء، على أن يعود الإسرائيليون بغـنائمهم، لن يعترضهم أحد، ثم وهو فى نفس الموقف، يعلن أنه يسلم نفسه للمحاكمة، بدلاً من هذا رأينا عضواً فى البرلمان يرقص طـرباً لأن الرئـيس عـدل عن قراره بالتنحى، وكيف لا ؟ وهو يتقاضى خمسة وسبعين جنيهاً لا تساويها بلده كلها عنده ؟ وجريدة الأهـرام تنشر صوراً للمظاهرات التى تطالبه بأداء دوره فى هذه المهزلة، وتحتها عنوان يقول..أتدرى ما تقول: "فرحة الشعب"..!

هـل تستطيع أن تتصور ما يراه فينا العالم ونحن هكذا ؟ البلد، شـعبها ، كرامـتها ، ثروتها ، كل هذا لا يساوى خمسة وسبعين جنيهاً يتقاضاها واحد ممن يسمون نوابها .

أعرفت الآن من أين جاءت نسبة الخمسين فى المائة ؟

أعـرف بالاسم رجل أعمال جلس فى ناديه وقال هذا الكلام . الـرجل مدفـوع طبعاً بالأسى على أحوال بلده . أتعرف ما الذى جرى له ؟ اختفى فجأة من على وجه الأرض ، وبعد يومين اتصل مـندوب من المخابرات بأسرته ليأتوا لاستلام جثته ، ولا تحاولوا أن تنشروا نعياً له ، الصحف سوف ترفض على أى حال ، وإياكم أن تقـيموا جنازة . ادفنوه "سُكيتى" ـــ فى هذا الصدد نشرت مجلة "أكـتوبر" تحقـيقاً صحفياً عن مبنى مجلس قيادة الثورة ، يتضمن صورة "قاعة المحكمة"، فى إحدى جلساتها يظهر فيها عبد الناصر ومحـيى الدين وغيرهما، ثم صورة للحجرة المجاورة لها، "غرفة الإعـدام"، حيـث يلقى حتفه كل من يجرؤ على أن يحتج على ما

جـــرى لـــبلده، أن يرفع صوته فوق صوت المعركة ! معركة لن تحدث أبداً، لكى لا ترتفع الأصوات على الأقل !

فى واحد من مؤتمراته الشعبية قال أمام الميكروفون : "إحنا ما عـــندناش اعتراض على الماركسية، بأى حال م الأحوال !" حسناً، ومع ذلك يريد أن يحقق وحدة الوطن العربى .

طيـــب، يعنى هل تريد من شعوب الجزيرة العربية أن تتوحد تحـــت لـــواء الماركسية ؟ أن ترفع النجمة الحمراء فوق الحرمين الشريفين ؟ يخيل إلى أن نجمة داوود معقولة أكثر ، فقد كان داوود نبـــياً، وهو مذكور فى القرآن، المأساة هى أن هذا الحاكم المطلق الســلطات، الذى يحيط نفسه بمعاونين هو ولى نعمتهم وبالتالى لا يجـــرؤ واحد منهم على أن يسمعه إلا التسبيح بحمده ، وتمثل هذا فى مؤتمر النكسة الشهير ، ضابط مدفعية على يمينه يعمل وزيراً للخارجية، فالبلد خلت تماماً من الدبلوماسيين ، وضابط آخر وزيراً للإعـــلام على شماله وهو يقول أنه "مش خرع زى مستر إيدن"، المأســـاة هى أن الذى يريد توحيد العالم العربى مع أنه ليس لديه اعـــتراض علـــى الماركسية ، تتمثل فى أنه لا يعرف شيئاً لا عن الإسلام ولا عن الماركسية .

وقد وجد من يفلسفون شيئاً اسمه "الماركسية الإسلامية" . فتأمل كان عبد الناصر يتخيل فعلاً أن فى إمكاننا أن نشترى السلاح من الاتحـــاد الســـوفيتى ونحـــط فـــى اليمن ، وننشىء قاعدة للزحف الاشـــتراكى ثـــم نستولى على منابع البترول ثم نذل العالم الغربى كله، وإذا قاومونا فإن الاتحاد السوفيتى سوف يتكفل بهم..

شـــخص بهذه العقلية كان فعلاً .. لا يحكم مصر فحسب ، بل يـــتخذ كل قرار بشأن حاضرنا ومستقبلنا ومستقبل أولادنا ، والذى يجـــرؤ على مجرد اللفظ بكلمة اعتراض ، هناك حمزة البسيونى وأحمد الأنور * وخبراء التعذيب المستوردين من الخـــارج علـــى

* هذا الكائن الذى كان مديرا لواحد من أبشع السجون فى تاريخ البشر، عينه عبد الناصر =

حساب نفس هؤلاء الذين سيتعذبون ، ومن أموالهم .

كل هذا كان بالطبع معروفاً جيداً للإسرائيليين ، أما الروس ، فماذا كانوا ؟

اليهود والاتحاد السوفيتى وبقية العالم :

لكى نناقش هذه النقطة يجب علينا أن نكون واعين للمشكلة التاريخية لليهود. أغلبنا يفتقر إلى الدراية بهذه النقطة وطبعاً سياستنا ـ كالمعتاد ـ هى: إياك أن تتحدث فى هذا الموضوع أو أن تحاول أن تعرف شيئاً عنه. وأيام أن كانت العبودية مازالت تمارس فى الولايات المتحدة ـ وبقية العالم هنا وهناك طبعاً ، فهم لم يخترعوها ـ ولغاية وقوع الحرب الأهلية كان محظوراً على العبيد أن يتعلموا القراءة والكتابة. وكان الذى يعلم واحداً منهم ـ وهذا سيكون أبيض طبعاً ـ يعتبر قد ارتكب مخالفة جسيمة، أما العبد نفسه فإن أصابعه تقطع بالساطور لكى لا يستخدمها فيما تعلمه . لست أدرى فارقاً كبيراً بين هذا الإجراء وما فعله اتحاد الكتاب المصريين بالكاتب المسرحى على سالم، فصلوه من عضوية الاتحاد (لا أظن أنه يحس بأنه خسر شيئاً، بينى وبينك)، وذلك بدعوى أنه "لقيامه بالتطبيع مع العدو الإسرائيلى"، وهى عبارة تتصف بقدر من الركاكة وانعدام التناسق بين اللفظ والمعنى، تكفى لأن تعرف ما أقصده بأنه لم يخسر شيئاً كثيراً. لابد أن نحارب ـ أو نتظاهر بأننا نحارب ـ هذا العدو دون أن نعرف عنه شيئاً لكى تكون الهزيمة كاملة وأيضاً لا نعرف أنها وقعت. كل ما جناه هذا الكاتب هو أنه التقى بهم وألف كتابا عنهم وعرف عنهم معلومات أراد أن ينقلها إلى الجميع . يلحق هذا طبعاً بسلوكنا المعروف والذى اعتدناه ، وهو سلوك النعامة ، إذا لم تكن ترى

\= سفيراً لمصر فى مدريد ، اقرأ وصف المؤرخ الدكتور حسين مؤنس الذى يصف فيه اعتداءه بالضرب على سكرتير السفارة إلى حد أنه "أسال دمه ومزق ملابسه وأمر بحبسه فى بدروم السفارة". أسلوب ثورى فى الدبلوماسية ؟ أليس كذلك ؟

المشـــكلة فهى إذن ليست موجودة . أنا لا أفكر إذن أنا ليست لدى مشاكل .

كـــم تظن عدد من يعرفون أنه كانت هناك مملكة قديمة اسمها إســـرائيل ، فـــيما هو الآن إسرائيل وفلسطين ؟ كم تظن عدد من يعـــرفون ــ فى كل أنحاء المنطقة ــ أن اليهود لقوا من ضنوف الإضطهاد والبهدلة ما لم يلقه شعب آخر ، وأنهم قد طردهم الأمير الـــروماني "طيطاس" ــ الذى أصبح إمبراطوراً بعد ذلك ، وخرب معـــبد ســـليمان ممـــا أدى بهم إلى الشتات فى كل أنحاء الشرق والغـــرب ، كان هذا سنة ٧٠ ميلادية ، يعنى بعد ميلاد المسيح . المســـيح علـــيه السلام ولد يهودياً وكذلك كل حوارييه وأنصاره ، وهو لم ينكر الناموس ــ كما أوضح ــ وذكر أنه جاء لكى يضيف إلى الديانة اليهودية لا لكى ينقضها. الأنبياء السابقون له والمذكور كثيرون منهم فى القرآن ، مثل إبراهيم ثم اسحق ثم يعقوب ولوط ويوســـف وموســـى وأيوب ، كل هؤلاء عبرانيون . وبالتالى فإن الكـــتاب المقـــدس عـــند المسيحيين وعند اليهود هو ذات النص ، الفـــارق الوحـــيد هـــو أن اليهود لم يصدقوا المسيح وبالتالى فإن الإنجيل ــ وهو ليس إلا سيرة المسيح وأقواله ــ هو الجزء الوحيد الذى يختلف عليه الفريقان .

ليس هذا ذنب أحد ، هذه هى الرسالات السماوية . الحقيقة إذن هـــى أن الـــتراث "الـــيهو ــ مســـيحى" هو الذى يسود كل أوربا والأمريكتيـــن (وهاتان طبعاً تمتلآن بالمهاجرين من أوربا) أوربا، طـــبعاً ، يعـــنى روســـيا أيضـــاً . جميع الأنبياء الذين يؤمن بهم المســـيحيون ، كلهم يهود ، طبعاً جاء بعد ذلك قديسون من أجناس متعددة، ونحن طبعاً ــ المسلمون ــ نؤمن برسالات الأنبياء الذين ذكرناهم فيما سبق .

وفـــى عصر الرئيس الأمريكى كارتر ــ وكان رجلاً متديناً ــ كان عندما يجتمع مع مناحم بيجن يظل الاثنان يتمثلان بآيات مـــن

كتب التوراة والأسفار الملحقة بها.

هـناك إذن روابـط عقائدية وروحانية وتراثية وثقافية عميقة ووثـيقة بين هاتين الطائفتين . لا ينفى هذا حقيقة أن يهود الشتات تعرضـوا للكثير من أحداث الاضطهاد ، وإلى مذابح حصلت فى أوربـا وأمـريكا تسـتهدف اليهود ، كمذبحة يورك الشهيرة فى إنجلـترا، واسـتمر هذا إلى أن وصل إلى قمته فى عصر ألمانيا الـنازية والذى يرجع إلى أن فلسفة هؤلاء كانت تقوم على النقاء العـرقى ، واليهود ساميون ، أو مفروض أنهم من نسل سام ابن نـوح، وليسـوا آريين كالألمان الأنقياء ، ومما يذكر أن الغجر تعرضـوا لحملات الإبادة فى نفس الحقبة على أيدى الألمان ، فهم أيضـاً ــ فيما يرون ــ جنس واطئ . كان هتلر وأذنابه يعتبرون اليهود حيوانات ، بما فى ذلك كائنات مثل سيجموند فرويد ، الذى هـو أبـو التحليل النفسى ، وألبرت أينشتاين ، وهو أبو الفيزياء الحديـثة ، وهنرى بيرجسون ، فيلسوف الزمن والتطور الخلاق ، وإن كان النازيون قد تعمدوا ألا يؤذوا من وجدوه منهم فى البلدان التى فتحوها ، فرويد فى النمسا وبرجسون فى فرنسا.

فـترة الصراع هذه ــ الحرب العالمية الثانية ــ أيضاً ليست ، فى ظنى المتواضع ، مفهومة جيداً على مستوى العموم . وقد رأينا بعـض الشـباب أيـام حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ، يتظاهرون مناديـن : "تقدم ياروميل !"، تعبيراً عن غضبهم لما فعله الإنجليز عـندما فرضوا حكومة الأغلبية على الملك ، كما لو كان الألمان سيكونون أفضل من الإنجليز البطالين . إذا كانت هذه نظرة النازى لليهود لكونهم ساميين ، فلك أن تتأمل كيف تكون نظرتهم لنا ونحن ــ منذ قرون ــ لم نقدم للعالم علماء وفلاسفة مثل هؤلاء .

قـبل أن أمضى فى حديثى ، أريد أن أتوسل للقارئ ألا يترك مشـاعره القومـية تطغى على قدرته على التحليل الموضوعى . على مدى القرون الستة الأولى من الألفية الثانية ، كان كتاب العالم

الكبـير ابــن سينا فى الطب ، المسمى "القانون" ، هو كل ما لدى أوربــا فـــى هـــذا الموضوع . وكذلك فإن العرب ــ أو الناطقين بالضـــاد ، كائــنة ما كانت سلالاتهم العرقية ــ قد أعطوا البشرية أصــول الجـبر والكيمــياء والفــيزياء ، علــى أيدى نوابغ مثل الخوارزمـــى ، (الـــذى يســتخدم اسمه كمصطلح فى علم بحوث العملــيات الحديث "آلجورذم" كما هو شائع ومعروف) وجابر بن حــيان والحســن بــن الهيــثم . وقــبل ذلك بآلاف السنين ، كان المصـــريون القدماء يبنون الأهرامات والمعابد بينما شعوب أوربا تســكن الكهوف وتفترس ما تصطاده من الحيوانات كالحيوانات ، وكـــان لـــدى المصـــريين مـــدارس ومستشـــفيات ونظام للإدارة ومشروعات للرى وكان يجرون جراحات فى المخ ، إلا أن تاريخ الحضارة يتحرك كما يتحرك كل شىء فى هذا الكون .

يؤرخـــون لعصر النهضة فى أوربا من منتصف القرن الرابع عشر إلى نهاية القرن السادس عشر ، كانت هذه صحوة هائلة فى أوربـــا بعد السبات العميق الذى تلا عظماء المفكرين من الإغريق فى القرون السابقة لمولد المسيح عليه السلام .

فـــى أواخـــر تلك الحقبة ظهر المفكرون من طبقـــة جوردانو برونو، ونيقولا كوبيرنيكاس وجاليليو جاليل، وقالوا لنا أشياء جديدة عن حركة الأجرام فى السماء تغير المفاهيم التى كانت سائدة منذ عصر بطليموس الفلكى، الذى هو يونانى الأصل ولكنه اسكندرانى وبلدياتـــنا مائة فى المائة. وهذا ليس عيباً فيه ، كان ما قال به فى زمانـــه يعـــد معجزة فكرية، ولكن اكتشاف الإنسان لحقائق الكون والحياة يظل يمضى شئنا أم لم نشأ. تلا تلك المرحلة أربعة قرون مـــن الســـابع عشـــر إلى العشرين كانت حافلة بالكشوف العلمية والاختراعات التى جعلت حياة الإنسان على هذا الكوكب تصبح ما هى عليه الآن ، كل هذا حدث فى أوربا وأمريكا الشمالية التى هى ــ من وجهة النظر هذه ــ تعتبر ضاحية من ضواحى أوربا.

ألتقط أنفاسى وأتوقف لكى أحلف بالله العظيم أننى لا أهدف إلا إلـــى اســـتعراض الحقـــائق من أجل التوصل إلى فكر يقوم على العقلانية وليس على الانفعال العاطفى، وأتمنى ألا أكف عن تذكير أبـــناء بلـــدى أنه فى سبيل التوصل إلى السلطة فإن الكثيرين من المضـــللين لا يـــتورعون عـــن خداع الناس بشعارات الاشتراكية والأصولية وهم آخر من يؤمنون، لا بهذا ولا بذاك ولا بهذا وذاك معاً! وأكرر أن أوربا كانت فى حضيض التخلف قبل نهضتها هذه، وكـــان أطباؤها يعالجون المرضى بأن يجعلوهم يبتلعون العناكب وهى حية . ولكن الحقيقة تبقى وهى أن لوى باستير كان أول من اكتشـــف وجود الجراثيم فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مما أدى إلى بداية عالم جديد فى الطب، لا ينتقص هذا من قدر ابن ســـينا، فالمعـــرفة تمضـــى فى طريقها مستقلة عن كل شىء آخر وتطبيقاتها تأتى كل يوم بوسيلة جديدة فى حياة البشر، هذه الوسائل لهـــا دائماً تأثيرات جانبية ضارة، لأن هذه طبيعة الحياة من جهة، ونظرتـــنا نحن إلى ما هو خير وما هو شر من جهة أخرى. إبادة الجراثـــيم الـــتى تصيبنا باستخدام المضادات الحيوية يعد خيراً لنا نحـــن البشر، ولكن الجراثيم ستخالفنا فى ذلك بطبيعة الحال، وأنا شخصـــياً أشرفت على الهلاك مرتين، لا بسبب المرض، فقد كان تافهـــاً فـــى الحالتين، بل بسبب الإسراف فى تعاطى الدواء، ولعل القارئ قد جرب شيئاً من هذا . نحن هنا بسبيل استعراض حقائق التاريخ التى تهمنا فيما نحن بسبيله ولسنا ــ على وجه الإطلاق ــ نـــتحدث عـــن الخير أو الشر أو أن الخواجات "ناس كويسين" أو "وحشين"، هذا ليس موضوعنا إطلاقاً .

مـــن نيوتن وفارادى فى إنجلترا إلى ماركونى فى إيطاليا، من جورج أوم فى ألمانيا إلى أندريه أمبير فى فرنسا وإلى جراهام بل وتومـــاس أديسون وهنرى فورد فى أمريكا ، من مندليف الروسى الـــيهودى إلـــى نـــيلز بور الدانماركى ــ عالم جديد من الكشوف

والاختراعات أدى إلى حضارة جديدة نعيشها جميعاً ولكننا نتعمد مهاجمتها وإنكارها، الأصوليون يدعون إلى نبذ كل شيء فيها، ماعدا المدافع الرشاشة والموتوسيكلات والتليفون المحمول والأدوية طبعاً . كفانا نفاقاً . ونحن عندما ننافق لا نخدع إلا أنفسنا، فالعالم كله يعرف الحقيقة . من نحن ؟ العالم الثالث ، الذى نحن الآن فى دركه الأسفل . سنأتى لهذا فقط كجملة اعتراضية صغيرة، التخلف فى حد ذاته ليس عيباً ، معظم العالم متخلفون وفى جميع العصور، العيب هو أن نستكين لهذه الحقيقة بل أن نتفاخر بها مظهرين ما لديهم من "مادية" و "فساد" ـــ بل وندعو إلى مزيد من التخلف ، الذى يعنينا من هذا هو موقع يهود "الاشكنازى" من هذا كله .

يهود الشتات وجدوا أنفسهم أقلية فى أوربا وأمريكا طبعاً ، ويهمنا هنا أن ندرك مغزى أن يكون الفرد يهودياً، أنها ليست مجرد ديانة كالإسلام أو المسيحية أو البوذية ، يمكنك أن تعتنق أياً من هذه ، وبالطبع فإن ملايين لا تحصى من البشر دخلت فى هذه الديانات، ولكنك لا تستطيع أن تصبح يهودياً (هناك خلافات بهذا الخصوص بين حاخامات اليهود والسلطات الإسرائيلية) ـــ لابد أن يولد اليهودى من أم يهودية يمتد نسبها لغاية يعقوب عليه السلام ، ابن اسحق ابن سيدنا إبراهيم ، أبى الأنبياء .

تختلف الأقليات فى سلوكها ، ولكن العجيب فى أمر اليهود هو أنهم أقلية من نوع لا مثيل له ، فهم يعتقدون أنهم جميعاً من نسل يعقوب ، ونظن أنهم لو مضوا يتناسلون فى دائرتهم المغلقة لكانوا قد هلكوا من العيوب الوراثية ، وواضح أن اليهودى الألمانى يبدو ألمانياً واليهودى اليمنى يبدو يمنياً والحبشى أيضاً حبشياً . ما علينا، يمكنهم أن يزعموا أن هذا أتى من التزاوج مع الأجناس الأخرى، لو أن إمرأة يهودية تزوجت رجلاً اسكتدنافيا مثلاً فسيأتى نسلها نصفهم من العنصر السامى والنصف الآخر من الآرى ،

وهكـذا ، ولكنهم يظلون يهوداً ولهم الحق فى جنسية إسرائيل فى مواجهة الاضطهاد المستمر ، والذى من أمثلته محاكم التفتيش مثلاً التى شنت فى أواخر القرن الخامس عشر حملة إبادة ضد المسلمين والـيهود فـى إسبانيا ، والتى تمثل واحدة من أبشع البشاعات فى تاريخ البشرية والتى تدل على أن فظائع اليهود كما هى واردة فى الـتوراة ليست اختراعاً يهودياً يقتصر عليهم ، تاريخ البشرية كله ــ للأسف ــ فظاعات وإن كانت البشرية قد تقدمت خطوات هائلة وعظـيمة فى القرن العشرين ، وإن كره المؤمنون! وسوف نأتى لذلـك فى سعينا نحو إقرار الحقائق . والمفارقة التى لا مثيل لها هو أن اليهود المضطهدين فى إسبانيا وجدوا ملاذاً فى ظل الخلافة الإسلامية فى تركيا ، مما أدى إلى ظهور طائفة "الدونما" المعروفة فى تاريخها ؟

الذى يهمنا من كل هذا هو :

(١) موقـف روسيا والشعب الروسى من اليهود لا يختلف فى شـىء عـن بقية شعوب أوربا ، حوادث القمع على مدى القرون تواجـه من جانب اليهود بالامتياز فى المعرفة والعلوم والفنون ، خصوصـاً فى القرن العشرين ، وأيضاً بالسعى إلى السيطرة عن طـريق المال كسلاح أمضى من كل أبيض هندى ، وتاريخ أسرة روتشيلد معروف جيداً .

(٢) عندما قامت الثورة البلشفية شارك فيها يهود روسيا بأوفى نصـيب، بـل كـان مـنهم زعماء و "أنبياء"، على رأسهم ليف دافيدوفتش برونشتاين ، الذى كان اسمه الحركى ليون تروتسكى. وظل اليهود على قمة الحزب الشيوعى لهذه اللحظة. وعندما قامت حركة الانشقاق التى أدت ــ مع عوامل أخرى طبعاً ــ إلى سقوط الاتحاد السوفيتى والشيوعية كلها، كان قادتها كلهم من اليهود، على رأسهم عالم الفيزياء وأبو القنبلة الهيدروجينية أندريه ساخـاروف

(ساخاروف يعنى زكريا بصيغة الجمع).

(٣) صحيح أن اليهود كانوا طيلة الوقت مكروهين فى كل أنحاء أوربا والعالم المسيحى ، وصحيح أن الطائفة الكاثوليكية بصفة خاصة تصب نقمتها عليهم والكثيرون من المنتمين للمسيحية ـ التى هى الديانة التى تسود الجزء المتقدم والقوى من العالم ـ يحملونهم مسؤولية الوشاية بالمسيح وبالتالى إعدامه على الصليب، إلا أن هذه الكراهية لا تأتى من عشق المسلمين. إذا دخل هؤلاء فى الحلبة فأنا وابن عمى على الغريب . ومرة أخرى ، الجهل بحقائق التاريخ ـ وعلى رأسه ثلاثة قرون طويلة من الحروب الصليبية التى كانت تستهدف تحرير القدس واستخلاصها من قبضة المسلمين ـ الجهل بهذا التاريخ يمكن أن يعجز الإنسان عن التفكير الصائب فى هذا الموضوع .

(٤) الحرب العالمية الثانية كانت صراعاً بين أيديولوجيات الفاشية والماركسية والديموقراطية. هذا واضح. إلا أن هذه الأيديولوجيات كلها وليدة الفكر الأوربى، وبذلك فإن تلك الحرب تختلف كثيراً عن الحروب بين المسلمين والروم مثلاً والتى لك أن تعدها حسمت بسقوط الخلافة بعد الحرب العالمية الأولى، ولك أن تعدها مستمرة للآن .الحرب العالمية الثانية إذن برغم ضراوتها وفظاعتها التى تأتى من أنها كانت صراع الجبابرة ـ وبرغم ما هو منسوب للألمان فى حق يهود أوربا ـ لم تكن عداوة مريرة بين شعوب القارة، بل مجرد صراع بين أنظمة الحكم، وما عليك إلا أن تتأمل الخريطة الإجتماعية والسياسية لأوربا الآن، ستجد ألمانيا وفرنسا فى حالة سمن على عسل، روسيا بعد انتهاء أغبى نظام للحكم والإدارة وأكثر النظريات السياسية فساداً وبهيمية، تتمنى أن تلحق بهذا الركب طبعاً وتدخل الاتحاد الأوربى، فهم شعب أوربى وأيضاً يهو ـ مسيحى، وسبعون سنة من تجربة مقيته لم تغير فيهم قيد أنملة، والذى يظن أن الاتحاد السوفيتى كان

قادتـــه يتمــنون أن تنتصر مصر أو العرب (إذا كان هناك كيان سياسى اسمه العرب) على إسرائيل ، يكون واهماً .

(٥) مجـــئ الــيهودِ إلى فلسطين إلى جانب كونه نتيجة للفجوة الحضـــارية، فهو أيضاً فى جانب منه استمرار للحروب الصليبية التى امتدت من مطلع الألفيةِ الثانية لغايةِ اللنبى ثم إلى الآن*.

لم يكن حاكم مصر واهماً فقط ، كان أسوأ من هذا بكثير . لقد جاء السوفيت إلى مصر ليبيعوا الترام، وهو ترام صدئ وخربان و "منـــيل علـــى عينه"، آسف لأنى لا أجد فى الفصحى تعبيراً أكثر صدقاً من هذا .

---

* هذا مع إحترامنا وتقديرنا لرأى البابا شنودة فى ان كلمة الصليبيين تسميه خاطئة ، وهو يـــرى أنهـــم يسمون "الفرنجة" إلا أن الكثير من التعبيرات يدخل التاريخ ويصبح نمطياً بتأثير الزمن . "الفرنجة" أيضا فيهم من لا علاقة لهم بالحروب الصليبية .

شراء الترام

الحكـــام ينخدعون ومصائر الشعوب هى الثمن ... صدق أبو العلاء المعرى :

يسوسون الأمور بغير عقل .·. وينفذ أمرهم فيقال ساسة

الحكـــم والأمـــثال والتعبيرات الشائعة ، كثيراً ما تكون تعبيراً رائعـــاً عن الفكر الإنسانى وعن مقدرة البشر على التفنن والإبداع وإعمال المنطق.

ويبدو أن لدى المصريين قدرة تفوق المتوسط فى هذا المجال، واذكـــر أنـــه فـــى أعقاب يونية ١٩٦٧ ألقى الرئيس الراحل عبد الناصر أول خطاب طويل على الشعب ، ذكر فيه أنه يتفهم النكت التى شاعت بين الناس ، "لأنى منهم" ، هكذا قال .

أنا أيضاً منهم ، وكذلك أنت ...

بعض الحكم يبدو غير دقيق تماماً ، فهناك مثلاً : "عدو عاقل، خـــير من صديق جاهل" ، وأنا كنت طفلاً عندما سمعت هذا لأول مـــرة ، كـــان عنوان قصة قرأناها ، عن الدبة التى قتلت صاحبها وهـــى تحاول إبعاد ذبابة حطت عليه وهو نائم . وأذكر جيداً أننى ســـألت نفســـى بسذاجة الطفل : "كيف هذا ؟ إن أسوأ ما يمكن أن يبـــتلى بـــه الإنسان هو العدو العاقل ؟ " فقط عرفت بعد ذلك أن المـــرء قـــد يستخدم عقله هو أيضاً ليواجه عدوه ، وقد ينجو من شره، أما الصديق – جاهلاً كان أم عاقلاً ، فمن الطبيعى أن تهمل أن تحتاط من غدره أو غبائه. ومن هنا جاءت مقولة : اللهم احمنى من أصدقائى ، أما أعدائى فأنا كفيل بهم.

ويولع المصريون أيضاً بهذا التعبير : "إحنا أولاد النهاردة" .

وهم يستخدمونه بقصد حل الخلافات الأسرية والشخصية وإزالة آثارها من النفوس على أساس أن ما فات قد مات ، قد يصلح هذا الأسلوب في مثل هذه المواقف، فقط عندما نأتى لإزالة آثار العدوان، بجميع أنواعها وبلاويها، فإن تجاهل الماضى لن ينفع فى شيء ، الواقع أن الماضى ، بل والبعيد منه ـ يتمثل أمام عيوننا ويعتمل فى نفوسنا ويحدد معالم حاضرنا ومستقبلنا معاً، ومن العبث ــ بل من السفه ــ أن نحاول أن ننساه أو حتى نصفح عنه، وإلا لما كان لكم فى القصاص حياة، يا أولى الألباب.

إن اللحظة التى نعيشها الآن ليست سوى الرقم التالى للرقم الذى كان منذ لحظة مضت، فى سلسلة طويلة من الأحداث الرقمية، ولو أن حدثاً واحداً وقع، وحاولنا أن نتصور أنه لم يقع، لتغير كل شيء فى هذه الحياة بالتأثيرات المطردة المتسعة النطاق.لا احنا مش ولاد النهاردة! إحنا بالتأكيد ولاد أول إمبارح .

فى تاريخ مصر ، كما فى تاريخ كل أمة قديمة ، كوارث رهيبة. قمبيز مثلاً ، قد يكون أول حادث غير وجه مصر بأن دمر روحها القديمة وأذل أهلها وأذاقها الهوان ، مما جعل شاعرها شوقى يكتب مسرحية بهذا العنوان، ثم الرومان ، وهم لا يقلون بهيمية وبربرية عن الفرس ، هؤلاء دمروا الأمة ووضعوا نهاية لها كدولة مستقلة ، منذ أنطونيوس وبعده أوكتافيوس ، أما الحركة غير المباركة ، التى حدثت بعد ذلك بألفى سنة ، وبرغم المماليك والعثمانيين ، فقد كانت هى التى دمرت الشعب هذه المرة ، بأن حطمت ما لديه من قيم وضيعت ما لديه من مال وغمرته فى التعاسة والهموم ، وعلمته أن الجهل أنفع من العلم ، والظلم أعظم من العدل ، والفتونة أرقى من الذكاء ، وأنه إذا كانت القيادة تتكون من البلطجية واللصوص والحشاشين والأفاقين ، فلا شك ستفضل من تطمئن إلى كتمانهم لأسرارها ، وهم أهل الثقة ، وليس إلى من يحترمون أنفسهم ويحسون أنهم ليسوا فى حاجة إلى اختطاف ما

لدى الآخرين ، لأنهم يستطيعون أن يكونوا مثلهم أو أفضل منهم، وهـؤلاء هم المنبوذون من أهل الكفاءة . وعندما نقول اللصوص والحشاشـين ، نحن لا نشتم أحداً ، فهذه الممارسات تحدثت عنها الصـحافة المملوكـة للدولـة ، لا صحافة العالم فحسب، تحدثت الصـحف عـن "قطعـة الأفيون التى كان المشير يلوكها" ـ يوم "انـتحاره" ، وكيف أن رئيس الأركان حاول أن يستلها من فمه ، وتحدثـت عـن شـخص كان رئيساً للوزارة ثم أصبح أميناً عاماً للتنظـيم السياسى ثم نائباً لرئيس الجمهورية بعد ذلك ، نسبت إليه الصـحف فيما يشبه البيان الرسمى ، إساءة استخدام المال العام ، والتهريب الجمركى ، وهى أمور كانت شائعة ومعروفة . ثم ماذا؟ لا شـىء ؟ ! لم يحدث تكذيب ولم يحدث أيضاً تحقيق ؟؟ إن كان هذا لا يعنى أن كبار المسؤولين وزعماء الثورة يحق لهم ممارسة النهب فما الذى يعنيه ؟ أفهم أن القتل والتعذيب كان لحماية الثورة ـ علـى طريقة روبسبيير وأمثاله ، وإن كانت الثورة ليست على الإطـلاق ثـورة كمـا قلـنا ، فالثورة تكون ضد السلطة وليس بواسـطتها ولا يتزعمها من فى يدهم كل السلطة . من ثائر على من ؟ إن كان هذا لا يعنى ذاك، فما الذى يعنيه ؟ ترى ما أثر هذا على الصراع العربى الإسرائيلى ؟ وعلى نظرة العالم إليه ؟

الماضى فى حياتنا :

الحياة ، سلسلة متصلة مستمرة من الأحداث، وكل حدث يقع فى موضـع مـن الزمـن والمكان ، ويكون تأثيره المباشر على من يوجـدون فـى هـذا الموضع ، ولكنهم عندما يتأثرون ، فإنهم ـ بدورهـم ـ يؤثرون على غيرهم من الناس والأشياء ، ويمتد هذا الأثـر كأنـه "لجة الماء يلقى فيه بالحجر" كما قال ابن الرومى ، وإلى جانب الانتشار فى المكان ، فإن الأثر يبقى على مدى الزمن،

تماماً كما يرسب هذا الحجر فى قاع البركة وتمضى القرون وهو ما يزال فى موقعه من هذا القاع .

تاريخ كل أمة سلسلة من هذه الأحداث ، تترك علاماتها فى كل موضع، وأحجارها فى أعماق كل نفس. إن الذى يراه العالم على سطح مصر هو الأهرام وتل العمارنة وأبو سنبل والكرنك ومكتبة الإسـكندرية وآثارها الغارقة ، ثم مدينة الفسطاط و جامع عمرو، وآثار أحمد بن طولون وقلعة صلاح الدين وجامع محمد على ودار الأوبـرا المحترقة ... والسد العالى ودار الأوبرا الجديدة ... هذه علامـات تـاريخ مصر التى كتب بها كما لم يكتب تاريخ أية أمة علـى وجـه الأرض ، ولا عجب ، فمصر تجمع إلى "أمصار" ، وهـى أول مصـر فى تاريخ البشرية ، وأول دولة وأول حكومة وأول حضارة عظيمة فى حياة الإنسان ، ونصفها الجنوبى ، وهو مصـر العليا ، اسمه "الصعيد" ، و هو مشتق من "ص ع د" ويرد فـى الكتاب الكريم أيضاً بمعنى آخر هو التراب النقى، وذلك فى الآية : "فتيمموا صعيداً طيباً".

كـل هـذه الآثار والعلامات راسبة فى أعماق كل واحد فينا ، كالحجـر الذى سقط فى اللجة ، سواء بوعى منا أو بدون وعى . كـل واحـد منا نتاج كل هذه الأحداث والآثار والحكام والمذاهب والعلوم والفلسفات ، ومن الأهمية القصوى أن نكون عالمين بهذه السلسلة من الأحداث ، خاصة ما هو قريب منها .

إن مشكلات حياتنا اليومية، ومستقبلنا كما سيأتى، تمتد جذورها فـى تاريخـنا القريب والبعيد، وإذا لم نعرف هذا التاريخ، فسوف نجهل هذه الجذور وسوف تستعصى علينا معالجة مشكلاتنا لأننا لا نعرف أسبابها، والمرض لا يتلاشى بإخفاء أعراضه، بل باكتشاف الجرثومة التى تحدثه ثم مهاجمتها بالعقار الذى يقضى عليها.

هذا هو موضوعنا . ما هى جذور مشكلاتنا الجارية وما الذى ومـن الذى أنبت هذه الجذور ، وإلى أى حد يمكننا التوصل إليها

وما قدر ما يمكن اقتلاعه منها . والسياسى ورجل الدولة وأعضاء أجهـزتها ، إذا أرادوا أن يكونوا مخلصين لبلادهم فإن عليهم أن يقرؤوا تاريخها ويعوه جيداً لكى تكون معالجتهم لمشكلاتها مجدية ونافعة، وأساتذة التاريخ فى العالم المتقدم يلعبون دوراً أساسياً فيما يـتخذ من قرارات. وكان الرئيس الأمريكى الراحل جون كنيدى مولعـاً بقـراءة التاريخ وكان يحيط نفسه بحاشية من المؤرخين ، وعندما أقدم الرئيس السابق جورج بوش على عقد مؤتمر مدريد ، وهو ــ فى رأيى المتواضع ــ جهد كبير ورائع فى سبيل معالجة مشكلة الشرق الأوسط ضيعوه طبعاً ، تردد وزير خارجيته جيمس بيكر على المنطقة عدة مرات ، وذات مرة زار عمان ثم انتقل إلى القدس، وحرص على أن يقطع هذه الرحلة بالبر عن طريق جسر اللنـبى، قـائلاً إن هـذا سيمكنه من الحس بالمنطقة والعيش فى تاريخها، وقد كانت صيحة اللنبى: "لقد عدنا يا صلاح الدين" إيذاناً بحلقة جديدة فى مسلسل الحروب الصليبية ، ولا شك أن الأوربيين علـى جانـبى الحرب العظمى كانوا سعداءً جداً بهذا، الحلفاء من جهـة والقـوى المركزية التى كانت تحاربهم من جهة أخرى. بل أظن أن الجنرال الألمانى "فون كرسنشتاين" الذى كان يقود الجيش العثمانى فى فلسطين ، كان سعيداً بهزيمته . ولا شك أن الإنجليز أصحاب وعد بلفور وأصحاب الانتداب على فلسطين ، قرروا منذ تلـك اللحظـة ألا يـتركوا الأراضـى المقدسة تعود إلى سيطرة المسلمين بعد ذلك . وكذلك فإن فرنسا اقتطعت لبنان لتكون مأوى للطوائف المسيحية . ومعروف جيداً أن العثمانيين لم يكونوا قدوة للعالم فى معاملتهم لتلك الطوائف.

ولـو أن حكـام الـدول العربية فى النصف الثانى من القرن العشرين، ورجال الدول فيها، كان يعرفون قدراً كافياً من التاريخ ، منذ فتح بيت المقدس على يدى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، إلى قرون الحروب الصليبية، إلى سقوط مملكة أورشليم فى

عصـــر الظاهر بيبرس، إلى خضوع المنطقة كلها للعثمانيين، ثم حملة اللنبى، ثم إنشاء دولة إسرائيل الحديثة، لو أنهم كانوا يعرفون هــذا جــيداً لكانت نظرتهم إلى المشكلة قد اختلفت كثيراً ولكانوا أدركوا من بالضبط يحاربون عندما يحاربون إسرائيل وما جدوى مــثل هذه الحرب ولعرفوا لماذا حدث بعد انتهاء الحرب العالمية الثانــية، لماذا حدث أن كان تقسيم فلسطين وإنشاء الدولة اليهودية هــو الشـــىء الوحيد الذى اتفقت عليه القوتان العظميان برغم ما بيـــنهما من عداوة مريرة ورعب قاتل متبادل، وظلتا تتفقان عليه إلـــى يومـــنا هذا حتى بعد أن تحول الاتحاد السوفيتى إلى روسيا الاتحادية بكل ما لديها من مشكلات ومتاعب.

إن أى بلد فى الدنيا، هو ملك لشبابه لا لشيوخه، فنحن راحلون، نحــن الشـــيوخ، وعلينا أن نترك لشبابنا بيئة تصلح للحياة. كل ما يعانـــيه شبابنا اليوم من ضنك ويأس وما يرزحون تحته من أثقال الحياة، كل هذا ليس وليد السنة الماضية ولا التى قبلها، أنه يرجع إلـــى عشـــرات كثيرة مضت من السنين. وهذه هى أهمية النظرة التاريخـــية، أن نعـــرف من أين جاء هذا. إن فى هذا العالم أماكن تعانى من آثار حروب دارت فيها منذ مئات من السنين ، محاولة تحســين الأحوال تبدأ بدراسة تاريخها وجذور المشكلات المتمثلة فـــيها، لأنـــه علـــى مستوى الـــ "ماكرو"، أى المستوى العمومى، الواسع النطاق، يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ومن هنا فلا غنى عن النظرة التاريخية .

أمس واليوم :

شـــبابنا يـــرون فى مصر الآن دولة ومجتمعاً يختلفان إلى حد هائل عما كانا عليه عندما كنا ــ نحن العجائز ــ ما نزال شباباً.

تتصف مصر الآن بهذه العلامات :

ـ على الصعيد السياسى العالمى والدبلوماسى، هى دولة داعية إلى السلام وراعية له، علاقاتها الدولية طبيعية وطيبة مع كل دول العالم تقريباً، قد تكون إيران ـ لشذوذها ـ هى الاستثناء الوحيد، وحتى هنا ، تحاول مصر أن تصلح من هذا الوضع . علاقاتها طيبة حتى مع الأضداد ، مثل تركيا واليونان، أو الهند والباكستان. حلت مشكلة طابا بالدبلوماسية وتوسطت بين تركيا وسوريا مما أدى إلى إنهاء وضع خطير بينهما . تساعد الفلسطينيين على التوصل إلى حل لمشكلتهم عن طريق السلام والتفاوض مع أن موقف القيادة الفلسطينية من مصر أيام كامب ديفيد ـ التى كانت بداية طريق السلام والتوصل ولو إلى شىء مع دولة كانت رئيستها جولدا مائير تقول أنه لا يوجد شىء اسمه الشعب الفلسطينى ـ موقف هذه القيادة من مصر ـ وموقفها أيضاً من الكويت التى فتحت أبوابها وخزائنها لشعب فلسطين بشكل لا مثيل له، كان يصلح تبريراً لأى موقف سلبى تأخذه مصر من تلك القيادة .

ـ على الصعيد الاقتصادي، مصر قد اتخذت موقعها فى العالم كعضو فى سوقه الكبيرة ، آليات السوق بدأت تعمل ، المشروعات والبنية التحتية تطورت بمعدل قد لا يكون له مثيل فى الدنيا، وحكومتها تشجع الاستثمار وجلب الأموال من الخارج، للمواطن المصرى ورجل الأعمال الوطنى أن يجلب ما يشاء وأن يحول ما يشاء لصالح الاقتصاد ولخلق فرص الأعمال. مصر عضو فى منظمة التجارة العالمية وموقعة على اتفاقية الجات .

ـ على صعيد السياسة المحلية، مصر لديها أحزاب معارضة وصحافة معارضة، صحيح أن الديموقراطية الكاملة لم تتخذ شكلها النهائى بعد، فقط ـ كما ذكرنا ـ نحن هنا فى مستوى الماكرو والقفز ليس هو الطريق إلى الانتقال الطبيعى .

ـ أقامت الحكومة على أنقاض البلد بنية تحتية كاملة من وسائل النقل والمواصلات لن ندخل فى تفاصيلها وسنكتفى بالقول

بأنها تشبه معجزة إعادة بناء ألمانيا على مستوانا .

نحن لسنا الآن بسبيل تقييم أى وضع أو إصدار الأحكام بأن هذا خير وهذا شر أو أن هذا أفضل وذاك أسوأ، إننا فقط نريد أن نتساءل :

ـ إذا كان من الحكمة أن تبنى الدولة منظومتها الاقتصادية على آليات السوق وتترك قوانين العرض والطلب تعمل على مستواها وعلى النطاق العالمى، وأن تكون هى واحدة من مكونات السوق العالمية فى زمن العولمة، إذا كان هذا من الحكمة، فكيف يكون استيلاؤها وسيطرتها علي وسائل الإنتاج والتوزيع والخدمات، كيف يكون هذا أيضاً عملاً حكيماً ومفيداً ومثمراً، علماً بأن الفارق الزمنى بين التحول من الخصوصية إلى العمومية، ثم من هذه إلى تلك، ليس إلا الستينيات ونصف السبعينيات ؟ خمس عشرة سنة !!

ـ إذا كان وجود المعارضة السياسية أمراً لابد منه لترشيد آلية الحكم وضمان الحد من الانحراف وإيجاد وسيلة إلى "الإدارة التشاركية" وإلى شحذ الأفكار بالفكر المعارض ، إذا كان الأمر كذلك ، وإذا كان يتطلب درجة أو أخرى من الحرية فى تكوين الأحزاب والفرق السياسية وفى إصدار الصحف التى لا تخضع لرقابة الدولة إلا من حيث حماية قيم المجتمع ، إذا كان الأمر كذلك، فكيف نفسر تمجيد الحقبة التى جرى فيها إلغاء الأحزاب ومصادرة أموالها وممتلكاتها وتحويل الصحف إلى نشرات حكومية؟ كيف يكون الشيء وضده كلاهما حصافة صباح اليوم وحكمة فى مسائه؟ علماً بأن الدنيا مليئة بالتجارب فى هذا وذاك ولا داعى لأن نتحول إلى معمل لإجراء الاختبارات فى أمور وضحت عواقبها وتخلى دعاتها عنها بشكل كان واضحاً تماماً حتى من قبل أن نشرع نحن فى ذلك ؟

ـ إذا كان التعايش مع دول العالم كله، والعالم العربى، سياسة

حكـيمة، مـع التناقض الفظيع فى الأنظمة على هذين المستويين، وإذا كان إقرار السلام مع إسرائيل هو السبيل الوحيد لاسترداد قدر ولـو ضـئيل من الحرية والكرامة لشعب فلسطين، كما هو الآن واضح تماماً من الموقف الأمريكى والأوربى، الذى أوقف الحديث عـن الوطن البديل، والذى جعل اسحق رابين وهو رئيس لوزراء إسـرائيل، يعلـن أنـه خجلان من حادث إطلاق الرصاص على المصـلين فـى الحرم الإبراهيمى، إذا كان هذا كله موقفاً حكيماً ومـثمراً، فكيف يكون كذلك، وأيضاً يكون خوض حرب كحرب ١٩٦٧ هو أيضاً موقف حكيم ويتصف بالشهامة والبطولة ؟

ـ إذا كانت علاقة مصر مع المملكة العربية السعودية ما هى عليه الآن، وما كانت عليه أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣، فى عصر المغفور له الملك فيصل ، فكيف تكون هذه سياسة سديدة وحكيمة، ويكـون الدخـول فى صراع مسلح مع هذا البلد العربى هو أيضاً سياسة سديدة وحكيمة ؟ مما أوصل الأمور إلى دخول الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والقوات المصرية مشتبكة مع قوات سعودية فى اليمن . أو على الأقل متخذة منها موقفاً شديد العداء ، من حيث أن المملكة السعودية ترى في مصر حليفاً لقوى الشيوعية العالمية التى تعدها هى شراً مستطيراً لقائمة طويلة من الأسباب .

ـ وكـيف نـتحدث عن وحدة الصف العربى وغير ذلك من التعابـير النمطـية الـتى سادت الهواء إذ ذاك ، ونحن منحازون لإحـدى الكتلتيـن العالميتين، لا فى سياستنا الداخلية فحسب، بل وتنظيماتنا الداخلية أيضاً، وذلك بمقتضى ميثاق العمل الوطنى الذى يـنص علـى ما هو مسموح به للنشاط الخاص وهو قدر لا يذكر وينحصـر فـى الـتجارة الداخلية فقط تقريباً وبعض الصناعات الصـغيرة ، ثـم يضيف أنه يجوز للسلطة أن "تصادر النشاط" إذا انحـرف صـاحبه ، دون أن تحدد أوصافاً لهذا الانحراف ، فهى تتركه لتقديرها ، وكان شبابنا يتلقون المنح الدراسية من دول أوربا

الغربــية فــترد عليهم السلطات بأنها تفضل أن تتلقى المال الذى سـينفق عليهم لتدريبهم هنا ، ويقال تفسيرًا لذلك أن شبابنا عندما يــزورون هــذه الــبلدان، فإنهم يتعرضون لأمور وأحوال تخالف عقائدنـــا ؟ لأن عقائدنـــا هى المادية الجدلية والتاريخية ، هذه هى عقــائد المجتمع المصرى . إذا كان الأمر كذلك ، فكيف نقدم على معــركة مصيرية مع العدو المشترك ونحن أكثر عداء لأصدقائنا وأبناء جلدتنا ؟ ألا يكون من الحكمة أن ننتظر حتى نحقق الوحدة أولاً، بنشر العقائد الاشتراكية فى أنحاء العالم العربى والإسلامى؟ هذا إن كانت هذه الخيالات ممكنة التحقيق !

خلاصة هذا كله هى أننا نتساءل ـ دون أن ننحاز إلى أى من النقيضــين ــ نتســاءل عن هذه المتناقضات، كيف يكون الشىء، ونقيضه صحيحين ؟ وإذا كان ما مضى وتخلصنا منه هو الخطأ، فلماذا نصر على امتداحه وعلى تعليم أبنائنا فى المدارس أنه كان عصراً مجيداً ؟ صحيح أنه مضى وفات . ولكن ماضى الأمم أكثر حــياة وأكــثر حقيقة من حاضرها، لأن هذا الحاضر هو مجموع أحــداث الماضـــى ومحصــلتها، وإذا كــنا صــادقين فــى بناء الديموقراطية من أجل مستقبل أفضل ، فكيف سيمارسها الناخبون وقد تعلموا أن الخير والشر كلاهما خير مادام يأتى من السلطة ؟؟

مرة واحد صعيدى ...

"كل الفارق إذن أن الصعيد شق غائر ضيق ، بينما الدلتا مروحة مبسوطة مسطحة ، وهى أكثر طمية فى قلبها من الصعيد ، ولكنها أكـثر مـــنه رملية فى الأطراف . وفيما عدا هذا فالدلتا تتحلل فى الـــنهاية إلى مجموعة مخففة مصغرة متراصة من "الصعيدات" فى نمط أشبه ما يكون بورقة شجر مقلوبة ، عروقها هى الضفاف المرتفعة ، وأرضـــيتها هى المجارى المائية، والتباين المحلى المحسوس لا يبين حقاً

إلا فى أقصى الأطراف الهامشية ، شمالاً فى الدلتا وجنوباً فى الصعيد الأقصـــى، فالأولى نطاق مستنقعى بحيرى ، والثانى شريط جنادل صخرى ، أما الفيوم ، فهى مصر الصغرى ... "

جمال حمدان : "شخصية مصر"

المصـــريون مولعون بالنكت و النوادر ... ويحسنون ابتداعها وتبادلها ويفوقون فى ذلك معظم شعوب العالم، وصدق من قال أن تبادل النكت هو الصحافة الحقيقية .

وأهــل بحرى فى مصر يتخذون من الصعايدة ــ أهل الجنوب ــ أبطـــالاً لما يبتدعونه من النوادر ، على أساس أنهم ليسوا على نفس الدرجة من "المودرنيزم" التى يتصف بها أهل مصر السفلى، الذيــن يطلـــون على البحر ويواجهون أوربا ويتلقون البواخر فى موانـــئ الإسكندرية وقناة السويس ... إلخ ، وإلى عهد قريب كان بحـــرى يـــنفرد بجامعة القاهرة ، ثم بجامعة الإسكندرية ثم عين شـــمس من قبل أن يحظى هذا الشريط الضيق الطويل بحظه من الحـــياة الأكاديمية ، و يا للهول ! ولا تنفرد مصر بهذه الظاهرة ، فشـــمال ألمانـــيا هـــو "بروســـيا" وجنوبها هو "بافاريا" والألمانى البروسى هو أيضاً يعد نفسه أعلى مستوى من صعايدة ألمانيا فى الجـــنوب ، والشـــمال هـــو موطن ميناء همبرج العظيم ، ومدينة دوســـلدورف التى هى باريس ألمانيا، ثم المراكز الصناعية الهائلة التى تحيط بها. أما فى أمريكا فولايات الجنوب لا تتصف بالتخلف فحســـب بـــل بالهوان الذى نالته فى الحرب الأهلية ، والعار الذى لحقها من التمسك بنظام عبودية البشر واسترقاقهم من أجل زراعة القطـــن ، وحـــتى يومـــنا هذا ما تزال ولايات ألاباما ومسيسبى وغيرها من ولايات "الجنوب العميق" كما يسمونه ، ما تزال تحظى بقدر هائل من الكتابات الدامية والساخرة ، من روائع وليم فوكنر إلـــى أفـــلام وحلقـــات الممثل الأسود سيدنى بواتييه المعنونة "فى

حرارة الليل"، والتى بدأت بفيلم كان هذا عنوانه ، ولن أنسى منظر الشرطى الأبيض الذى يحتقر بوايتيه لكونه أسود برغم كفاءته، وكانت قد وقعت جريمة قتل وقبضوا عليه لمجرد أنه أسود ثم اكتشفوا أنه محقق شرطى على مستوى عال جاء من الشمال ليزور أسرته، ونرى الشرطى الأبيض بعد المشادة يمسك بالتليفون ويقول للعاملة: حاولى أن تأتينى بخط المكالمات البعيدة من فضلك. والأمر هناك ليس بهذا السوء طبعاً، ولكن أهل الجنوب هم صعايدة أمريكا.

إلا أن صعيد مصر أعطى لمصر ما لم تكن تصبح هى مصر بغيره . لا مجرد حضارتها القديمة وتاريخها العظيم، بل هناك الكثير مما هو حديث أيضاً ... ولكن المصريين ــ بمن فيهم الصعايدة أنفسهم ــ يلذ لهم أن يتندروا بالصعيدى الذى زار باريس وطلب طبق "انكور"، والذى نصحه طبيبه بأن يأكل "رجيم" فهو يتناول وجبته الهائلة ثم يطلب "الرجيم" وهكذا ... وأثناء سنوات الأربعينيات طلعت صحيفة كبرى على الناس بحكاية مؤداها أن "واحد صعيدى" جاء إلى القاهرة وانبهر بمنظر الترام. لم يكن قد رأى شيئاً كهذا فى حياته فلم يكن يوجد التليفزيون ولم يكن متاحاً له وسيلة أخرى . ولما رأى المارة ما بدا عليه من ذهول عرض عليه واحد منهم أن يبيعه له، فأخرج كل ما كان قد جاء به معه من مال وأعطاه له . وبعد ذلك أصبح هذا التعبير "الصعيدى اللى اشترى الترامواى"، تعبيراً نمطياً يدل على منتهى القروية والسذاجة.

وكان هذا منشوراً على أنه خبر حقيقى ، لسنا نعرف الآن مدى صحة ذلك ولكن أحداث الخديعة تحصل لخلق الله من حيثما يأتون ولا تقتصر على الصعايدة طبعاً . وقد كانت تلك هى الحقبة التى أعطى فيها الصعيد لمصر نصيباً وافراً من الحكماء، وهناك مثلاً : (مرة واحدة)عباس العقاد وطه حسين، معاً! وهدى شعراوى وعلى

عبد الرازق ...إلخ، والكثير من أبناء مصر الأقباط الذين كانوا من أقطاب الكفاح الوطنى، والعلوم والآداب والفكر والمال والتجارة .

وأعطاها أيضاً (مرة واحدة ، أيضاً) :

جمـــال عـــبد الناصـــر، ورفيق "كفاحه" و"زميل سلاحه"، عبد الحكيم عامر.

وقد اشترى عبد الناصر الترام فعلاً، ومرتين ...

مرة من العرب ، ومرة من الروس .

وفـــى كلتا الحالتين، كانت مصر هى الثمن الذى استخرجه من صرته.

وفى كلتا الحالتين ، كان لابد أن تمضى سنوات طويلة قبل أن يكتشف ما وقع له ومدى الخديعة من هنا ، والغفلة من هناك.

فـــى حالة العرب، لم يكن الانقلاب السورى سنة ١٩٦١، بعد الوحدة بثلاث سنوات فقط ، وما صاحبه من جرعة الإهانة التى لم يســبق لها مثيل ، لم يكن هذا كافياً له ليفيق إلى الواقع والحقيقة . يقال أن عبد الحكيم نفسه نال نصيباً وافراً من الضرب على قفاه ، مادياً ومعنوياً ، وصدرت إذ ذاك نكتة مصرية تقول أنه قد تم سك عملة جديدة عليها صورته، ومكتوب عليها "ضرب فى دمشق" ـــ أما الضباط المصريون فذاقوا من الاعتقال والذل والهوان والإهانة مـــا لم يكونوا قد ذاقوه من قبل . لم يكن هذا كافياً ، بعد تضحيات الإقليم الجنوبى وسكانه من "الفلاحين المساكين" كما وصفتهم إذاعة دمشق إذ ذاك، من أجل "التجار الشوام"، وقف عبد الناصر يخطب قائلاً: "أنا مسؤول عن هذه الجمهورية من القامشلى إلى أسوان" ، لـــم يســـمعه سوى المساكين، وركب الترام وسار به إلى المحطة التالـــية، اليمـــن ليدفع المصريون ذهب بلادهم وأرواح أبنائهم، لا ليشتروا الترام ، بل السوارس. وذهب عبد الناصر إلى جدة ليقابل الملـــك فيصل، ورجع بخفى حنين كعادته ، ولعله بدأ يدرك حقيقة أحلامـــه فى إمبراطورية عربية عندما قابل فيصل مرة أخرى فى

الخرطوم بعد ظهور حقيقة "القوة الضاربة" ، وتفضل الملك وأذن بسحب "العساكر المصرية" كما أسمتهم إسرائيل ، بالسلاح الشخصي. وقف فيصل بعد ذلك بست سنوات وقفة جادة وحاسمة إلى جانب مصر فى هجومها الأول والأخير على إسرائيل حيث لم ينقذها إلا أكبر جسر جوى فى التاريخ ، وهذا يعطينا الحق فى أن نتساءل : هل كان فيصل سعيداً بما عملته إسرائيل فى مصر وسوريا سنة ١٩٦٧ ؟ لا شك فى شىء واحد ، وهو أن ما عملته إسرائيل قد قضى على كل آمل فى نشر الشيوعية "من المحيط الهادر ... إلى الخليج ... الثائر ؟ "

أما الترام الروسى فبدأ فى منتصف الخمسينيات بصفقة تبعتها صفقات من الأسلحة لا نعرف ماذا فعلت إسرائيل ببضائعها فى حربى ١٩٥٦ ، ١٩٦٧. الذى شهدناه هو أنهم أثناء حرب الاستنزاف أنزلوا تسع دبابات روسية الصنع فى الزعفرانة وأحدثوا خسائر فظيعة . سافر عبد الناصر إلى روسيا مرتين بعد الهزيمة، وكلف الرفيق على صبرى ــ بتاع السجاجيد ــ بأن يتابع شحنات السلاح : "خلاص، على صبرى حايسافر مرة كل شهرين روسيا عشان السلاح"!، هكذا قال مرة فى مؤتمر شعبى، هكذا تحل المشاكل كأن لم تكن، وفى آخر زيارة له لروسيا، أفهمه بريجنيف ــ أو هو نفسه تجلت له الحقيقة بعد غياب طويل، وعرف أن الاتحاد السوفيتى لن يخوض حرباً عالمية نووية من أجله . كان فعلاً يظن ذلك وألمح إليه فى مؤتمر "إيدن الخرع" ــ ولما مضت الأيام وهو يحاول مرة بعد مرة أن يجد من يصغى إليه، أذيع أن الرئيس يعالج بما أسموه "المياه المشبعة بالإشعاعات"، أية مياه، وأية إشعاعات؟ فى موضع اسمه "تسخالطوبو"، تسخالطوبو فعلاً ياله من اسم على مسمى .

ويبدو أن الرئيس الراحل السادات كان صادقاً فيما رواه من أنه قابل عبد الناصر عند الطائرة فور عودته من تلك الرحلة، وأن

عـبد الناصـر قـال لــه إن الروس "هوبليس كيس"، هكذا قالها بالإنجلـيزية، يعني حالة ميئوس منها . عندئذ فقط ، وبعد خمس عشرة سنة من واقعة شراء الترام الروسى، أدرك ــ عندئذ فقط ــ مدى ما وقع فيه من خديعة.

لــن أستطيع أن أنتهى من هذه الفقرة دون أن أروى لكم تجربة شخصية كما حدثت دون أن أضيف أدنى تعليق من عندى .

فى مطلع سنة ١٩٦٤كانت حرب اليمن تدور منذ ثلاث سنوات دون أن يبدو لها فجر يطلع ، وكنت أنا ما أزال ضابطاً فى سلاح المهندسـين ولكنــنى منــتدب للعمل فى مشروع السد العالى منذ ١٩٦٢ (ولدى وسام الجمهورية نظير ما قمت به هناك، يبدأ هكذا: من جمال عبد الناصر إلى فلان الفلانى)، وكانت "الوكسة" قد بقى عليها ثلاث سنوات ونصف ولكنها مكتوبة فى لوح القدر .

كــان مــرفق النقل العام لمدينة القاهرة يعانى مشاكل جسيمة، ولذلك قررت القيادة العامة للقوات المسلحة (برئاسة المشير عامر وبطانــته)، أن تهبط عليها كالملاك المنقذ، "الضباط قادمون" كما يمكن أن يقال، كأنما لتؤكد القيادة مرة أخرى أن عمل الضابط هو أى شــىء سـوى الدفــاع عن وطنه . ووجدت نفسى أشغل أحد مراكز الإدارة العليا فى هيئة النقل المذكورة .

كان واضحاً لى منذ البداية أن النقل سلعة كأى سلعة ، وأن لها تكلفــة وبالتالى يجب أن يكون لها سعر يغطى هذه التكلفة ويحقق لها ربحية تجعلها تظل قادرة على العمل والبقاء والاستمرار . هذه معادلة الحياة. وكانت أسعار التذاكر تقررها القيادة السياسية إذ ذاك ولا تريد أن تزيد منها وإلا وقع ما وقع بعد ذلك فى وزارة زكريا محيى الدين، بقية القصة معروف وهى قصة القطاع العام كله .

ليس هذا موضوعنا ، موضوعنا هو أن لجنة الاتحاد الاشتراكى أقامت احتفالاً سنة ١٩٦٦ ودعتنى لحضوره، وكان كل اجتماع من هذا النوع يدعو واحداً من نجوم الثورة أو "رموزها" طبقاً للتعبير

الــذى يشــيع الآن، وكان النجم فى تلك الحالة هو المرحوم السيد مجدى حسنين صاحب مديرية التحرير ... إلخ. وبعد الانتهاء من محاضــرات الســائقين والمحضلين حول الاشتراكية والقومية ... إلخ، تكلم الزائر الكبير ووجهت إليه أسئلة أجاب عليها وكان منها ســؤال بشأن السياسة الخارجية لا أذكره جيداً ولكنى أذكر الإجابة علــيه كمــا لــو كنت سمعتها من دقيقة واحدة . أظن كان يتعلق بموقفــنا مــن أمريكا والعالم الغربى ، بعد أن أجاب على السؤال أضاف هذا التعليق : "معلش الراجل بتاعنا أصله صعيدى ودماغه ناشــفة شــوية"، ولم يكن هذا بلهجة النقد والعياذ بالله ، بل بلهجة الحب والإعجاب المتناهى ...

دائرة معارف كاملة من النكت، منها هذه تناقلها شعبنا : حلف اسمه مصر ــ يمين ــ كوبا.

جرب أن تنطقها مرة بعد مرة إلى أن تكشف الحقيقة وتعــرف إننا ــ كلنا ــ نفهم كل شئ ! وإلا فما كل هذه النكت ؟

اللبن والنفاية

" لم أر فى التاريخ شعباً أحسن العالم استغلاله كالشعب المصرى ، فهـــو من أعماق التاريخ كان بقرة حلوباً للهكسوس الذين ظلوا مـــائتى ســـنة ينهبون خيراته حتى أفاق من غيبوبته فطردهم بقيادة أحمس العظيم ...

ثم أصبح للرومان مصدر غذاء وطعام ، وكانت أهراء القمح فى مصـــر تمد روما بحاجتها منه ، واستمرت حقلاً للمستعمر الجديد مـــئات الســـنين ، ولا أطيل فى بيان استغلال الدول لنا فذلك قد سجلته كتب التاريخ من عهد الأتراك إلى أيام الإنجليز.

ولم يقتصـــر الأمر على استغلالنا مادياً ، بل تجاوزه إلى استغلال إرادتنا التى ضاعت تقريباً فى كل هذه العهود".

دكتور . إبراهيم عبده : "تاريخ بلا وثائق" (١٩٧٥)

طلعت يا ما أحلا نورها شمس الشموسة

يـــاللا بنـــا نملا ونحلب لبـــن الجاموسة

أغنية مصرية

لقـــد فـــتح عبد الناصر خزانة الشعب المصرى ، طوال سنوات حكمه، لينهل منها المرتزقة العرب من السياسين والصحفيين وباعة الخطـــب ومرتزقى المؤامرات . حرم الشعب المصرى من ثروته ، لـــيوزعها على صحف بيروت ويملأ بها جيوب أصحاب الألسنة الطويلة فى مقاهى بيروت وبغداد ودمشق .

إبراهيم سعده : "الروس قادمون"

فـــى منتصف سنة ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية فى مصر وشغل اللواء محمد نجيب ـــ رحمه الله ـــ رئاستها وكان أول قرار له هو

ترقـية عـبد الحكيم عامر من رتبة رائد (كانت تسمى "صاغ" إذ ذاك، وهـو الاصطلاح العثمانى) إلى رتبة لواء مرة واحدة . ولم تكـن القوى السياسية الراديكالية قد اتخذت أى مراكز للقوة حتى ذلـك الوقت ، كان الإخوان يمثلون السياسة التى تستغل المشاعر الدينـية لـدى الجماهـير، ومـا يزالون حتى الآن، والشيوعيون يسـتخدمون شـعار الاشـتراكية والعدالة ... إلخ، وهو ما يكفى لاجتذاب الشباب المتعلم ، ومعه نظرية الماركسية العلمية التى هى عـدة الشـغل عند من يطمحون إلى القيادة ، وكانت هناك أيضاً عناصر فاشيستية ما تزال تتنفس هنا وهناك ، كمصر الفتاة ، وبدا أول الأمـر أن "القيادة" كما كانت تسمى ـ أو الثورة كما أسماها قادتها ـ قد تحالفت مع الإخوان فى مواجهة الأحزاب المنحلة ، و أبقـت علـيهم على أساس أنهم جمعية وليسوا حزباً ، وبالتالى لا ينطبق عليهم قرار حل الأحزاب ، وفعلاً كانت نبرة الإخوان عالية وظلت كذلك إلى أن جرى القمع الأول سنة ١٩٥٤ ثم الثانى وكان أشد عنفاً ، سنتى ١٩٦٥، ١٩٦٦ .

أمـا الشـيوعيون فكان الحزب منظمة "تحت الأرض" طبعاً، وبـدأوا يتصـرفون بعصبية أثناء تلك السنة ١٩٥٣عندما تبددت أحلام "حدتو" فى وراثة الحركة المباركة وتفاقم الصدام الذى أدى إلـى إغـلاق مجلـتى "الكاتـب" و"الواجـب"، وأخذوا يوزعون المنشورات التى تعرض بالنظام . وقد كنت إذ ذاك ضابطاً بسلاح المهندسـين، مـنذ تكلـيف جمـيع خريجى كليتى هندسة القاهرة والإسـكندرية سنة ١٩٤٨ ـ سنة حرب فلسطين ـ وكنت أتلقى، كما كان يتلقى غيرى ، مثل هذه المنشورات بالبريد، وكنت أسلمها للسـلطات العسكرية المختصة، لا لمجرد الالتزام بالانضباط، بل أيضاً لأننى كنت إذ ذاك ـ وما أزال حتى الآن ـ أبغض كل نوع مـن الأيولوجـيات السياسية والاجتماعية وأعدها كلها أنواعاً من الدجـل الذى يمارسه من يدعون إليها ولا يهدفون من ورائها إلا

إلى استئناس البشر وإخضاعهم لإرادتهم بأن يوهموهم بأن السعادة فـــى هـــذا أو ذاك ، ســـواء سعادة الدنيا ــ عند الشيوعيين ــ أو الآخـــرة وربما شيء من الدنيا ، عند الأصوليين ، وكنت ومازلت لا أرى فارقاً كبيراً من حيث الفكرة الأساسية بين هذين المذهبين، وأعـــتقد جازماً أنه لا يمكن لأية أيديولوجية أن تكون صحيحة فى كل جوانبها، فالناس والحياة أكثر تعقيداً بكثير من أن يكون الأمر بهـــذه البساطة، وإذا كانت كلها صحيحة الآن فلن تكون كذلك لأن الدنيا ستكون قد تغيرت وهى باقية متجمدة كالحجر، وفى رأيى أن مـــن يؤمـــن بأيـــة أيديولوجية سياسية اجتماعية يتخلى عن عقله ويسلمه إلى الزعيم ليتولى إدارة فكره وحياته ويتحول إلى درويش يســـتعبده أناس هم آخر من يصدق ما هو متدروش فيه ، وخاصة علـــى جانـــب السياسة الدينية، والمسلم المؤمن قد يحتاج إلى من يفســـر له القرآن والحديث ولكن طريقه إلى الله مفتوح وليس عليه إلا أن يؤمن به ويعبده هو لا واحداً من عباده.

كـــان أول منشـــور يسخر من مسألة عبد الحكيم عامر، وكان شـــعورى ممـــاثلاً أنا أيضاً ، خصوصاً عندما أصدر اللواء محمد نجيب تصريحاً قال فيه: "لو فتحتم قلبى لوجدتم عبد الحكيم عامر"، أى نـــوع من الكلام هذا وهل يصح أنه يصدر من رئيس دولة هو أيضـــاً جنرال ؟ أنا كنت فى جانب بلدى طبعاً ولكنى أحسست فى الحـــال بأنـــنى علـــى الجانـــب الآخر ورأيت كما يرى النائم أن الإســـرائيليين قـــد "ماتوا من الضحك" كما يقال ، وأيقنوا أنهم لن يجـــدوا أية مقاومة فى أية معركة مع مصر ، فكل من لديه أدنى فكـــرة عـــن العسكرية يعرف أن جيشاً مهمته هى "حماية مكاسب الشعب" كما قيل بعد ذلك ، سيكون قد تحول إذن إلى قوة بوليسية داخلـــية (بصرف النظر عما إذا كانت حقاً مكاسب أم مصائب) ، وأن الجيش الذى تنتشر فيه طبقات من ضباط ذوى رتب متوسطة وصغيرة، يسمون "الضباط الأحرار" (بل ويجلس على قمته واحد

مـــن هؤلاء) يعرفون أن كبار مناصب الدولة فى انتظارهم وأن عليهم أن يتأهلوا لها وليس للقتال ، وكبار الضباط يخافون هؤلاء الصـــغار ويـــتملقونهم ويستحلفونهم أن يسعوا فى مصالحهم سواء بالمناصب أو المغانم ، وأنهم يتسابقون على هذه المغانم التي تتاح للجـــان جرد القصور ... إلخ، لن يختلف اثنان فى أن تنظيماً كهذا ســـيكون عديـــم القـــدرة على القتال وأنه لا يرقى حتى إلى مرتبة الميليشـــيا السياســـية ... وهذا هو السبب الأوحد فيما جرى سنة ١٩٥٦ ثـــم ١٩٦٧ ، فهو لم يكن هزيمة ، لأنه لكى ننهزم لابد أن ندخل معركة ونخسرها، نحن لم ندخل المعركة أصلاً لأن الجيش كان قد تحول إلى جهاز للبوليس السياسي ، وكل ضابط يعرف هذا فى أعماق نفسه وإن كان يستحيل أن يواجه حتى نفسه به ، وكان يحلو لى إذ ذاك أن أشبه موقف الجيش فى مثل هذه الحالة بالفرقة المســـرحية التى يأتى مديرها فجأة ويطلب من أفرادها أن يحولوا المشهد التمثيلى إلى مشهد فعلى يعنى مثلاً يطلب ممن يؤدى دور "عطيل" لا أن يمثل أنه يقتل ديدمونة ، بل أن يقتلها فعلاً، لاشك أن الممـــثل سيطلق ساقيه للريح رافضاً الموقف كله ، هذا بالضبط ما حـــدث فى هاتين السنتين ، نحن لم نرسب فى الامتحان ، نحن لم ندخـــل اللجنة أصلاً . "الله ؟ هوة بجد" هكذا قال كل فرد لنفسه ، ومـــا عليك إلا أن تتأمل الأداء العسكرى سنة ١٩٧٣. علماً بأنهم كـــانوا نفـــس الأشـــخاص بالكـــامل تقريباً. ومن أبرع ما أنتجه المصـــريون مـــن النكت ــ وأكثرها دلالة على ذكائهم وعلى أنهم يعـــرفون الأمور على حقيقتها ، وإن كانوا يرفضون الإقرار بها لأنـــه "مـــا يصحش"، فأبناء المذنب أو المجرم قد يعرفون حقيقته ولكـــنه لا يجـــوز لهـــم أن يقروا بها : تقول النكتة إن ضابطين مصـــرى وإســـرائيلى قـــتلا فى الحرب وتقابلا فى الآخرة وسأل المصـــرى : مـــا كل هذه الأوسمة ياكوهين ؟ فأجابه : هذا نظير أدائى فى معركة اللطرون ، أما هذا فعلى ما أبديته من شجاعة فى

ممــر مــثلا.. وأنت ، ما كل هذه الصفوف من الأوسمة ، فأجاب المصرى : هذا وسام معركة عمر أفندى وهذه شركات للمقاولات وهذه معركة المطاحن والمخابز ... إلخ.

ليســت العســكرية مجرد انضباط ، ولكن الانضباط والإمرة Command هــو إطارهـــا الذى لا تخرج عنه ، والقائد العسكرى نوعية خاصة جداً من البشر ــ وستأتى لمزيد من هذا فيما بعد ــ "ســلالة" كما يمكننا أن نقول ، وقد درج الألمان على أن يستمدوا جــنرالاتهم مــن إقلــيم بروسيا بالذات ، فالضابط رجل على أتم اســتعداد لأن يمــوت من أجل بلده ... وأن يطيع أوامر قائده بأن يقتحم أشد الأخطار هولاً. وهو سليم البدن حاد الذهن على مستوى عال فى إدراكه لفنون الإدارة والقيادة وللحياة عموماً ، مثقف جداً فى التاريخ والفكر والفنون .

كــان هذا المنشور إذن يتحدث عن ــ وأنا أنقله حرفياً ولاحيلة لــى فــى ذلــك ــ "الصبى عبد الحكيم عامر الذى رقى من رتبة الصــاغ إلــى رتــبة اللواء بأمر جمهورى رقم واحد !" ــ سلمته للأمن إذن وسرعان ما جاءنى منشور آخر هزنى هزاً عنيفاً واقتلع قلبى من القفص ...

كــان رســماً كاريكاتوريــاً هذه المرة ، جاموسة هائلة الحجم سوداء اللون مكتوب عليها "مصر" ، فمها محشو بالبرسيم ، تتدلى مــنه أعــواد وهــى تلوكها بكميات هائلة، وتبتلعه بكفاءة عالية، فضــروعها منــتفخة باللبــن ، وقد جثم أسفلها عدد من الصغار يرضــعون من حلماتها مباشرة كما يعتاد صبيان الفلاحين ، فقط هــؤلاء كانوا من أشكال متنوعة ، هذا أبيض مكتوب عليه سوريا وهــذا أسود مكتوب عليه السودان وهكذا ، ذيل الجاموسة مرفوع فــى الهواء ومؤخرتها تقذف كتلاً اسطوانية الشكل ، كما لو كانت فوهــة مدفع ، تطير هذه الكتل من روث البهيمة فى الهواء لتسقط على رءوس جمع من الناس مكتوب عليهم "الشعب المصرى".

أفزعتنى هذه الصورة، وحاولت قدر استطاعتى أن أبعدها عن ذهنى وأمكننى ذلك بقدر محدود ، إلى أن مرت شهور وقرأت فى الصحف عن جريمة قتل كانت ضحيتها شابة مصرية، والجانى فيها زوجها، وهو طالب سودانى. استفزت القصة عواطف المصريين وكانت جرائم العنف والقتل ما تزال أمراً غير مألوف بالقدر التى هى عليه الآن. وازداد الناس غماً عندما صدر حكم محكمة الجنايات بتبرئة القاتل دون حتى حكم موقوف التنفيذ. كل الناس تقريباً يعرفون طريق صلاح سالم ، ولكن أغلبهم لم يكن معاصراً لهذه الشخصية الفريدة ، وكان أول من شاء الله أن ينتهى أجله من بين أعضاء مجلس قيادة الثورة كما كان يسمى، مما كان موضوع نكتة مصرية أخرى نمسك عن روايتها*لمافيها من اجتراء على حرمة الموت الذى هو قدرنا ومصيرنا جميعاً، ويقال أن النكتة ــ شأنها شأن جميع النكت ــ وصلت إلى مسامع عبد الناصر وأنه تجهم وجهه لسماعها، وإن كان لم يتعظ بها. منسوب لصلاح سالم المذكور أشياء كثيرة رواها اللواء محمد نجيب، منها أنه اغتاظ مرة من ضابط شاب فى المخابرات، كان أبوه زميلاً للواء نجيب، وأنه إنهال عليه ضرباً حتى تقيأ دماً ومات بعد ذلك. ترى كم إسرائيلياً قتلهم صلاح سالم وحمزة البسيونى وأمثالهما من شجعان الضباط ؟

كان صلاح سالم مسؤول ملف السودان كما يقال، وكان قد وضع كل إمكاناته فى خدمة الحزب الوطنى الاتحادى بزعامة إسماعيل الأزهرى وبقية القصة معروف ويا لها من مهزلة .

موضوعنا هو أنه وقف فى أحد اجتماعات الــ "هيلا بيلا" التى كانت تعقد إذ ذاك ، وتذاع فى الراديو ، لم يكن هناك تليفزيون ،

* عدت فرأيت أنه لا بأس بروايتها، النكتة تقول : إذا كانوا حايموتوا واحد كل عشر سنين يبقى القيامة حاتقوم وهم قاعدين! وكان يصاحبها نكته أخرى فى ذلك الوقت ! إزاى يا أخى وقفوا تمثال رمسيس ؟ ده وزنه ستين طن ؟ أجاب الأخر : إذا كانوا وقفوا حال البلد مش هايعرفوا يوقفوا تمثال .

وكــان معــتاداً أن تأخذه الجلالة ويحزق حتى تكاد تطلع روحه. يــبدو أن أحد الحاضرين أثار موضوع القاتل البرئ، وكان تعليق صــلاح سالم أنه إذا كان القاضي قد حكم بدافع من وطنيته فماذا نفعل؟ هذا هو مفهوم الوطنية عند هذا الكائن، تعالوا افعلوا بنا كل ما تريدون !

رضــعة جديدة من لبن الجاموسة هذه! مضى الحال على هذا المنوال، من ضياع هيبة القادة العسكريين إلى ضياع هيبة القضاة، مــنهم من استقال ومن انتحر ، انتهى هذا بالهزائم المشينة وذاك بمذبحة القضاة، كل القيم لم يعد لها أدنى وجود، انتهاك النساء أمام أزواجهم وأبنائهم، الخزائن فى بيوت الكبراء، إنفاق أموال الشعب فــى ممارســة الترف والنعيم ، كلها قصص سمعناها من هؤلاء الكبراء أنفسهم أو نشرتها صحافتهم، حكى الرئيس السادات قصة خزينة عبد الناصر للناس فى التليفزيون وهو رئيس الدولة، فماذا جرى بعد ذلك ؟ لا شيء ! نشرت القصص عن قتل عالم كبير فى الطــب هو أنور المفتى، ثم ماذا ؟ لا شئ... إلى آخر هذه المآسى التى نعرفها جميعاً.

كــان هذا كله ثمن "الترام السودانى" الذى اشتراه صلاح سالم، مع أنه "ابن بحرى" .

كثيراً ما سألت نفسى، كيف يجرى ما جــرى سنة ١٩٦٧ دون أن توجــه كلمــة لوم واحدة لعبد الناصر الذى أعلن للناس أنه هو المســؤول، ولم يكن فى حاجة لذلك فقد شاهدوا المؤتمر الصحفى الشهير: "إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلا و سهلاً ! " يعنى، تعالوا اضــربونا ! وكيف تدخل الحرب وهذه حالة جيشك؟ لماذا لم يلمه أحــد حــتى فى جلسة خاصة؟ لأن فلسطين لم تعد سوى ذريعة للحكــام ليفعلوا ما يشاؤون ببلادهم ، قميص عثمان كما قال نزار قــبانى. مــا قيمة الضفة أو القدس أو غزة؟ لقد وقعنا على غنيمة يهون هذا كله فى سبيلها . جاموسة سمينة نستمد منها مــا نشــاء

ونجعلها تـــ .. على دماغ الفلاحين المهابيل دول .

الدنيا كلها تضحك علينا وعلى غفلتنا، فالدنيا كلها تعرف أنه لو لم يبق فى العالم سوى روسيا فهى لن تسمح لنا بأن نهزم إسرائيل ونعيد الأراضى المقدسة إلى ورثة العثمانيين ، بل لو لم تعد هناك ســـوى ألمانيا فالألمان سيقفون إلى جانب اليهود إذا كنا نحن الذين نحاربهم، وشيئاً فشيئاً لم تعد الغنيمة هى مجرد لبن الجاموسة، بل دمهـــا ولحمها وعظامها ثم جلدها الذى تحول إلى أحذية لكل دابة تمشـــى علـــى قدميـــن.. تأمل هذه الصورة وحدها : منطقة قناة الســـويس، أربع مدن كبرى وعشرات من البلدان والقرى، يسكنها خمســـة ملاييـــن مصرى ، يعنى أضعاف شعب فلسطين ، هؤلاء يتشـــردون ويجـــرون مذعوريـــن هـــذا يحمل العيال وهذا يحمل التليفزيون أو الأوعية أو يجر بطانية ، يوزعون على عشش رأس البر وغيرها من المعسكرات ، بعبارة أخرى ، اقتطعت من مصر سيناء، ومنطقة القناة ، وتشرد خمسة ملايين مصرى، تحولوا إلى لاجئيـــن ومتســـولين، ترى كم مرة تبلغ هذه الكارثة حجم كارثة فلســـطين ؟ وكـــم مرة بلغت كارثة فلسطين قدر حجمها الأصلى نتيجة لذلك؟ وأى عقلية سياسية أو عسكرية أو قيادية تجد أدنى قدر مـــن الحكمة فى أن تظل مدفعيتنا "تعزق" فى صحراء قاحلة وهم ليسوا فى حاجة حتى إلى أى جهد فى التصويب، أى قذيفة ستسقط فـــى مديـــنة أو مـــزرعة أو مـــنطقة صـــناعية أو سكنية! حرب الاستنزاف فعلاً ! استنزاف من ؟

البَوَظَانْ :

ليســـت هـــذه كلمة بذيئة ولا حتى مهينة ، فقد كانت تشيع فى الحياة العسكرية أيام التحقت أنا بها سنة ١٩٤٨ كضابط مهندس* مكلف أنا وزملائى من خريجى الهندسة كما سبق ، ولما كنت قـــد

* قضـــيت فترة معلماً فى مدرسة الضباط المهندسين، وكان من تلامذتى فى إحدى الفرق أبو عمار. كان أقل تسيباً فى الضرر فى ذلك الوقت.

تركــت الخدمـــة مـــنذ ثلاثين سنة (وكنت فى الجانب الفنى طيلة الوقـــت، ولـــيس القـــتالى) فإنـــنى لا أعـــرف مـــا إذا كان هذا "الاصطلاح" ما يزال شائعاً فيها، ولكنه كان كذلك إذ ذاك، وأذكر مرة كنا نصطف فى فناء الكلية الحربية، مئات من الطلبة، ووقف واحـــد من كبار المعلمين (أصبح وزيراً بعد ذلك) وصاح يخاطب الجميع "كل صف ضابط فى الكلية دى بايظ !" كان يقصد أن حملة رتـــب ضـــباط الصف بين طلبة الكلية ليسوا بالقدر المطلوب من الانضباط، أو "الضبط والربط" كما كانوا يسمونه. وكان معتاداً جداً أن تجـــد ضـــابطاً أو صـــف ضابط يعنف مرءوساً له بقولـــه "يا بايظ!" وهى ليست ــ كما سبق ــ كلمة بذيئة ولا مهينة ، إنها ــ فـــى قاموس العسكرية ــ لا تعنى أكثر من الحاجة إلى مزيد من إطاعـــة الأوامـــر، وذلك لأن الأوامر فى ظروف المعركة وشبح الموت محلق فوق الرءوس، إذا تعرضت لأدنى قدر من التردد ــ ولا أحد يزعم أن هذا لا يحدث، فقد كان موضوع كتابات عديدة ــ قد يؤدى إلى أن يهرب كل واحد بجلده .

ومـــن هنا فإن التقاليد والاحترام الذى يقرب من التقديس ، هى روح حـــياة الجـــندية . والقائد العسكرى يتربى على أنه قد اختار لنفسه حياة تشبه الرهبنة، فهو لا يسعى إلى النعيم أو الترف وإنما إلى قيمة معنوية عظمى، وهو دائماً على استعداد لاحتمال الشظف والعناء البالغ، برغم أنه فى التقاليد البريطانية مثلاً، قد يكون سليل أســـرة مـــن النـــبلاء أو الأثرياء ، الواقع أنهم درجوا على انتقاء الضـــباط المحترفين من هذه الطبقة، وكانت الكلية الحربية عندنا لغايـــة الخمســـينيات تستلزم ممن يتقدم للالتحاق بها قائمة بأملاكه للاطمئنان إلى أن هذا الشاب الذى سيصبح قائداً يهب نفسه وحياته لوطـــنه، لـــن يرزح تحت نير الفاقة المدمرة ولن يشغل نفسه بأن يحلـــم بوسائل الكسب والانتفاع ، وأنه سوف يتقبل الموت مطمئناً علـــى عياله ، ثم التقاعد المبكر إذا عاش، وهو واحد من السمات

القاسية في الحياة العسكرية، وعلى الجانب الأمريكي نرى أن جوزيف كنيدى، الأخ الأكبر لجون الذى كان رئيساً ، خدم فى القوات الجوية فى الحرب العالمية الثانية وقتل فى طلعة جوية أثناء غزو نورماندى، وكان جون نفسه ضابطاً فى البحرية فى الحرب ذاتها وأصيب بجراح خطيرة، ومعروف أن هذين الأخوين ينتميان لواحدة من أكثر العائلات ثراء فى العالم ، وأمام كل منهما ــ والألوف من أبناء اللوردات والمليونيرات ــ حياة كلها ترف لا يعلو فوقه ترف ، وقد كان قائد البحرية البريطانية فى معركة نورماندى المذكورة هو اللورد ماونتباتن، وهو قريب الملكة ، قصارى القول إن القائد العسكرى يهب نفسه لحياته، ليس معنى هذا أنه يعيش بلا طموح، فقد أصبح ماونتباتن هذا بعد الحرب آخر نائب للملك فى الهند، (ولم يكف عن الكفاح وقتله ثوار إيرلندا بعد ذلك)، كما أصبح ديجول رئيساً وأباً روحياً لفرنسا ، وأصبح ايزنهاور رئيساً لأمريكا، فقط عندما يصبح الجيش نوعاً من الأوليجاركية الحاكمة، ومعملاً لتفريخ ذوى الحظوة، وعندما يعمل صغار الضباط كعملاء للسلطة، والكبار يحلمون بوظائف الإمارة والوزارة والسفارة عن طريق الصغار، فهذه أعلى درجة من البوظان الحقيقى . والتطبيق الفعلى واضح النتائج، هذا الوضع الشاذ المشين، قد دمر ــ فيما دمر ــ طاقات المحترفين من المديرين والسفراء وكل أصحاب المهن وحطم معنوياتهم وعلمهم المذلة وفقدان الكرامة وقضى على أرواحهم المهنية ، وهو عندما وضع له حد أمكن للجندى المصرى أن يحقق ذاته فى الأيام الأولى لمعركة أكتوبر التى ذاق فيها الإسرائيليون أمر هزيمة واصطف جنودهم فى صفوف الأسر وما عليك إلا أن تقرأ ما كتبه كيسنجر عن استغاثتهم التى لا توصف إلا بـ "الحقينى يا ماما" و لحقتهم ماما بجسر جوى لم يسبق له مثيل.

العسكرية المصرية

"في هذه الأثناء أيضاً بدأنا في تجميع كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة ، وكان هذا سهلاً للغاية ، ففي عمليات التدريب على ضرب النار كان من السهل أن يقرر ضابط أن رجاله ضربوا مائة ألف طلقة بينما هم استهلكوا عشرين ألفاً فقط، وهكذا تجمع لدينا كميات هائلة أعطينا قسماً منها للإخوان المسلمين ، وقسماً آخر تسلمه أحمد فؤاد ليوصله إلى حدتو ، وقد أبدى عبد الناصر دهشته عندما أبلغته بذلك ، وقال : أنا أعرف أن الشيوعيين بتوع كلام وسياسة ومش بتوع عمل مسلح ... ولكنني أبلغته أن لهم مجموعة في القناة اسمها الأنصار، ووافق على تسليمهم الذخيرة والسلاح ".

"ثمة مثل عسكري في صيغة سؤال غريب ، وإجابة أكثر غرابة : "والدك أقرب إليك أم قومندانك ؟ وأجيب : قومنداني طبعاً ــ ليه؟ لأن والدي أعيش معاه ، أما قومنداني فأنا أموت معاه" .

"أما أنا فقد عدت إلى الفرسان ، لم أطلب منصباً ، طلبت فقط أن أبقى مع رجالي وزملائي وتقرر أن أعمل كضابط مخابرات سلاح الفرسان، وكان مفهوماً منذ البداية أنني لن أعمل كضابط مخابرات تقليدي، وإنما سأمارس نشاطاً سياسياً في السلاح من خلال تفرغي لهذا الموقع ، وكان هذا طبيعياً ، فقد كان حسين الشافعي أعلى رتبة مني، ولم يكن بالإمكان أن أتولى في الفرسان موقعاً أعلى منه أو أدنى منه بينما أنا عضو في لجنة القيادة التي أصبحت بشكل أو آخر تمثل سلطة السيادة في مصر".

"والحقيقة أنني وبسبب تكويني الشخصي كنت راغباً في

الاســـتمرار مع الضباط وطبعاً كنت أحمل شكاواهم وطلباتهم ، وحتى طلبات أقاربهم ، وطلبات بعض أبناء كفر شكر لمحاولة إيجاد حلول لها فى الوزارات المختلفة، وغضب عبد الناصر وكان يعاتبنى مؤكــداً أن وضعى فى مجلس القيادة لا يسمح لى بذلك ، ولكننى كنـــت أعتقد أنه لا قيمة لوضعى هذا إذا لم أوظفه لحل مشكلات زملائـــى الضـــباط ، وخاصـــة الذين خاضوا معى الأيام الأولى لحركتنا".

خالد محيى الدين : "والآن أتكلم" (١٩٩٢)

ــ للأسف، كان الفريق رياض قد أصدر للتو أمراً إلى الوحدات الـــتى لا تزال تحارب فى الضفة الغربية للأردن ، بالانسحاب إلى الضـــفة الشـــرقية . وأعطينا فوراً أمراً مضاداً إلى قواتنا بالبقاء فى مواقعها.

ــ كـــان رياض يعتبر أن السياسة العربية مسؤولة عن كل خطأ وقـــع خـــلال أزمة حزيران ١٩٦٧، وفى رأيه أن هذه السياسة ارتكبت بحق القوات العربية جرائم أكثر مما ارتكب الإسرائيليون خلال تلك الحرب . وكنت من رأيه تماماً .

ــ فى ٣٠ أيلـــول ١٩٦٧ تمكنت من الاجتماع بعبد الناصر فى القاهرة ، وقررت معه النقاط الخمس الآتية لتحديد الموقف العربى:
١) نقبل الاعتراف بحق كل واحـــد فى العيش بسلام وأمن فى هذه المنطقة ، بما فى ذلك إسرائيل ..."

ــ كانـــت معظم أوامر رياض تثير اعتراض الضباط الأردنيين ، فيـــبادرون إلى الاتصال باللواء عارف المجالى .. عبد المنعم رياض رجـــل ذكى، يضج بالحيوية ، ولكنه بدا لى فى الظروف العصيبة دون المستوى المطلوب ، كان مفروضاً فيه أن يعرف الجيش الذى دعى إلى تولى قيادته، وأن يعرف الأرض التى سيناور عليها.

الملك حسين : "حربنا مع إسرائيل"

عندما حدثت الأزمة سنة ١٩٦٧، كنت رئيساً للقطاع الميكانيكى بسلاح المهندسين، ووجدت فى مكتبته كتابين أمتعتنى قراءتهما، وهما من تأليف الأمير عمر طوسون، أحدهما "الجيش المصرى فى عصر محمد على "، والثانى "الجيش المصرى فى حرب القرم" ــ كانت هاتان الحقبتان مرحلتين مجيدتين فى تاريخ العسكرية المصرية، والمؤلف يصف بصيرة محمد على فى تصوره أن الفلاح المصرى يمكنه أن يتحول إلى مقاتل بعد أن مضت عليه ألوف السنين لم يمارس فيها تلك المهنة ، ويتحدث المؤلف عن مشكلة القيادة، أدرك محمد على ــ الذى كانت شريعته هى بناء دولة حديثة مستقلة من أنقاض أول دولة فى التاريخ ــ إنه لن يستطيع أن يخلق قيادات عسكرية من هؤلاء الفلاحين قبل انقضاء جيل أو اثنين ، فجاء بالألبان والجراكسة والأرناؤود ليكونوا هم "اللبنة الأولى" كما يقال ، وجاء بعده الحاكم العظيم إسماعيل ، ابن الجنرال اللامع والقائد المنتصر إبراهيم باشا، والذى كان ــ إسماعيل ــ صاحب الشعار الذى يدل على عمق إدراكه لحقائق العصر: "مصر قطعة من أوربا" ــ فأرسى دعائم العسكرية المصرية الحديثة، التى أخرجت عرابى والبارودى وأمثالهما من القادة العسكريين الشجعان.

إلا أن الدنيا كانت قد تطورت، تحولت البنادق إلى رشاشات وصواريخ، والخيل إلى دبابات وعربات مصفحة، والرسل والحمام الزاجل إلى شبكات تليفونية (والآن أقمار صناعية وأطراف ذكية ... إلخ) ولم تعد الشجاعة والشهامة، والكاريزما، تكفى للصمود أمام التفوق النوعى التكنولوجى، وقد تعلم الأتراك ــ "الأشاوس" ــ تعلموا هذا عندما خاضوا الحرب حلفاء لألمانيا فى مواجهة الإنجليز والفرنسيين الذين مزقوا أوصال إمبراطوريتهم التى دب فيها التسوس نتيجة للتخلف العلمى والحضارى، وتعلم اليابانيون الدرس نفسه فى الحرب الثانية، برغم نهضتهم العظيمة، عندما

حط عليهم الجحيم النووى من خلال الغيوم .

لكل عصر حضارة سائدة، تمثلها قوة تقود هذه الحضارة، وتتمثل فى مستوى المعرفة وما يصاحب تقدم المعرفة من تطبيقات وتطورات فى جوانب الاقتصاد والصناعة والزراعة والفكر والفلسفة والفنون والممارسات السياسية ونظم الحكم والإدارة، والمواثيق الخلقية والعقائدية. وليس عيباً أن يتعلم الناس من المتقدمين، ولا يستتبع ذلك أن يخضعوا لهم أو أن يسيروا فى ركابهم، الواقع أن الصراع المادى مع المتقدمين هو الذى يأتى بهذا المصير للمتخلفين، ولو أن اليابان عندما خضعت للاحتلال الأمريكى بعد هيروشيما، أصرت على مقاومة هذا الاحتلال وعلى أن ترفع شعاراً مثل الجلاء التام أو الموت الزؤام، لكان مصيرها هو الفناء الذى حذر منه هيروهيتو، هذا مع مراعاة أن تاريخ البشرية قد لا يضم نظيراً لما أظهره اليابانيون من الشجاعة والفداء، وحتى الآن ما تزال جزر كوريل اليابانية تحت احتلال الروس.

كان لابد للعسكرية المصرية أن تتطور. ولكن الزعامة السياسية والدينية التى سادت مصر أثناء حملة نابليون فى مطلع القرن التاسع عشر ثم مرة أخرى من بداية الاحتلال الإنجليزى إلى نهاية الحرب العالمية الثانية ، مضت تركز على استغلال العاطفة الدينية والوطنية عند أبناء بلادنا الطيبة ، وتعلم المصريون ألا يتعلموا من الإنجليز لكونهم أولاً محتلين ، وثانياً كفرة ...

كما أن مصر لم تشارك فى الحرب العالمية الثانية برغم هجوم. الطليان علينا واحتلال ساحلنا الشمالى الغربى ، ثم الألمان الذين كانوا على بعد خطوات من الإسكندرية، ثم قامت السلطات بطرد البعثة العسكرية التى كانت مهمتها تدريب الجيش (نعم، والسيطرة عليه ، لن ننكر ذلك ، فقط هذا ما دأبت عليه قياداتنا السياسية المتخلفة، نحن نرفض كذا ونرفض كيت ، الخصام والقطيعة ...)

وهكــذا فوتــنا على أنفسنا تلك الفرصة النادرة فى بناء عسكرية جديدة حديثة، بخلاف الهند مثلاً التى حاربت مع الحلفاء دفاعاً عن الديموقراطية التى اختارها زعماؤها نظاماً لبلادهم المستقلة .

لا أحــد يستطيع أن يزعم أن الحرب شىء مرغوب، لعنها الله ألــف لعنة، فهى "ما علمتم وذقتمو" كما قال زهير فى معلقته،فقط هــذه إحدى المعادلات الصعبة فى هذه الحياة، وقد قيل إن الشدائد تصــنع الــرجال، وقديماً قال الفيلسوف الإغريقى هيرقليطس أن الحرب هى أم الرجال، وأنها تجعل الأقوياء سادة والضعفاء عبيداً، وهــذه ــ عنده ، كما عند فلاسفة الفاشية ــ هى العدالة بعينها. لا أحــد يقول بذلك، فقط مواجهة الأزمات على مستوى المجتمع هى الســبيل الوحيد لبناء القدرة على مواجهة ما يخبئه المستقبل منها، صــحيح أن المناورات الجيدة التخطيط والتدريب الذكى واستخدام وســائل المحاكاة simulation يحققان قدراً كبيراً من هذه القدرة، فقط هناك فارق هائل بين إحساس الفرد ــ والقادة بصفة خاصة ــ بــأن قراراتهم الخاطئة سوف تؤدى إلى رسوب فى الامتحان، أو أنها قد تؤدى إلى هلاك الألوف من أبناء بلادهم (سنرى كيف أن بعــض القــادة لا تشغلهم هذه المسألة بل أحياناً يريدونها من أجل سلامتهم هم). ولا شك أن مناورات النجم الساطع التى تشارك فيها القــوات المصرية قد جاءت بصفحة جديدة تماماً فى تاريخها مما وضح أثناء مشاركتها فى حرب تحرير الكويت .

يرى المؤرخون العسكريون الأمريكيون أن الحرب، والأزمات بأنواعهــا مع المكسيك (١٨٤٦ - ١٨٤٨) التى خاضتها الولايات المتحدة ضد ذلك البلد كانت هى التى أفرخت القادة العظماء الذين خاضــوا الحــرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ - ١٨٦٥)، ومنهم الجنرالات يوليسيز جرانت، ووليم شيرمان، الشماليان، وقائد قوات الجــنوب روبــرت لى، وكذلك كانت الحرب العظمى (١٩١٤ - ١٩١٨) هى المدرسة التى تخرج فيها عظمــاء الجنــرالات فــى

الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) .

لكل شيء قبيح ميزة أو أخرى إذن، والحرب ليست استثناء من هذه القاعدة، بل إن السيطرة الأجنبية ليست هي أيضاً استثناء من ذلـك، وقـد كانـت الحركات الوطنية المصرية منذ أوائل القرن العشـرين والـتي تـزعمها مصطفى كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلـول ومن خلفوه في زعامة الوفد والأحزاب الأخرى المنبثقة عنه وغيرها، كانت هذه الحركات تحض الشعب بكل طوائفه على طـرد المسـتعمر تحت شعار الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ولكنها لا تحاول أن تسبر غور هذا المستعمر وتعرف أسرار قوته ثم، وهو الأهم ــ أن تكتسب هذه القوة ، وقديماً قيل "من عرف لغة قـوم أمن شرهم" ، وهكذا فاتت علينا فرصة بناء قوة قتالية حديثة عـن طـريق أداء ولو دور متواضع في الحرب العالمية بل كان محظـوراً على المصريين أن يتطوعوا كأفراد في قوات الحلفاء، وكمـا سبق ، كان لدينا ما يدعونا لذلك فقد احتلت رقعة كبيرة من أرضـنا بواسـطة قـوات المحور ، وكانت معارك الدبابات في الصحراء الغربية فرصة لا مثيل لها لإتقان هذا الفن ولكن شعارنا كان أن هذه حرب "لا ناقة لنا فيها ولا جمل" ، ولن يفوتنا هنا قبل أن نمضـي في حديثنا أن نذكر أن معركة المدرعات التي خاضها الجـيش المصري في سيناء سنة ١٩٧٣، هذه المعركة ــ كما هو مذكور في العديد من المؤلفات التي كتبت عنها ــ واحدة من أعظم معـارك المدرعـات فـي تـاريخ الحـروب، وقد بلغت خسائر الإسرائيليين في الثلاثة أيام الأولى أربعمائة دبابة، وأنا هنا أنقل من مذكـرات كسـينجر الـذي يـنقل بـدوره عن الملحق العسكري الإسـرائيلي الذي رجاه أن تعمل أمريكا على إنقاذ إسرائيل وأيضاً ألا يترك هذه المعلومات تتسرب، وبقية القصة معروف، فقد تلقت إسرائيل أعظم وأضخم جسر جوي لنقل المدرعات رأته الدنيا في تاريخهـا . لا عجـب، فقـد كان جنرالات مصر قد عادوا قادة

عسكريين وليس مجرد فرق من الانتهازيين المتهافتين على الوظائف والمراكز فى المصالح والوزارات، وسوف نعود لهذه المسألة البالغة الأهمية فى حاضرنا ومستقبلنا.

ثم فى سنتى ١٩٥٣، ١٩٥٤، استعانت مصر بالخبراء الألمان كما هو معروف، وأنا واحد من الذين عاصروهم ، وعاصروا الروس من بعدهم. ووقف الاستعمارى العتيد ونستون تشرشل يندد بهؤلاء الألمان ويتعهد بأن يطلب من كونراد أديناور مستشار حكومة ألمانيا الغربية إذ ذاك أن يعمل على سحبهم من مصر لكى لا تتحول إلى مصدر للخطر ، لم يكن هناك داع لأن يقلق تشرشل على مصالح الأسد الجريح ، فالألمان ــ مع إقرارنا بكفاءتهم الحربية التى ليس لها ، وربما لن يكون لها، نظير ــ كانوا وهم عندنا. كما يقول المتنبى: "أنى ... بما أنا باك منه محسود"، فهؤلاء كانوا ضباطاً و"كان" فعل ماض ، ولا قيمة لقائد عسكرى لا يقود شيئاً ولا ينتمى لجيش له كيان وله وجود ولمعاهد عسكرية فيها قلوب تنبض ، كان الخبراء الألمان مجرد "أفندية" يحضرون الطوابير، هذا ينط بالمظلة وذاك يعمل لحساب شركة تنتج القوارب أو الطلمبات ، على أى حال كان عصر الخبراء الألمان مجرد واحدة من المغامرات الكثيرة المتتابعة ، كما أن هذه الحقبة من تاريخ الحركة المباركة كانت هى التى كانت أسلحة الجيش تتصارع فيها من أجل غنائم الثورة وقصورها ومجوهراتها وسلطاتها وامتيازاتها ؛ وكانت قواتنا من المدفعية والمدرعات تستخدم تكتيكاتها فى محاصرة "الميس الأخضر" و"الصاغ الأحمر" وغير ذلك من ألوان الطيف ، وأذكر أننى كنت أحادث ضابطاً من القلاثل الذين كانوا إذ ذاك يرون فى أنفسهم شيئاً يمتد إلى ما وراء الانتهازية التى كانت هى "العقيدة العسكرية" السائدة إذ ذاك ، وسألته : ماذا لو انتهز الإسرائيليون هذه الفرصة ليهاجمونا وقواتنا منهمكة فى معارك العباسية وكوبرى القبة؟ ولن أنسى ما قاله لى :

ولمـــاذا يتعـــبون أنفسهم ؟ لن يفعلوا بنا واحداً من مائة مما نفعله بأنفسنا! وهل كانوا يحلمون بأن تتحول أفرع القوات المسلحة إلى أحـــزاب وجماعات سياسية تقتتل من أجل المناصب والسلطات ، ويقـــف ضباطها خطباء على المنابر يحتجون على أنهم لا نصيب لهم فيما يجرى ، متظاهرين بالغيرة على البلد... الخ ، قد وضعت مؤلفـــات حول ذلك تجعلنا لسنا فى حاجة إلى الإشارة إليها ، فقط نحـــن لا نـــتحدث الآن عـــن الموضـــوع ككل، بل عن أثر هذا الموضوع على المدرسة العسكرية وكفاءة قياداتها . ودار نفس هذا الحديـــث أيام حرب اليمن وقال لى نفس هذا الضابط الجاد : "إننى أتخـــيل أحـــياناً منظرهم وهم يتضاحكون، (يقصد الإسرائيليين) ، ويتعجـــبون مـــن أين جاءهم هذا النعيم ! ما عليهم إلا أن يتفرجوا علينا ونحن نفرش أرضنا بالبساط الأحمر ليسيروا فوقه ! "

جاءت المغامرة الروسية بعد مغامرة القاهر والظافر والناصر والخاســـر، كـــان الاتحاد السوفيتى يفاخر الدنيا هو أيضاً بأن لديه "أكـــبر قوة ضاربة"، فقط هذه كانت رءوساً نووية ... وكان العالم الغربى لا ينام الليل منها ، فقط نحن كنا خارج هذه اللعبة ، والذى لم تكن نعرفه أن القوة العسكرية التقليدية لدى الروس كان متخلفة ولا تصـــلح للقـــتال الضارى هى أيضاً . وقد اعتمد الروس منذ نابليون على "الجنرال البرد" الذى أهلك الفرنسيين ثم الألمان، كما أن جيشهم موبوء هو أيضاً بالسياسة ، صحيح أن الحزب لا يستمد زعمـــاءه من العساكر، ولكن العكس صحيح ، الجيش يستمد قادته مـــن الحـــزب، فى كل وحدة يقبع من يسمونه "قوميسار"، مندوب الحـــزب الـــذى مهمته أن يتأكد من أن الجيش يتدرب على مبادئ الحزب كما أن كل شيء من حكايات الأطفال إلى موسيقى خاتشا دوريان يجب أن يأتى تعبيراً عنها ، نحن أنفسنا كنا قد بدأت أبواقنا تـــتحدث عن "النقاء الثورى" و"الطهارة الثورية" ، ولعلنا نذكر أن الجـــنرال الســـوفيتى الشهير "زوكوف"، بطل معركة برلين، عين

وزيـــراً للدفـــاع أيام خروشوف، و كان "صديقاً" لأيزنهاور ولهما صور مشتركة فى شوارع برلين بعد استسلام ألمانيا ، ثم ما لبث زوكوف أن أقيل من منصبه ونسب إليه خروشوف أنه "أهمل تعليم الجـيش مبادئ الحزب" . نفس هذه المناظر رأيناها فى جيشنا بعد هـزيمة ١٩٦٧ التى رأى فيها الروس "وصلنا خلاص !" وجاءوا بـالآلاف مـن "الخبراء" ينتشرون فى كل القيادات لغاية مستوى الوحـدة، وظهـرت كفـاءاتهم فى مناسبات عديدة بعد ذلك ، من المعارك الجوية مع الإسرائيليين فى سماء القاهرة ، حيث تساقطت طائراتهم كالذباب ، إلى معاركهم البرية فى أفغانستان ثم دويلات القوقـاز، حيـث كـانوا يبيعون أسلحتهم لأعدائهم من أجل وجبة مشـبعة . لـيس هذا تعريضاً بالروس كشعب ، فهم قوم جادون مكـافحون ، فقط لكل شيء أصوله، مندوب الحزب هذا هو "أهل الثقة" الذين عرفناهم ، مجرد عواطلى "لا منه ولا كفاية شره" كما يقـول التعبير الدارج ، وعندما نأتى إلى التشكيلات العسكرية فإنه يصـبح كارثة . خذ هذه مثلاً، عندما قامت الحركة المباركة (لن أنسى هذه أيضاً، من إبداعات المصريين، كانوا يتندرون بأن تلميذاً فى المدرسة طلب منه أن يصف الثعلب فى جملة، فقال إنه حيوان سريع الحركة... المباركة!) عين فى منصب رئيس الأركان ضابط كبـير كان يشغل منصباً يسمى كبير المعلمين فى الكلية الحربية، وهـو مـا يجعله أستاذاً لأجيال من الضباط، وكان رجلاً عسكرياً مـرموقاً ومحترماً ومحبوباً. كيف يؤدى عمله ويتحمل مسؤولياته وفوقـه ضابط يصغره بأربع رتب رقى مرة واحدة وجعلوه قائداً عاماً، غضب أول الأمر ثم سكت على مضض. وتحته أيضاً قائد لسـلاح الفرسـان، يصغره برتبتين حقاً، ولكنه ... عضو مجلس قـيادة الـثورة؟ تأمل هذا الساندوتش العجيب، أى عسكرية هذه ؟ ومـن نوادر هذا الأخير أنه ــ وهو قائد الفرسان وعضو مجلس قـيادة الثورة ــ استغل نفوذه فى أن يلتحق بكلية أركان الحرب ،

وهـو ما لا يتأتى إلا باجتياز امتحان عسير يتسابق فيه الضباط ، وعـندما يـنجحون فإنهم يدرسون فترة تزيد على سنة ليصبحوا خـبراء حربيين ثم قادة بعد ذلك إذا اختيروا لذلك . ما الذى كان يريده صاحبنا من وراء ذلك ؟ مجرد تعليق "العلامة الحمراء" كما تسـمى . نفس هذا العضو الأمثل فى مجلس الثورة رأيته يتحدث فـى التليفزيون أثناء سنة ١٩٩٩ ، وكان يتفاخر بشىء ، بعد أن تجـاوز الثمانيـن، أتدرى بماذا ؟ بأنه رفض أن يمشى فى جنازة السادات ! نتجاوز كل هذا بسرعة ونصل إلى حرب أكتوبر . كنت أستمع إلى الإذاعة فى اليوم الثالث لتلك الحرب على ما أذكر، كان المـتحدث الصـحفى الأمريكى الشهير آرنو دى بورجراف، كان يقول أنه قام بتغطية صحافية للعديد من المعارك الحربية من قبل ، وأن الحـرب عـادة تتسم بدرجة أو أخرى من الهرج والمرج ، بطبيعتها ، أما هذه ــ وكان يتحدث من موقع لقوة مصرية ــ فقد أذهلته بما تتسم به من الدقة والنظام فى تحركات القوات المصرية وأدائها. لا عجب ، فقد كان القادة من نوع أحمد إسماعيل ومحمد علـى فهمى (رحمهما الله) وحسنى مبارك (أطال الله عمره) كانوا مـن فـئة الجنرال المحترف، وعندما أصبح مبارك نائباً لرئيس الجمهورية ثم رئيساً، كان ذلك بفضل أدائه وفدائيته، وليس نتيجة لخطبة عصماء أو زعامة انتهازية . إن المنصب جاءه يجر أذياله كما قال أبو العتاهية، لم يكن يسعى إليه أو حتى يفكر فيه. الجنرال قـد تكـون له طموحات سياسية، لا بأس بذلك أبداً ، ولكن البدلة والسياسة لا يجتمعان ، ليس هناك جديد فى هذا...

وأرجو أن يغفر لى القارئ أن أتوسع فى ضرب الأمثلة وأنتقل إلـى الجانـب الآخـر من حدودنا ، فهؤلاء هم العسكريون الذين خبرناهم وحاربناهم على أى حال . سنلحظ أن جنرالات إسرائيل الذين أظهروا غاية الإخلاص لبلدهم ، والذين بذلوا غاية الشجاعة والكفـاءة ، كـانوا هـم الذين يريدون إقرار السلام : وايزمان ،

رابين، باراك... أما الثيران من أمثال شارون (جنرال بلطجى) ، والبغال من أمثال ناتانياهو (وهو ليس عسكرياً كما نعرف) فإنهم يظنون أن الفتونة والمهيصة تغنى عن إعمال الحكمة والفكر ، إنهم لغرورهم وحماقتهم كما كان الحال عند فتوات مصر – يظنون أنهم وحدهم فى هذا العالم فتفوتهم حقائقه .

كان اغتيال رابين فى إسرائيل هو نظير اغتيال السادات فى مصر، وكان فى كلتا الحالتين عملاً فاشلاً ، لأن الفرد هالك على أية حال، أما الأفكار فهى قادرة على البقاء فى عقول الآخرين.

مستقبل القوات المسلحة :

تتميز الحقبة التى نعيشها الآن بما يبدو أنه تطور هائل فى دور القوات المسلحة أو فارق كبير بين دورها طوال ثلاثة أرباع القرن العشرين، والربع الأخير من هذا القرن أو ربما نقول "ذلك القرن"، باعتبار أنه قد انقضى .

شهدنا ــ أو شهد العجائز منا، مثلى أنا وأبناء جيلى ــ حربين عظيمتين فى القرن العشرين. كانت الأولى صراعاً بين أباطرة أوربا، يأتى من أطماعهم فى بقية أنحاء العالم، كانت أوربا قد قطعت شوطاً فى التقدم يجعلها لا ترى فى آسيا وإفريقيا سوى موارد مادية وبشرية يحق لها أن تستمد منها ما تشاء من أجل إنتاجها ورفاهيتها ، ومن هنا جاءت حرب البوير مثلاً قبل ذلك، ثم وصل الصراع على هذه الغنيمة الكبرى إلى أقصاه فى الحرب العالمية الأولى. ويرى الكثيرون أن الحرب الثانية لم تكن سوى نتيجة للأولى ولما أدت إليه من إذلال لواحدة من أعظم وأقوى الأمم فى العالم وهى ألمانيا ، التى أصر شعبها على الانتقام . إن كان هذا صحيحاً فبدرجة أو أخرى، لأنه لا يفوتنا أن نلحظ أن ألمانيا كانت قد تحولت من نظام إمبراطورى ــ بعد سقوط

الإمـــبراطور غليوم بعد الحرب وبسببها . كما سقط قيصر روسيا ولـــنفس الأســـباب ـــ إلى نظام فاشى كانت بذوره قد أنبتت نظاماً ممـــاثلاً فـــى إيطاليا وإسبانيا ، بل إن إسبانيا كانت قد دارت فيها الحـــرب بيـــن هـــذه الفلســـفات الجديـــدة فـــى الحياة والحكم ـــ الديموقراطـــية والشـــيوعية والفاشـــية ـــ وهذه الحرب كانت هى "الـــبروفة" للحـــرب العالمـــية الثانية وبقية القصة معروف . هذه الحـــرب العالمية إذن لم تكن مجرد استمرار للصراع على الغنائم وعلـــى القـــارات والشـــعوب المتاحة للاستعمار، بل كانت أيضاً صـــراعاً أو صـــداماً بيـــن الأيديولوجـــيات والعقـــائد السياسية الاجتماعـــية. الواقـــع أن ألمانـــيا كانـــت قد كفت عن التفكير فى اســـتعمار بلدان إفريقيا، بل إن الحرب العالمية الثانية كانت مسلكاً تاريخـــياً نحو إنهاء الاستعمار القديم وسقوط مؤسساته البريطانية والفرنســـية والهولـــندية والبلجيكية والبرتغالية والإسبانية كل هذا أصـــبح "موضـــة قديمة" بفعل التطور المستمر فى مفاهيم الحياة وأســـاليبها : وبفعـــل ظهـــور أمريكا كقوة عظمي وسيادة عقليتها "الأعمالـــية" أو "الـــتجارية" أو "البيزنســـية"، كائناً ما كان التعبير المفضـــل لـــدى القارئ. صاحب هذا أيضاً تطور هائل فى علوم وتكنولوجـــيا الفضاء والمعلومات جعل الوجود العسكرى أمراً لا ضرورة له للسيطرة على دنيا المستعمرات أو على العالم الثالث أو المتخلف أو"الاخذ فى التطور" كما يسمونه هم ، بصرف النظر عن مـــدى دقـــة هـــذا التعبير. كان الإنجليز ينشرون فى أنحاء العالم الملايين من أبنائهم على هيئة جيوش برية و أسطول يجوب أنحاء العالم من أجل السيطرة عليه وعلى موارده، لم تعد هناك ضرورة لذلك ولم يعد هناك فائض بشرى لدى الدول المسيطرة يمكنها من ذلك، كما أن فكرة "التدخل السريع" أصبحت منطقية جداً مع تطور وســـائل الـــنقل الجوى ـــ وربما الفضائى فى المستقبل القريب ـــ والحالات واضحة ومتمثلة أمامنا : العراق ويوغوسلافيا وتيمور .

كما أنه في هذه الحالات الثلاث لم تكن القوى العسكرية هي جيوش دولة استعمارية أو أخرى بل قوات تتحالف تحت راية الأمم المتحدة وتعمل تحت غطاء قانوني ـ إلى جانب غطائها التكنوفضائي يستمد من أحقية المنظمة الدولية ومن عضوية دول العالم كلها فيها، ومن لا يرغب في هذه العضوية لن يكون هذا طريقة إلى الحرية وإلى النجاة من السيطرة العالمية ـ كما هو في هذه الحالة الفريدة، سويسرا ـ بل إنه سيضعه في موضع المجرم الذي يحق للرابطة أن تضبطه بدون حتى إذن من النيابة .

هناك إذن عاملان أساسيان في تطور الجيوش من حيث دورها في حياة الأمم . الأول تكنولوجي، ويأتي من حقيقة أنه لا أمل في أن تنفرد أية دولة بعمل عسكري، كما في حالة العراق، أو حتى شبه عسكري، كما في حالة يوغوسلافيا، وإلا فالتأديب بالخرزانة أو حتى النبوت سيكون كفيلاً بإعادتها إلى الطاعة كالمرأة الناشز، والنبوت ليس متاحاً لأحد سوى هذه القوة العالمية الهائلة التي تأتي من الولايات المتحدة الأمريكية ومعها الولايات المتحدة الأوربية (وقد كان تأديب يوغوسلافيا راجعاً إلى عوامل متعددة ، ولكن على رأسها أنها عقبة في سبيل هذا الاتحاد الجديد الذي أصبح محتوماً بعد دمار الفاشية والشيوعية واستحالة عودة ألمانيا وروسيا إلى الحياة بدون معاونة أمريكا)، أما العامل الثاني في تطور دور القوات المسلحة فهو هذا نفسه، النظام العالمي الجديد الذي يجعلها لا تستطيع أن تعمل إلا تحت هذه المظلة، مظلة الناتو أو ما قد يحل محله في المستقبل . والنظام الغربي الحديث ـ الذي هو توليفة من الديموقراطية التعددية والرأسمالية الخاضعة لضوابط قوانين العمل وغيرها من التشريعات التي تعمل علي تهذيبها وحماية الناس من طغيانها ـ هذا النظام يتضمن أيضاً خضوع القوات المسلحة لقيادة مدنية هي سلطة الدولة، أما القيادة العسكرية التي تشارك في رسم سياسة الدولة أو ممارسة الحكم فهو أمر

بغيض عند العقلية الغربية الجديدة لأنه ينتمى للفاشية الأولى (أستعير التعبير سن الكتاب الكريم ، الجاهلية الأولى)، حتى ولو كان هذا طبقاً لدستور ينص على دور للجيش فى إدارة الحكم، كما فى تركيا ، وهو واحد من الأسباب الكثيرة التى تجعل الأوربين لا يرون تلك الدولة جديرة بعضوية الاتحاد الأوربى، مهما اشتركت فى مناورات مع إسرائيل ! والواقع أننى لست أرى كيف سيمكن قبولها فيه . ولكن القوات المسلحة التركية تظل واحدة من أذرع حلف شمال الأطلنطى وواحداً من الأمثلة التى توضح ما نتحدث فيه الآن ، فتركيا ليست حرة فى استخدام جيشها فى أية أهداف تريدها تلك الدولة ــ كملاحقة الأكراد فى شمال العراق أو تهديد سوريا بالحشود على حدودها ــ لا تستطيع ذلك إلا بالتنسيق مع قيادة "النظام العالمى" كما يسمى، سواء كان ذلك خافياً أو معلناً. وعندما يتوسط رئيس مصر ــ مشكوراً طبعاً ــ لنزع فتيل الأزمة بين تركيا وسوريا وينجح فى ذلك ، فإن هذا لا يعنى أن النظام العالمى متمثلاً فى الاتحادين الأمريكى والأوربى كان سيقف موقف المتفرج لو أن تركيا هاجمت سوريا ، وهى لم تكن ستجرؤ على ذلك بدون ضوء أخضر" .

قبل أن ننتهى من هذه النقطة علينا أن نذكر دور مصر فى الحملة التأديبية ضد العراق ، أو فى حرب تحرير الكويت كما تسمى. هذا الدور، ومن قبله حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتى حظيت فيها مصر بتقدير النظام العالمى الذى كان يوشك على الظهور، برغم الإسراع إلى نجدة إسرائيل لأنه ليس مسموحاً على الإطلاق بإلحاق الضرر بها كمجتمع وكدولة، هذان الحدثان يمثلان تطوراً هائلاً فى العسكرية المصرية وبداية جديدة لقواتها المسلحة تتفق مع عضوية مصر فى المؤسسة العالمية ونهاية لدورها كدولة ناشز أو مارقة Pariah state كما تسمى ، وهو الدور المؤسف الذى لعبته فى الماضى القريب ودفعت له ثمناً باهظاً من كيانها

وتاريخهـــا وحضـــارتها وقيمتها وكرامتها . وهكذا فإن العسكرية المصرية تتخذ طريقها نحو بناء جيش متطور وعلى درجة عالية مـــن الكفاءة ، فقط هذه الكفاءة يستمدها هذا الجيش ، كما فى كل جـــيوش الـــدول المنتمـــية للنظام الجديد ــ من عضويته فى هذا النظام. وهو ــ بكل تأكيد ــ الطريق الوحيد نحو هذه الغاية .

إلا أنـــنى ــ كمجرد مواطن ــ أتمنى أن تتبنى قواتنا المسلحة فـــى المســـتقبل على الاحتياجات الفعلية للدولة المصرية والشعب المصـــرى ، بعبارة أخرى على قضية الإنسان المصرى ــ أنا لا أرى أن قضـــيتى أو قضـــية المواطـــن فى بلدى هى إنشاء جيش مهمـــته حمايـــة مكاسب الشعب ، فهذه الحماية هى مهمة القانون وهـــى المهمـــة التى من أجلها تقوم السلطة وإلا فلا داعى لها ولا حاجة بالشعب إلى احتمال تكلفتها . هذا إن وجدت هذه المصائب، أقصـــد المكاســـب . كمـــا أن هذا المواطن ليست مهمته محاربة الاســـتعمار لمجـــرد أن زعيماً أفاقاً أو آخر يريد أن يخدعه بهذا الشـــعار، قضيتنا هى أن نحصل على الحد الأدنى من الاحتياجات الأساسية للإنسان فى هذا العصر قبل أن نفكر فى الصراع مع كل كيان آخر، لأن هذا الصراع فى مصلحة دكتاتور جاهل أو آخر...

إن هـــزيمة ١٩٦٧ لـــم تكن حتى هزيمة ، إنها ناشئة عن عدم إدراك كـــل مـــن القيادة السياسية والقيادة العسكرية لماهية القوات المســـلحة ولا لرسالتها ، وهم على كل حال خريجو جيش ما قبل ١٩٥٢ الـــذى وصفوه هم بأنه جيش المحمل ، أما جيشهم هم فإن انعـــدام ثقافـــتهم وتهافتهم على الغنيمة يحول دون إدراكهم للمهمة الحقيقية للقائد العسكرى ولمكوناته الشخصية والمهنية ، القائد الذى يضـــطلع بمهمة مثل كمشيش لا يصلح لأن يحارب إلا فى جبهة مـــثل هـــذه ، كل ما سمعناه عن وحشية النازى مثلاً كان يرتكب بواسطة الجستابو، وليس الجنرال العسكرى الذى يعد نفسه أنموذجاً للفروسية والشهامة والثقافة الرفيعة . وكان الإعدام عقوبة الجندى

الألمــانى إذا اعــتدى علــى امــرأة فى المناطق المحتلة ، وكان الجنرالات يحتقرون الجستابو ويترفعون عن مخالطتهم .

ســوف تظــل حرب أكتوبر درساً عظيماً لأبنائنا ولقادتنا فى مستقبل هذه الأمة، وسيكون قادتها هم المثل العليا لأجيالهم المقبلة.

يجــدر بــنا هــنا أن نضيف أن الجيوش لا تخوض الحرب، المجتمع بأسره هو الذى يحارب، والجيش هو الأداة التى يستخدمها فــى ذلــك، مــن حق القائد العسكرى أن يشتغل بالسياسة، ولكن اشــتغاله بها وتحت يده قوات الميس الأخضر وفصائل البلطجية الرسميين، هذا لا يعد سياسة والجيش الذى يسمح به ليس جيشاً .

الحرب الحديثة

أنــا لن أمل من تكرار بث هذه الرسالة إليك لعلك تستطيع أن تفهمها ، أنت ستخرج من كوسوفو ، وأهلها سيعودون إلى بيوتهم.

تونى بلير ، رئيس وزراء بريطانيا

فـــى حديـــث مـــذاع، مخاطباً ميلوسوفيتش، الذى اعتمد على صـــعوبة الغزو البرى لكوسوفو لطبيعة أرضها، مما دفع الحلفاء إلى تدمير مرافق صربيا.

هـــناك نوعـــان من الحرب : الحرب النظامية، وفى هذه نجد القـــوى المتصارعة تستخدم الأسلحة الحديثة التى هى متاحة لها، وقد جاء القرن العشرون بالطائرات ثم بالصواريخ، وأثناء ماسمى بالحـــرب الباردة كان الاتحاد السوفيتى والدول المناصرة له تضع صـــواريخها علـــى منصات الإطلاق، محملة بالرءوس النووية، وعلى الجانب الآخر أوربا الغربية، ثم من وراء المحيط، الولايات المـــتحدة تفعـــل نفس الشيء . لم يحدث "تسخين" للحرب الباردة لحســـن حـــظ البشرية، وشاهدت جون كيندى فى مطلع الستينيات يلقى خطاباً يقال أنه كان واحداً من أسباب اغتياله، يقول حرفياً "إن تبادلاً للقذائف النووية، يستمر أقل من أربعين دقيقة، سيكون كافياً لإبـــادة أربعيـــن مليوناً من كل جانب"، بمعنى أنه يجب البدء فى محادثـــات نـــزع السلاح النووى، وفعلاً كان قد بدأ محادثاته بهذا الخصوص مع نيكيتا خروشوف بمشاركة هارولد ماكميلان رئيس وزراء بريطانيا . التكنولوجيا جعلت الاحتلال بالجيوش إجراء من

الــنوع "الــبلدى" ــ لم يعد له لزوم. ولذلك فإن الولايات المتحدة كانــت ــ ومــا تــزال ــ مستعدة لتلقى ضربة نووية مع وجود حكومتها وكل أجهزتها فى مخابئ تحت الأرض تمكنها من البقاء، ويرجع هذا لأيام أيزنهاوز. وقد حدث فى أوائل هذا القرن الجديد، بالــتحديد سنة ٢٠٠١، أن أدلى الرئيس اليمنى على عبدالله صالح بتصــريح قــال فيه : "اعطونى حدوداً مشتركة مع إسرائيل وأنا أريكم ما سأفعل" ــ كان واضحاً من هذا التصريح أنه يتحدث عن فــنون القــتال الســابقة للقــرن العشــرين متجاهلاً القوة الجوية والصاروخية البعيدة المدى، وأنه أيضاً يريد التعريض بالدول التى لهــا حــدود مشــتركة مع إسرائيل، وفى حالة الأردن تصل إلى خمسمائة كيلو متر، ولكنه بالطبع كان يقصد مصر كالمعتاد، وهى أيضــا حدود طويلة تمتد من رفح إلى طابا. وقد رد عليه الرئيس مــبارك ــ أطال الله عمره، قائلاً "تعال يا خويا ورينا شطارتك"، سكت الرئيس اليمنى وعلقت الصحافة المصرية بقولها إن الرئيس المصرى كان فقط يداعب "شقيقه"(تعبير عجيب درج عليه الإعلام العربى).

الــنوع الــثانى مــن الحــرب هو ما سمى قديماً باسم "حرب العصابات" ــ وهو تعبير يفتقر إلى الدقة . فى هذا النوع يتعرض الجــيش الــنظامى للهجمــات من جانب جماعات صغيرة ــ بل وأحياناً فرد واحد ، من نوع رامبو الذى شن حرب عصابات ضد حكومته فى عقر دارها بعد أن اكتسب مهارات قتالية أسطورية فى حــرب فيتنام، ومن الأمثلة الرائعة أيضاً الهجمات الانتحارية التى يشــنها الشباب الفلسطينى فى نطاق الانتفاضة، وإن كنت ــ على المستوى الاستراتيجى ــ أشعر بالأسى لهؤلاء الشباب وهم يدفعون حــياتهم ثمناً لأخطاء قادة وزعماء لا يستحقون هذه التضحية، ولا أظن أن أرواحهم تعنى عند هؤلاء شيئاً يختلف عن "عدة الشغل"، ومــنها خيال المآتة الذى يقف وراء واحد من اثنين يتشابهان فى

أمــور كثــيرة، أثناء رئاسة كل منهما لمجلس وزراء من مليون عضو، وأيضاً فى الرقم ١٧ الذى لابد له مغزى يغيب عن فطنتنا، أحدهمـــا جعله رقم محافظة الكويت، والثانى رقم القوة التى تتولى حراســته شخصياً !، .. من ماذا ؟ الجيش القوى إذن قد يجد نفسه فــى مـــأزق ممـــا يفعله المقاتلون الذين يتبعون طريقة "أضرب وأجرى" ــ أو، أضرب وأموت .

وقــد ذاق الألمـــان الأمريـــن على أيدى هؤلاء أثناء احتلالهم يوغوســـلافيا ، بجــيش جـــرار على مستوى من الكفاءة شاهدناه وعرفـــناه. وكذلك الأمريكان فى فيتنام ثم الإسرائيليون فى جنوب لبنان. فى جميع هذه الحالات كانت الأرض تصلح لهذا النوع من القــتال، الأفراد متفرقون فى مناطق جبلية أو أحراش كثة وكثيفة، مـــاذا يفعل الجيش النظامى بقنابله ولو كانت نووية؟ لابد أن ينزل قوات لمقاتلتهم وهذه ستكون معركة غير متكافئة، وحتى بعد مجئ الطائــرات المروحية، فى استطاعتهم اصطيادها من مخابئهم التى يصعب تحديد مواقعها .

الحـــل الوحـــيد أمام الجيش النظامى هو أن يرغم حكومة البلد الـــتى يحـــتلها علـــى أن تتعقبهم أو تقضى عليهم أو تسكتهم بأى وسيلة، وإلا فإن هذه الحكومة سوف تجد نفسها فى موقف لا تحسد علـــيه. وقـــد استخدم الأمريكان قوتهم فى فيتنام شمالها وجنوبها، ولكـــنهم وجـــدوا عقبتيـــن كبيرتين ، أولاهما أن العالم يستنكر ما يفعلونه وهم يتخذون وضع القيادة العالمية التى تعمل من أجل خير البشـــرية (أقول تتخذ هذا الوضع ، ولا أقول أنهم كذلك حتى ولو كانوا كذلك ، ومع اعتقادى بأنهم من بين القوى المهيمنة أفضل ما رآه تـــاريخ البشـــرية حـــتى الآن ، وسنأتى لذلك، فقط أرجو من القارئ شيئاً من طول البال و "ضبط النفس") أما العقبة الثانية فهى موقـــف الشـــعب الأمـــريكى نفسه متمثلاً فى الصحافة و "الميديا" وجماعـــات الضغط وآباء الجنود الذين يموتون فى الحرب . "ما

الـذى نحـن بسـبيله هناك ؟" ، هكذا تتساءل المعارضة ، كانت مظاهرات الطلبة تسير فى الشوارع وقد رفعت لافتات موجهة إلى الرئيس جونسون (الذى وصفه السادات بحق عندما قال وهو ذاهب للاجـتماع بالرئـيس جـيرالد فورد : "فورد ليس راعى بقر مثل جونسـون") ــ كانـت هذه اللافتات تقول فى عبارتين منسجمتين بقافـية بديعـة فى الإنجليزية، تضيع عند الترجمة طبعاً ، صباح الخير يا ل.ب.ج، ترى كم شاباً قتلتهم اليوم ؟

كـان هـذا هـو الطريق إلى الانسحاب من فيتنام بجهود من الرئيس نيكسون ووزير خارجيته كيسنجر . نفس الشيء تماماً فى لبـنان، مضـت فصائل حزب الله تنزل الخسائر البشرية بالجيش الإسرائيلى الذى لم تكن أمامه العقبة الأولى التى واجهها الأمريكان فـى فيتـنام ، ولكـن الثانية تتمثل تماماً فى إسرائيل وفى كل بلد يسـتطيع الـناس فيه أن يعترضوا على تصرفات الدولة دون أن تـتعرض بناتهم للاغتصاب فى السجن الحربى الذى يديره سفراء المسـتقبل . ولأنـه لـيس لديهـم العقبة الأولى فإنهم أعلنوا أنهم سـيقومون بتدمـير البنية التحتية فى لبنان لإرغام حكومتها على إسكات حزب الله ، كان هذا أثناء حكومة إيهود باراك، وفعلاً بدأوا يدمـرون محطات الكهرباء مما أدى إلى إظلام أحياء بأكملها فى بـيروت، ولو استمروا فى هذا لتحولت لبنان إلى بلدة فى العصر الحجـرى، ثم فجأة ، توقف القصف الجوى وأعلنت إسرائيل أنها ستنسحب مما سبق أن أسمته "الحزام الأمنى" فى جنوب لبنان، وأن هذا الانسحاب "من جانب واحد" لماذا ؟ لماذا سكتوا وانسحبوا ؟

لم يقل لنا أحد شيئاً عن هذا. هناك احتمالان لا ثالث لهما، إما أن ضمائرهم بدأت تعذبهم ، وهذا مستبعد تماماً.

وإمـا أن السفير الأمريكى طلب مقابلة باراك وقال له أن عنده رسالة من حكومته مفادها أن "حكومتى تريد أن توضح أنها تتحمل الكثـير مـن أموال دافعى الضرائب الأمريكيين لكى تبنى مرافق

لدول العالم الثالث، وهى ترى أن تدمير هذه المرافق معناه إضاعة ثمـــار هـــذه التضحيات " هنا وجد باراك أنه لن يستطيع أن يقنع الناخـــب الإسرائيلى بأن يتحمل خسارة أبنائه فى معارك المقاومة اللبنانية .

للقـــارئ أن يفضل أياً من هذين الافتراضين، كلاهما أمر من الآخر، أليس كذلك ؟

أمريكا وإسرائيل :

نحـــن لا نقول بأن أمريكا تضغط الزر فينصاع الإسرائيليون . فقـــط لـــم نكن نحلم ونحن نراهم ينسحبون من سيناء وغزة سنة ١٩٥٦، ثم يقتلعون مستعمرة ياميت وغيرها من سيناء سنة ١٩٨١ بعـــد أن سكنوها وبنوا حياتهم فيها ثمانى سنوات، ثم مسحوها من على الأرض . وقد حاول المستوطنون أن يقاوموا جهود الإجلاء ، فحكومـــتهم هـــى التى جاءت بهم وشجعتهم على الإقامة وجعلتهم يشـــتغلون بمهـــن مســـتمدة من البيئة المحيطة، كالصيد والسياحة والتعدين، وطبعاً نزح ثروات المنطقة من معادن وبترول وفاكهة .. إلخ . (حرب استنزاف حقيقية هذه !) أخرجوهم بالقوة ، ورأيت لهم صوراً وبعضهم مكبل بالسلاسل بل وداخل أقفاص من الحديد. يقـــول أنصار المقاطعة الأبدية أن اليهود يسعون إلى تحقيق أحلام الـــتوراة فـــى وطـــن إسرائيلى يمتد "من نهر مصر .. إلى النهر العظـــيم، نهر الفرات" ــ لقد احتلوا أراضى مصرية سنة ١٩٤٩ وجلـــوا عـــنها نتيجة لمحادثات رودس التى أدت إلى الهدنة التى امتدت إلى أن احتلوا سيناء سنة ١٩٥٦ ــ حرب السويس ــ كما نعـــرف، وانسحبوا منها ، ثم احتلوا سيناء كلها سنة ١٩٦٧ وكنت تراهم من أى موقع فى الضفة الغربية، وبقوا فيها لغاية قيام حرب ١٩٧٣، حيث قامت قواتنا بعملية بهرت أنظار العالم، وذاقوا فيها

مرارة الاستسلام لقواتنا من مواقع فى القنطرة والشط ، فى الشط بالذات جرت مراسم الاستسلام ورفع العلم المصرى بعد إنزال علم إســرائيل ، وظهــر فــى البيان العسكرى أننا كنا نستطيع إبادتهم ولكننا فضلنا السلوك الحضارى .

بــدأ الجســر الجوى بعد ذلك ، وكانت الأقمار الصناعيــة قد بدأت تلعب دورها الهائل فى التصوير والتقاط المعلومات ــ وهو التطور الذى يحقق نوعاً من السيادة المعلوماتية للقوى العظمى لم يســبق لـــه مثيل ، ولا شك أن الإسرائيليين تلقوا من حلفائهم ما مكنهم من التسلل الذى أطلق عليه اسم "الثغرة" ــ طبيعى جداً هذا، فقد كان الأمريكان يريدون أن يقتلعوا النفوذ السوفيتى من المنطقة وخصوصــاً مصر، حيث يصل إلى أقصاه، وعبروا بكل وضوح وصــراحة عن رغبتهم هذه ، ولكنهم ــ طبعاً ــ لن يسمحوا بأن تصل هزيمة إسرائيل إلى أبعد مما هو ضرورى لكبح المغرورين والمتشددين من قادتها .

وهــذا هو ما جعل الرئيس السادات فى واحدة من خطبه التالية لتلك الأحداث ، يقول "أنا مش حاحارب أمريكا" ــ وهذا أيضاً ما جعله ــ بحكمة يحمد عليها ، ويذم طبعاً من "إياهم" ــ يبث رسالته فــى أول الحــرب لــيقول للعالم أنه يريد أن يسترد أرض مصر المحــتلة، لا أكثر . وقد فعل ، قام فعلاً باستردادها وإزالة كل ما عليها من مستوطنات . حقاً ، يالها من خيانة .. عقبال الحبايب . من حسن حظ الفلسطينيين أنهم لن يتعرضوا لخيانة كهذه . لو أن اليهود يحلمون بوطن يمتد إلى ضفاف النيل ؛ ولو أنهم يفعلون ما يــريدونه ، فلمـــاذا انســحبوا بعد أن احتلوا الضفة الغربية لقناة السويس ، بل وقاموا بإزالة جميع حقول الألغام التى زرعوها فى عملية الثغرة ، وهو بند فى الاتفاقية أصر عليه الخائن ، حقاً ، إلى أى حد فقدنا الرشد وأصبحنا لا نعرف الليل من النهار.

هل لابد لدولة مثلنا من جيش حديث تستطيع بـــه أن تفــرض

إرادتها بالقوة ؟

وهل هذا ممكن ؟ وهل هذه هى قضية الإنسان المصرى ؟

هل هذا حاصل فى أى دولة أخرى من دول العالم الثالث ؟

خـذ تركـيا مـثلاً. كانت عصابة من العسكر تحكم اليونان، وكالمعـتاد فى حالات الحكم العسكرى، لابد من دخول الحرب ثم تلقـى الهـزيمة فيها. كانت مغامرة يوانيدس وبابا دوبولوس هى قـبرص، ما أن شرعوا فى ذلك وأسقطوا الأسقف مكاريوس حتى تدخلـت تركـيا بقواتها وفرضت الواقع الذى ما زال يسود حتى الآن، أكـثر مـن ربع قرن. تظاهرت أمريكا بأنها تعترض على اسـتخدام أسـلحة حلف الأطلنطى فى مسألة "شخصية"، وأعلنت فـرض الحظـر علـى تركيا، ولكن من الواضح أن تركيا تلقت الضوء الأخضر منها لأن أمريكا لا تهوى الأنظمة العسكرية أو لم تعـد تهواهـا بعـد أن ثبت لها فشل هذا الأسلوب الأحمق. طبعاً سـقطت العصـابة فـى الحـال، تماماً كما حدث فى حالة جزر فوكلانـد، الجنرال جالتييرى هو أيضاً "اختشى" بعد النكسة، لكن اللى اختشوا ماتوا .

توجـد فى جميع بلدان البلقان أقليات تركية تعانى الاضطهاد ، فـى بلغاريـا يـرغمونهم على تغيير أسمائهم ونسيان لغتهم ، لا تسـتطيع تركيا أن تقدم على شيء هنا، كما لم تستطع أن تتحرك فى موضوع البوسنة ثم فى كوسوفا.

قد تكون هناك حالة نادرة فى موضوع الهند . قامت حرب بين الهند وباكستان فى أواخر الستينيات وحطم كل منهما قدرة الآخر ، ثم فى مطلع السبعينيات شنت أنديرا هجومها على باكستان بعد أن أدت سياسـتها البهيمية إلى مذابح واسعة النطاق ونزوح الملايين إلـى الأراضـى الهـندية . كسبت الهند تلك الحرب وانشطرت باكستان إلى قسمين .

لكى تكون لدينا قوة حربية نستطيع أن نهزم بها إسرائيل لابد من:

(١) الارتفـــاع إلى مستواها كدولة فى العالم الأول ، من حيث نوعـــية المعيشـــة والتعليم والصحة والرضا عن الحياة والاقتناع بضرورة القتال .

(٢) أوضاع عالمية تمكن من ذلك .

لا يـــبدو هـــذا محـــتملاً . كما أننى لا أراه ضرورياً ، وأظن أن الـــتعايش مع الأوضاع العالمية ومع الهيمنة الدولية.. ليس ممكناً فحسب ، بل هو ضرورى . مشكلة الشعب الفلسطينى مؤلمة طبعاً، إلا أنـــنى لست أجد فى ذاكرتى ولا فى المراجع التاريخية، أن هذا الشـــعب تلقى من جانبنا ولا من جانب غيرنا شيئاً سوى مضاعفة آلامه . وعندما نسعى إلى الخير نصبح خونة .

وإذا كان لى أن أبدى رأيى ، مجرد هذا ، فإننى أرى أن وجود الرئـــيس السابق كلينتون ـــ "قايم نايم" فى شرم الشيخ ومعه باراك الـــذى رهـــن مستقبله ومستقبل المعتدلين كلهم على تلك المحاولة الأخيرة ، كان فرصة لا يجوز أبداً أن ينطبق عليها ما قرأته مرة فى مجلة عالمية تصف العرب بأنهم "لا يضيعون فرصة لإضاعة فرصـــة" . كان واضحاً أن هذا سيعطى الحق لشارون أن يقول : انظـــروا ، لا فـــائدة مـــنهم ، ينهزمون ويريدون كل شىء . أنتم تضيعون وقتكم وطاقتكم فى محاولة التفاهم معهم !" لعنة الله عليه!

الآثار النفسانية لعصر عبد الناصر :

الأصل فى السلطة الحكومية أنها تقوم من أجل النظام العـــام . نحن البشر نتميز عن جميع الكائنات الأخرى بأن دوافعنا النفسانية مـــتعددة، لديـــنا غريزة، تماماً مثل القرود، ولكن لدينا أيضاً العقل الـــذى نفكر به، والذى نختزن فيه ثمار المعرفة والتجارب، وعن هـــذا الطـــريق نتطور ويتغير أسلوب حياتنا كل يوم، ولدينا أيضاً العاطفـــة، نحـــن نحـــس بعواطف طويلة المدى: الحب، الغيرة، والخـــوف ـــ ضع الغريزة مع العقل مع العاطفة تجد مثلث القوى

الذى يحكم تصرفات البشر سواء كانوا أفراداً أو جماعات. الإنسان بدوافعــه هذه قادر على درجات عالية جداً وسامية جداً من العمل الســوى ــ وأيضاً علي أن ينحط إلى مستويات مخيفة من الأذى والعــدوان، خصوصــا عــندما يجوع وتطغى غريزته على عقله وعاطفته ــ لما كان الإنسان كذلك فإنه لا يستطيع أن يعيش حياة تلقائــية كبقية المخلوقات، لابد من نظام يحكم الجماعات، الإنسان الوحــيد الذى كان حراً تماماً هو طرزان. مع تقدم المعرفة تتطور نظــم الإدارة هــذه ومعها القانون الذى يحمى الناس من بعضهم الــبعض، مــن هنا جاءت السلطة والحكومة، ومعها الشرطة أو "العســس"، ثــم الجهاز القضائى والجهاز التشريعى. فى المجتمع الحديث، لابد من فصل هذه السلطات، لابد ألا تكون الشرطة هى الخصم والحكم، وهناك قيودًا لأسلوبها وتعاملاتها، ويؤخذ المذنب، لا إلــى غرفة العرش ومسرور السياف، كما كان الوضع أيام أبى جعفــر المنصــور وأمثاله، وأيضاً أيام غرفة الإعدام على ساحل جزيرة فى نيل القاهرة. بل إلى محكمة فيها ممثلون للاتهام والدفاع وهكذا.

الســلطات فــى المجتمع الحديث إذن ــ عندما لا تكون هناك "ثــورة" ــ تــأتى منفصلة ، وهذه طبعاً فلسفات ترجع إلى عصر التــنوير فى أوربا، القضاء مستقل وإلا فلن يكون قضاء، سيكون القاضى تابعاً لأمثال أبى جعفر المنصور(وكانت المحاكم العسكرية فى عصر النكسة تنعقد وتنظر الدعاوى ثم : "ياللابقى نروح نجيب الأحكــام") ، ثــم هــناك سلطة أخرى مستقلة تصنع التشريعات، القوانيــن الــتى تنطــبق على جميع الناس عندما لا يقرر محافظ القاهرة أن يعطيها إجازة . والسلطة التنفيذية عملها هو تطبيق هذا الكــلام، وفــى المجتمع الحديث أيضاً يوجد إعلام حر هو أيضاً، ومعــروف أن صــحيفة واشنطون بوست كانت هى التى فجرت فضــيحة ووتــر جيــت وأثبتــت للعالم أن الرأى العام يعلو فوق

السلطة، ومن هنا يأتى شعار الوفد القديم: "الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة" ـ حقاً، إن حرية الرأى العام والصحافة، تصلح مقياساً أوحد لرقى الأمم، وطبعاً، لابد أن ينسجم هذا مع ذاك، كلاهما : الرقى والحرية، ضرورى لوجود الآخر .

نحن لسنا إذن فى حاجة إلى الحكومة لكى تدير عمر أفندى. ولا لكى تقوم بأعمال المقاولات وصناعة الملابس الداخلية والخارجية. وبيع السمك والطعمية . امتلاك الدولة لهذه المؤسسات يؤدى إلى إلباسها طاقية الحكومة وإخضاعها إلى الروتين المألوف وإلى أنواع من الرقابة تشل حركتها تماماً وتصيب المديرين بالذعر وتمكن العاملين تحت إمرتهم من الغدر بهم عن طريق "الأجهزة" وغيرها، ثم ــ وهو الأدهى من كل هذا ــ عندما تصبح الحكومة هى المستوظف الوحيد ، صاحب العمل الوحيد ، فإنها تصبح بالتالى ملزمة بتشغيل الناس جميعاً، وقد رأينا مشكلة الخريجين تعالج ــ كما تعالج جميع المشاكل ــ بالعافية، بالقرارات، يؤدى هذا إلى تفاقم حجم العمالة وهبوط إنتاجية الفرد وانعدام الشعور بالمسؤولية ، نتيجة لهذا كله تنخفض الجودة ويتحتم أن تتعامل مؤسسات الإنتاج مع دول الكتلة الشرقية كما رأيناه يحدث، اتفاقيات تبادل تتوقف كلها على ظروف الدولة الكبرى، فهى تعطى ما تستغنى عنه وتأخذ ما يمكنها أخذه، وفى زيارة لى للاتحاد السوفيتى أثناء الستينيات لاحظت أن فاكهة الأناناس تنتشر فى كل مكان ، فوق مناضد المطاعم وفى واجهات الحوانيت (وهذه كانت لا تتجاوز عشرة فى كل موسكو)، وكأن السماء تمطر الأناناس . الذى كان يحدث هو أن بلداً مثل أندونيسيا تريد أسلحة تقيم بها استعراضاً فى عيد قومى، وليس لديها سوى محصول أناناس، والروس يريدون أى شىء "يفرح العيال"، اقتصاد المقايضة هذا يأتى البائع والمشترى بما يتصادف وجوده لا بما هو فى حاجة إليه، وقد رأيت فى شركات القطاع العام عندنا

أطناناً هائلة من الرواكد، بل ومن معدات الإنتاج التى لا تدور ولا يشـتغل عليها أحد، فقد جاءت مثل ثمار الأناناس ، والمديرون لا يسـتطيعون أن يقولـوا أنهـم ليسـوا فى حاجة لشىء فى الوقت الحاضـر، أو أنهـم فى حاجة إلى خامات معينة قد لا تتوفر لدى الـروس. الإنـتاج أى كلام طبعاً لأن بعض مكوناته قد لا يتوفر والتوقف يؤدى إلى أن يتحول صاحب القرار إلى كبش فداء، كما حدث ـ على ما أذكر ـ لشركة الملح والصودا، جاء الرئيس فى عيد الخطب مرة وهاجم هذه الشركة لسبب غير معروف، صباح اليوم التالى انهالت الصحف ـ ومعها الشرطة العسكرية طبعاً ـ علـى رءوسـهم، ومرة أخرى، ولسبب لا أظن أحداً يعرفه، جاء بزكريا محيى الدين رئيساً للوزارة، لعله كان يريد تعذيب الوزراء؟ وفجـأة وفى خطبة عصماء، قال إن الذى يلزمنا هو كفاءة الإدارة التى ظهرت فى قناة السويس، وكفاءة البناء التى ظهرت فى السد العـالى، كـان هذا هو الطريق إلى الإتيان بصدقى سليمان رئيساً للـوزراء، وبمحمود يونس وزيراً للصناعة أول الأمر، ولكنه قال أن الـنقل والمواصـلات تناسـبه أكـثر لأن قناة السويس "كلها مواصلات". وكان وزير المواصلات مصطفى خليل، فوجد نفسه فجـأة وزيـراً للصناعة. الوزارات الموسيقية، وسرعان ما قامت حـرب ١٩٦٧ دون أن يدرى بها رئيس الوزراء . سمع بها فى الإذاعة.

إمـا الـتحول الإشتراكى فقصة أكثر طرافة . كنت ذات يوم أسـتمع إلى الراديو ـ هذا قبل مجئ التليفزيون ـ وكان الرئيس يلقى واحدة من خطبه التى أصبحت كأنها ـ واستغفر الله ـ سوراً قرآنـية . أخـذ يتحدث فى أمور من هنا ومن هناك ، وفجأة قال "لازم نقيم مجتمع اشتراكى (ثم وقفة تاريخية) ديموقراطى (ووقفة أخرى) تعاونى" ـ وفى اليوم التالى فتحت الراديو فسمعت على ما أذكـر عـبد العزيـز محمـود ، يغـنى أغنية هكذا : "اشتراكية

ديموقراطـــية تعاونـــية"، وللقارئ أن يزعق بهذه الكلمات الثلاث واحـــدة وراء الأخرى بهذا الترتيب فيجد نفسه يؤدى هذه الأغنية كما سمعتها أنا تماماً .

وكمـــا هو معروف، كان المدير المختص بالأغانى الوطنية فى الإذاعـــة يـــأتى بمؤلفى وملحنى الأغانى ويحبسهم فى مكتبه أثناء خطـــاب الرئيس ويفهمهم أن لقمة عيالهم رهينة بإتمام الأغنية قبل طلوع النهار وإلا، ومن هنا جاءت "ولا يهمك يا ريس م الأمريكان يا ريس "، وكان هذا بعد خطبة "اشربوا م البحر" الشهيرة، والتى عـــاد ياســـر عرفات وكررها أثناء المعارك التى يدفع بها بأطفال فلسطين ليواجهوا بالطوب دبابات إسرائيل ومصفحاتها .

الدارســـون لعلـــوم الإدارة الحديـــثة يعرفون أن إدارة المرافق وغيرها من المنشآت العامة تختلف فى كثير عن إدارة المؤسسات الاقتصـــادية والصـــناعية والمالـــية والـــتجارية، ســـنجد فى هذه المؤسسات أن الهدف الأسمى هو تقديم المنتجات المادية والخدمية الـــتى تحقـــق مكانة مرموقة فى السوق، وحصة سوقية يعتد بها وتمكـــن من البقاء، أما فى القطاع العام، وهو فى المجتمعات التى تســـودها آلـــيات السوق، "الرأسمالية" كما تسمى ـــ يقتصر على المرافق العامة المملوكة للدولة، كالمطافئ وأجهزة الأمن والقوات المســـلحة مـــثلاً ـــ حيث الإدارة لديها ميزانية تنفقها. لسنا بالطبع نزعم بهذا أن الإدارة هنا أمر هين، فهو ليس كذلك على الإطلاق ، هناك دائماً أهداف يلزم تحقيقها، وجميع مراحل التخطيط والتنظيم والقيادة موجودة وقائمة، ومعها جانب المعلومات، الذى نقوله هو أن مشـــكلات المنافســـة والتســـويق وتقلبات التكنولوجيا والعملة والتمويل .. إلخ، كل هذا لا يوجد ولا تقدر عليه الحكومة إطلاقاً، وعواقـــبه هى أن تغرق الشركات فى مديونية البنوك، كما حصل فـــى مصـــر. صحيح أن الرأسمالية لها رذائل شنيعة، وهى كامنة فـــيها ومـــن خصائصـــها الأساسية ، ولكن الثمار التى تأتى بها

والناشـئة عـن كفاءة الإدارة "وعلميتها" ومشاركة العقول النابغة فـيها، كل هذا أدى إلى تطور قوانين العمل بما يحقق خيراً كثيراً للقـوة العاملـة. المهـم ليس هو الفوارق بين الطبقات، المهم هو المسـتوى الأدنى للأجور، وهذا فى الدول الرأسمالية الناجحة ــ كمـا قـيل مؤخراً ــ يفوق راتب رئيس الوزراء فى غيرها من المجتمعات، هذا إذا كان رئيس الوزراء قانعاً براتبه وامتيازاته .

صـحيح أن الرأسـمالية كثيراً ما تشترى السلطـة ، والسلطة كثـيراً ما تعيث فساداً فى الرأسمالية ، ولكن هذا شيء وإدماجهما معـاً شـيء آخـر ، تـأمل ثلاثين عاماً من حكم ستالين للاتحاد السـوفيتى، ومرجعك ليس دعاة الرأسمالية، بل خطاب خروشوف فـى المؤتمـر العشرين للحزب الشيوعى السوفيتى ! السلطة هنا تؤتـى الدكـتاتور بمـا هو أوفر من مال قارون وأثمن من حجر الفيلسوف، أنه يمتلك الأرض وما عليها ومن عليها ، ويتحول إلى كائـن رهيب فظيع ، وعندما يحدث هذا بالطريقة التى تجرى بها الأمـور فى العالم الثالث ، فهو ليس زعيماً له تاريخ فى السياسة كصـاحبنا هذا ، بل وله مؤلفات فيها وماض فى الكفاح ، بل هو كائن غريزى، عنيف كالثور جاهل كالحمار قاس كالشيطان، ما أن يصـل إلى السلطة بحادث أو آخر حتى يتحول إلى وحش يفترس كل ما يصادفه ومن يصادفه .

لا أتصـور أن مصـر قد تكلفت فى التطبيق الشمولى أقل من مجمل نتاجها القومى لما يزيد على خمس عشرة سنة . هذا بخلاف "السلب والنهب" كما يقول محمود أبو الفتح : "بطل الهزائم وزعيم ثورة السلب والنهب" ، هكذا دأب على وصفه . ارجع إلى خطاب السادات بعد نجاحه فى تصفية من أسموهم مراكز القوى ، وحديثه عـن "الخزنة" فى بيت الزعيم ، رئيس الدولة يخاطب الشعب فى التلـيفزيون ، هذه ليست إشاعة سيئة النية ، إنها بيان رسمى من رئـيس الدولة فى إذاعة الدولة : "الخزنة لها مفتاحين ، واحد مع

سامى شرف والثانى مع الهانم فوق " ثم أضاف : "أهى الحكاية كده باحكيها لكم تفهموا منها اللى تفهموه" ، ما معنى هذا الكلام ؟ وما وقعه فى إسرائيل ومن هم وراء إسرائيل ؟ وما وقعه فى نفوس الناس في مصر ؟ ما وقعه فى نفس أمين مخزن أو صراف يحاكم ويدخل السجن لنقص فيما فى عهدته من مال أو أصناف ؟ اشتراكية أرسين لوبين هذه ..

أضف إلى هذه الحروب . جوبلز عبد الناصر كتب يقول : "إن إيراد مصنع واحد من المصانع التى بنتها الثورة يكفى لتعويض تكاليف حرب اليمن" ، وكتب أيضاً يقول : "إننا لكوننا متخلفين ، لن نستطيع أن نتقدم تكنولوجياً وسبيلنا الوحيد هو تعويض هذا بأن نتقدم اجتماعياً" ، كان التقدم الاجتماعي وقتها معناه الشيوعية ، ترى هل شركة الحديد والصلب مثلاً حققت أرباحاً تصل إلى ثلاثين مليار دولار تقدر بها تكاليف حرب اليمن ، شاملة الطرق والمطارات التى أنشأناها هناك وكانت السفن تنقل الرمل والزلط إليها والطائرات تنقل الذهب (وسقطت واحدة منها بالقرب من مدينة أسوان) ـ ثم الأسلحة والمعدات والطائرات الأنتينوف التى تركناها كلها هناك ، أرباح هذا المصنع الخاسر من يومه ، غطت هذا كله ؟ أنه يخاطب من يرى فيهم عبيداً عند السلطة التى هو عضو فيها .

أثناء ما يسمى بحرب الاستنزاف ، نزح سكان منطقة القناة إلى رأس البر والصالحية وغير ذلك ، وجرى "نقل هيئة قناة السويس إلى القاهرة" ، نعم . احتلت مقراً فى مدينة نصر . هذا الشعب كله، الذى يفوق تعداد الأردن وفلسطين معاً، من العاملين فى هيئة القناة ، بمرتباتهم وامتيازاتهم، ومن جميع العاملين من مدرسين وموظفين من كل الأنواع، مضوا يتقاضون مرتباتهم دون أن يعملوا أى شيء ! ثمانية أعوام إلى أن قام الخائن بإعادة فتح القناة وتعميرها . ملايين تدفع كل يوم، والمطبعة طبعاً شغالة . على

حســاب من كل هذا ؟ على حساب كل المصريين ، ومازلنا حتى الآن ندفــع وسنظل ندفع ، وإلا فما الذى جعل راتب أى مصرى يعــادل واحداً من ثلاثين من نظيره فى أى بلد آخر فى المنطقة ؟ والذى يحتج ، هاتوا أمه أو ابنته .

لست أدرى كيف تكون كل هذه الحروب قد كلفت شعب مصر أقل من مجمل إنتاجه خمسٍ عشرة سنة أخرى . نعم ، عشنا ثلاثين سنة نعمل ، فلاحين وعمالاً "وفئات" ، نعمل وننتج دون أى مقابل، إلى أن هبط علينا الفقر بكلكله ، وسحقنا سحقاً. وهو طبعاً ــ الفقر ــ يخلق عالماً مستقلاً ، له نفسياته وأخلاقياته الخاصة .

إلا أن الفقر هدف فى ذاته . عندما وقع الانفصال سنة ١٩٦١ ، وقف الزعيم يعلن أن الذين دعموا الانفصال بأموالهم هم المذنبون، ولذلك : "أنا مش حاخلى حد يبقى معاه فلوس" ــ وهذا هو السبب فــى إيداعها سويسرا ومنشية البكرى.. هذا هو تفسير ما تراه فى شــوارعنا مــن فوضى وهمجية . تعلم الإنسان المصرى أن هذه ليســت بلــده : "أنت تاخد كذا جنيه آخر الشهر تأكل عيالك بيهم، المسكن بتاعك، وببلاش، أنت وأحفادك وأحفاد أحفادك ، المدرسة بــبلاش، عايز أية تانى ؟ سيبنا إحنا بقى نساعد حركات التحرر". والنهب والتهريب الجمركى شغال. والحروب تقوم دون أن يدرى بها المواطن إلا عندما يفقد ابناً فيها أو تنهال عليه قنابلها.

من أجل من هذا ؟ ومن أجل ماذا ؟

حقــوق شعب فلسطين ؟ حقاً ! كما يقول نزار قبانى : "لو أنهم قد حرروا زيتونة أو أرجعوا ليمونة .."

العدالــة الاجتماعــية ؟ لعــنة الله عليها إن كانت هكذا ! وكل صــباح، يمســك المصرى بالجريدة أو يسمع الإذاعة ليقال له أن اليهود يدمرون منازل الفلسطينيين، ويرتكبون المذابح والمجازر، إلى أن وصل الحقد إلى حلوق الناس، وتأتى ساعة الانتقام، فإذا بنا نهلك فى رمال الصحراء ونعود بأقدام حافية ممزقة، إذا لم نحترق

بالنابالم، ومرة بعد مرة، نعم، هذه هى الحقيقة المرة، بعض الحكام لا يحسون بالاطمئنان إلا إذا أفقدوا شعوبهم آدميتها، وقد روى عن الزعيم الخالد أنه شرح نظريته فى الحكم لمعاونيه : "جوعهم يمشوا وراك زى الكلاب" . كنت أشاهد حواراً فى محطة الـ "بى.بى.سى"، المذيع يحادث رئيسة جمهورية لاتفيا، وهى واحدة من دويلات البلطيق الثلاث التى اكتسحها الألمان فى الحرب الثانية، ثم جاء الروس بعدهم وجعلوا منها جمهوريات سوفيتية ، ثم بعد انهيار هذه الإمبراطورية البشعة، استردت شعوبها حريتها . سألها المذيع : هل يحس شعبكم بالمرارة من جراء ما جرى له ؟ أجابت : المرارة يا سيدى، ترف لا نقدر عليه .

إلا اننا لكثرة ما قتل أبناؤنا بأيدى الإسرائيليين، لن نستطيع أبداً أن نتحمل الحرمان من ترف المرارة، من لذة البغضاء التى ننام عليها ونصحو عليها .

لا بأس بهذا إذا جاء مقروناً بالقدرة على شفاء الغليل وعلى محاسبة من يتسببون فى إصابة شعوبهم بتعاسة لا يقارن بها ما يقترفه أعداؤها فى حقها . ألا يدرك هؤلاء أن الكرامة والعزة .. إلخ، لن تكون متاحة لشعب يقهره حكامه ؟ ولن تكون أبداً من نصيب شعوب خاوية البطون ممزقة الأسمال تفترش الأرض وتلتحف الغبار، لا مدارس ولا مستشفيات ولا رعاية ولا ثقافة ؟ قوة الإنسان لا تتأتى إلا بهذا، بـ "المفهومية"، وليس بالأسلحة، سواء كانت حجارة نلتقطها من الطريق أو قاذفات مقاتلة ثمن الواحدة منها مائتا مليون دولار، نفقد منها خمسمائة فى عدة ساعات ومعها من تكاليف التدريب والصيانة والحظائر ما يعادل هذا الرقم، ثم نتغنى بعد ذلك بأمجاد الثورة، كمجانية التعليم . إن الذى دفعناه ثمناً للطائرات فقط كان يكفى لأن نكون شعباً من خريجى هارفارد .

فقط، إذا كان التقدم العلمى والتكنولوجى يستعاض عنه بالتقدم

التقدمى، فما أسهل أن تنحل مشكلاتنا جميعاً .

منذ بضع سنوات كتب أستاذ فى الطب النفسى مقالاً فى جريدة كـــبرى، قـــال فيه إن ثلاثة أرباع المصريين مرضى بداء يسمى "مانيك دبريسيف"، وهو ظاهرة معروفة فى زماننا، تجعل الإنسان عصـــبياً بشكل دائم ولكنه فجأة تنبسط أساريره وينفجر ضاحكاً . أظن كلنا نرى هذا بل ونجربه عندما تنشب المشاجرات بيننا ونحن فى الطريق ، وهو قدرنا المحتوم، فقد وصلت بنا الفوضى والزحام إلى حد أن مجرد أن تأخذ نفساً عميقاً سيجعلك تصدم شخصاً آخر. لم يقل لنا الدكتور شيئاً عن الربع الباقى من أهالينا، هل هؤلاء هم الأصحاء أم أنهم مرضى بأصناف أخرى من الخلل ؟

أنـــا شخصياً جربت هذا. من الآخرين ومن نفسى . كنت أقود ســيارتى ودب شجار بينى وبين سائق آخر، صدمنى من الخلف وكســـر الفانوس ، قلت لنفسى : نحن أناس طيبون ، لماذا ــ وأنا محـــبذ للسلام ــ لماذا لا أراضيه ؟ قلت له مبتسماً : ولا يهمك ، نهارك سعيد ، وإذا به ينزل من سيارته ويصافحنى ويجذب رأسى من خلال نافذة سيارتى وينهال على بوساً (كلمة عربية صحيحة) ــ بشـــكل جعلنى ــ ولو للحظة ــ أندم على المسالمة وأرى فوائد الصراع المستمر .

وكنت أيضاً أشاهد الـــ "بى.بى.سى" وكان كلينتون هو الضيف هـــذه المرة ، فى اجتماع فى أيرلندا ، بعد إنتهاء رئاسته، وسألوه عـــن موقـــف محـــرج يكـــون قد جربه ، فقال إن هذا حدث يوم استضـــاف اسحق رابين وياسر عرفات فى البيت الأبيض ، وأنه انفـــرد بعرفات وحادثه بشأن المسدس الذى يتدلى من مؤخرته ، فقـــال له: "أنـــا لا أذهب إلى أى مكان بدونه" ، وأضاف كلينتون ضـــاحكاً : "لعلـــه يحل محل تشارلتون هستون" ، مشيراً إلى هذا الممـــثل الشـــهير الـــذى يـــرأس الجمعية القومية للسلاح عندهم ويتعرض للنقد كداعية إلى العنف ، ثم انتقل كلينتون إلى رابين ،

وكانت المحادثة بشأن المجاملات أثناء حفل توقيع الاتفاق ، وروى أن رابين أبدى أنه لا مانع لديه من المصافحة ، "فقط ، أرجوك ، بدون قبلات !".

وقد رأيت الزعيم الفلسطيني في مواقف كثيرة جداً وقد بدا عليه أنـه يؤمن بأن حقوق شعبه يمكن أن تتحقق بالبوس (مرة أخرى، بـاس يـبوس، كلمة عربية صحيحة، وهي أوضح وأقل احتمالاً للخطـأ في النطق من قبل يقبل) في أيام ريجان، أسقطت المقاومة اللبنانـية طائـرة أمريكية هبط قائدها داخل حدود سوريا بالمظلة وقـبض عليه السوريون، وكان أمريكياً أسود. أوفد ريجان الزعيم الأمـريكي الأسود جيسي جاكسون ليتفاوض بشأن إطلاق سراحه على أساس أن السوريين سيكونون أكثر استعداداً لمحادثة مندوب مـن أصل شرقي، وتم هذا فعلاً. لم تكن أمريكا إذ ذاك قد وصلت إلى إدراك أن هناك شعباً اسمه الشعب الفلسطيني، طبعاً في وجود رئـيس نـازي النزعة كهذا، ولكن السيد عرفات أمكنه أن يقابل جاكسـون (وهو أصلاً قسيس وكان زميل كفاح للزعيم الأمريكي الأسـود مارتـن لوثـر كـنج وأصـبح قطباً من أقطاب الحزب الديموقـراطي ورشـح نفسه مرة للرئاسة ثم انسحب) ورأيت له صورة وقد أطبق على الرجل بفكيه المفترسين والآخر يحاول أن يـتملص. علـى الزعماء أن يدركوا أن صورتهم أمام العالم تؤثر علـى إحسـاس العالم نحو شعوبهم. في هذا الموقف بالذات كان مجرد لقاء هذا السياسي الأمريكي بعرفات يعد مخاطرة من جانبه، وقـد سبق أن فصل زعيم أمريكي أسود آخر هو أندرو يونج، من منصـبه كسـفير أمريكا في الأمم المتحدة لأنه اجتمع بشخصيات فلسطينية.

للدكتور محمد كامل حسين مقالة عن اليهود يأتي فيها بتفسيره لمـا فـي شخصياتهم من تناقض حاد ، فهم أحياناً يبدون مشاعر إنسـانية راقية ومتسمة بالتعاطف، وأحياناً يظهرون كما لو كانوا

شـياطين مجـردة مـن الشعور الآدمى . وهو يعلل هذا بتجربة الخروج من مصر، وقد أوشكوا على الهلاك ثم انشق البحر ونجوا بمعجزة إلهية . وهو يرى أن الاقتراب من الموت إلى حد أن يوقن البشـر أنهم قد هلكوا لا محالة، ثم النجاة بشكل غير متوقع، مثل هـذه الـتجربة خليقة بتشويه شخصية الفرد الإنسانى ، فإذا كانت جماعية فهى أيضاً تشكل شعباً بأكمله هكذا.

الشـعب المصرى أيضاً مر بتجربة شنعاء. النقمة التى تتنامى كـل يـوم، ثـم الاحـتكام للقوة والإحساس بقرب الوصول إلى الإنصـاف، ولكن الذى يحدث هو مرارة تفوق كل مرارة وخيبة أمل لا مثيل لها، وبدلاً من محاسبة المسؤول نجد المسؤول يعاقب ضحاياه إلى حد أن الواحد منهم لا يجرؤ على أن يلفظ بكلمة ينفس بهـا عـن وجدانـه المكبوت، هذا أيضاً خليق بأن يسبب التواء الشخصـية، ثم فقدان الشعور بالانتماء لبلد لا يملك الفرد حتى أن يتألم لمصيره بينه وبين نفسه، النتيجة هى أن يدفن الإنسان أفكاره وأحاسيسه فى أمعائه .

مما يدل على طبيعة ذلك العصر، والذى يجعلنى أشارك الكاتب الوفـدى الـراحل مصطفى شردى فى الحكم عليه بأنه بكل تأكيد أسوأ حقبة عاشتها مصر فى تاريخها الطويل، هذه الطرائف التى سأحكيها .

حسـناً، أصابتنا هزيمة نكراء سنة ١٩٦٧، وعاد عبد الناصر نفسـه يعـترف بها قائلاً فى خطبة عصماء، "أيوة هزيمة، ما با قولش نكسة ولا حاجة"، كل شعوب الدنيا جربت النصر والهزيمة.

والهزيمة ليست عيباً طالما أن المنهزم ـــ والقائمة تضم فرنسا وألمانيا واليابان وكل الناس بدون استثناء ـــ بذل شجاعة معقولة، وأنا أعرف بالاسم طيارين أقلعوا من مطارات كانوا يعرفون أنهم لـن يعودوا إليها ، ولا إلى غيرها. ولكن القيادة القديمة كانت ما تزال تمارس الفكر الحشاش. صدرت أوامر بأن يسمع كل ضابط

فى الجيش ما يلى بالحرف الواحد : "ايه يعنى سينا ، شوية رمل ؟ وايـــه يعـــنى قـــناة السويس ، ما احنا طول عمرنا فلاحين" ـــ أنا سمعته كما سمعه غيرى . طب اسكت أحسن ! ثم بعد فترة ، قام بعض طلاب الجامعة بمظاهرات احتجاج ، شباب غاضب لضياع كـيانه وحاضـــره ومســـتقبله ، كان الحديث الموجه للجميع مرة أخـــرى: "تلاحظـــون أن المظاهـــرات خرجـــت من كليتى الطب والهندســـة . لمـــاذا ؟ لأن هذه هى الكليات التى يدخلها من تلقوا الدروس الخصوصية وإلا لما حصلوا على المجموع . يعنى دول أولاد الأغنـــياء ، الساخطين على الاشتراكية" تصور إلى أى حد تصل الخسة والسفاهة والطفولة، "للاحتجاج على أحكام الطيران" ، البيان الرسمى أورد هذا على أنه السبب فى المظاهرات ، كان لابد مـــن إعـــدام من صدرت ضدهم "أحكام الطيران" ـــ تأمل الركاكة أيضاً ، أى طيران ؟ إنه لم يعد حتى يسمى الطيران ؟!

وإن كـــان لـــزاماً على ألا أختم هذا الفصل دون أن أذكر بياناً صدر بعد ذلك من الفريق أول محمد فوزى ، كان جاداً وصارماً، ورد فـــيه : "ليكن فى علم الجميع أن القوات المسلحة سوف تقاتل حتى تنتصر أو تفنى ، ولا يتحدث عن الحل السلمى إلا كل عاجز أو جبان" ـــ رائع ، هذا مع تحفظاتى بشأن طبيعة الحرب الحديثة، والـــتى لا تصلح فيها الشجاعة وحدها . لا أظن شعباً فى التاريخ حارب بإصرار الشعب اليابانى واستماتته واستهانته بالحياة وإقباله على الموت .

"طول عمرنا فلاحين" ـــ صح !

هل مازلنا فلاحين ؟ هل سنظل فلاحين ؟ أتمنى ذلك !

إلا أنها مسألة .. فيها نظر.

السد العالى

باقٍ من الزمن خمسمائة سنة :

أستحلف القارئ أن يصدقنى فى أن ما سآتى به هنا بشأن مشروع السد العالى لا علاقة له بموقفى من الحركة المباركة (أو الثورة إذا كان يصر على هذه التسمية ، وقد تغير مضمون هذه الكلمة لكثرة ما حدث من ثورات وكثرة الشعوب التى قامت بها) ــ أو برأيي فى عبد الناصر كحاكم (وهو يتلخص فى أنه لا يصلح بأى درجة لمثل هذا العمل) ، الواقع أننى أظن أن السد العالى هو الشىء الوحيد الذى أقدم عليه بشىء من حسن النية ، بمعني أنه قيل له أن هذا المشروع مفيد لمصر وصدق ما قيل له، تماماً كما صدق خرافة القومية العربية وإمكان الاستناد إلي الاتحاد السوفيتى لقهر أمريكا والغرب .. إلخ . وقد يكون مناسباً هنا أن أذكر أننى كنت مديراً للتدريب المهنى بهيئة السد العالى سنوات ١٩٦٢ – ١٩٦٤ ، وهذا لا يجعلنى أتحمل جانباً من المسؤولية فقد كان عملى هو بناء القوة العاملة فقط وأظننى حققت نجاحاً فى هذا ، أتعرف من الذى شهد لىّ بذلك ؟ الزعيم الخالد ، أعطانى وسام الجمهورية من الطبقة الثانية . وطبعاً حضرت الاحتفال بإتمام المرحلة الأولى ، الذى حضره نيكتيا خروشوف .. وألقى خطاباً حماسياً ، ثم أهدى كلاً من جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر أرفع وسام عسكرى سوفيتى ويسمى "بطل الاتحاد السوفيتى" (جيرو ــ يعنى بطل ، وهى نفسها هيرو الإنجليزية ، فقط ليس لديهم حرف الهاء ، ويقولون جوسبيتال ، يعنى مستشفى ، الوسام

اسمه إذن: جيرو ــ سوفيتسكى سايوز) ، فى اليوم التالى وأنا فى مكتبى جاءنى كبير الخبراء السوفيت العاملين معى ، (وهذه كانت فرقة من حوالى عشرة خبراء وأربعة من المترجمين والمترجمات) للتعليق على ما جرى .

وأنتهز هذه الفرصة لأعبر عن إعجابى بهؤلاء الناس كفنيين مهرة وأيضاً كبشر ، وهم فى غاية الرقة والتواضع ، ولديهم جلد عظيم على العمل وإحساس بالغ بالمسؤولية ، وقد عملت مع الروس أكثر من خمس عشرة سنة وتعلمت الروسية منهم وعندما سافرت إلى موسكو للتعاقد على المعدات والخبراء لما كان إذ ذاك أكبر معهد للتدريب المهنى فى الشرق ، (هكذا وصفه صدقى سليمان فى حديث معى) ، كنت أتكلمها بما يكفى احتياجاتى . وعبر لى كبير الخبراء عما يحس به الروس فى المنطقة (وكان يوجد منهم بضعة آلاف ، مع أسرهم ، ولديهم تعليمات بأن تتجنب زوجاتهم الحمل وإلا رحلوا فوراً ، وحدث هذا لمترجمة بالغة الجمال كان اسمها ناتاشا ، كانت تعمل معى، تزوجت ورحلوها مع زوجها لهذا السبب ، أذكر هذا لمجرد تبيان مدى التدخل فى الأمور الشخصية) ــ قال إنهم أحسوا جميعاً بالدهشة لموضوع الوسام هذا ، فهو لا يمنح إلا للعسكريين ، ولا بد أن يكون ذلك مكافأة على البطولة فى الحرب. وقد روى هيكل بعد أن "رحل عبد الناصر عن دنيانا" فى واحدة من مقالاته الـ .. ، ما علينا ، روى أن عبد الناصر عندما زار موسكو فى عصر بريجنيف ، سأله هذا الأخير عن السبب فى أنه لا يمتشق الوسام ، وهم يعتادون هذا ، يعلقون الأوسمة على الملابس المدنية . وقد قيل أن هذه الغلطة ذكرت من بين أسباب إسقاط خروشوف ، واعتبرت استهانة بقيم الأمة السوفيتية .

كل حاكم من هذا النوع يلجأ إلى إقامة مشروع هائل ليكون علامة على "ألوهيته" ، كما شيد رمسيس الثانى معبد "أبو سمبل"،

وكمـــا أمـــر ستالين بحفر قناة للرى اسماها باسمه ، يقال أنه هلك فيها ملايين من أبناء الشعب الروسى لمجرد إبعادهم لأسباب أمنية، وأيضـــاً كمـــا فـــى القصـــة الشهيرة "مزرعة الحيوانات" للكاتب الإنجليزى جورج أورويل . صحيح هذا ، ولكن الحقيقة تبقى وهى أنـــه ظل يعتقد أنه يقوم بعمل مفيد لمصر، يختلف عن مصادرته لثروات البلد وأبنائها ليوزعها على الصحف فى الدول العربية مثلاً لكى تؤيد زعامته ــ بنتيجة عكسية طبعاً ، كما هو دائماً ــ وليس كمـــا أمـــر بإرجاع الفرقة المدرعة إلى سيناء سنة ١٩٦٧ بعد أن أتمـــت انســـحابها ، لما قيل له أنه قد يحدث انقلاب ضده . وهذا واحـــد مـــن أسباب إهمال كل هذه المئات من الألوف من الجنود وتركهم يهلكون عطشاً وجوعاً ، من أجل حماية النظام والاحتفاظ بالرواتـــب ، بالقصـــاقيص الشـــهرية ، ولـــيس كما أمر بضرب بورســـعيد بالمدفعية لكى يشتت أهلها لما أظهروه من سخط لقطع أرزاقهم بسد القناة ، فيما يحكى .

ولا شك أن الدفاع عن السد العالى ممكن ، انظر :

ــ مصـــر طبعاً تعتمد على ما يأتيها سنوياً من مياه الفيضان، والفيضـــان تـــتراوح كميته من سنة لأخرى إلى حد أنه فى بعض السنوات تصل كميته إلى ثلاثة أمثال سنوات أخرى، وبالتالى فإن الـــزراعة لا يمكن أن تثبت على حال فى وجه هذا التفاوت الذى أدى إلى فيضانات خطيرة سنة ١٩٦٤، ١٩٧٣ وإلى قحط وجفاف ســـنوات ١٩٧٢ / ١٩٧٣٠ثم ١٩٨٣ / ١٩٨٤، هذا الجفاف طبعاً كـــان كارثة لدول النيل الأخرى ولكن مصر استمدت حاجتها من بحيرة ناصر .

ــ مثل كل السدود، يعطى السد العالى طاقة كهربائيـــة بـــدون الحاجـــة إلى حرق الوقود الذى يتسبب فى تلوث الهواء وسخونة الكوكب .

ــ يمكّن السد العالى من المحافظة علـــى منسوب ثابت نوعـــاً

لمـــياه النهر من أسوان إلى سواحل البحر الأبيض مما يمكِّن أيضاً من تحسين الملاحة لأغراض النقل والسياحة .

ـــ يضـــاف إلى ذلك توفير قدر هائل من مياه النيل كان يذهب إلى البحر كل سنة.

فـــى مقابل ذلك كان النقد الموجه إلى المشروع من قبل بدايته والذى استمر حتى اليوم يتضمن :

ـــ احتجاز المياه أمام جسم السد يؤدى إلى ترسب الطمى الذى يـــأتى إلـــى مصر كل سنة منذ آلاف السنين وهو الذى تكون منه وادى النيل ثم الدلتا ، الواقع أنه هو المادة التى تكونت منها مصر كما قال هيرودوت منذ ألف وأربعمائة سنة ، وبدونه : لا مصر .

ـــ انقطاع الطمى أدى إلى تآكل سواحل مصر بين فرعى الدلتا ثم شرقاً وغرباً .

ـــ مـــن النـــتائج أيضاً ، تملح الأرض الزراعية والذى وصل حـــتى الآن إلـــى عمق لا يقل عن عشرة كيلو مترات من ساحل البحر .

ـــ اخـــتفاء الطمـــى يـــؤدى إلى الاسراف فى الاستعاضة عنه بالأسمدة الكميائية ، مما يؤدى إلى تلوث البيئة .

ـــ انقطـــاع المـــياه الغنية بالطمى أيضاً أدى إلى اختفاء ثروة هائلة من أسماك السردين والجمبرى .

ـــ كمـــا أدى أيضاً إلى تزايد النحر فى المنشآت المقامة على النيل.

من حيث الايجابيات، فإن الذين عاشوا عمراً طويلاً فى بلادنا ـــ مـــثلى ـــ لـــن يســـتطيعوا بسهولة أن يستخرجوا من ذاكرتهم فيضـــانات مدمرة كالتى تجتاح بلاداً مثل بنجلاديش ـــ بل فرنسا وانجلترا وأمريكا، ولا أيضاً سنوات جفاف آذت المحاصيل بشكل محسوس، والذين يؤيدون هذا المشروع المأسوى لا يفكرون إلا فى أرقـــام الأرض المزروعة وكمية الكهرباء الناتجة دون أن يبذلوا

أدنى قدر من التفكير فى الثمن الفادح الفظيع الذى سندفعه ــ كما دفعنا فى "الوحدة" وفى "القضية" ومناصرة حركات التحرر.. إلخ، ثمن هائل ندفعه لا فى نظير لا شيء، ليت الأمر كان ثمناً من أجل لا شـيء، إنــه ثمن فادح والمقابل كوارث ماحقه نشتريها بدمائنا وعرقنا.

وقــد بــدأت السدود تتعرض للنقد الشديد فى كل أنحاء العالم، حتى مجرد الفكرة، ونحن كان يمكننا أن نحقق هذه الفوائد ــ زيادة الرقعة الزراعية وتحسين دورة الإنتاج الموسمى ــ لو أننا فقط لم نسـتهلك مليون فدان من أخصب الأراضى التى أنعم الله بها على هــذا الكوكب، فى بناء المساكن، وإذا أتيح لك أيها القارئ العزيز أن تعود من الخارج فى رحلة تطير بك فوق الدلتا ليلاً لرأيت إلى أى حــد هى مدن سكنية أكثر منها أرضاً زراعية. ولو أننا أيضاً تجنبــنا أن ننحت الأرض لإنتاج الطوب الأحمر من أجل بناء هذه المســاكن لكـنا قــد حققنا كل ما نحلم به من وراء هذا المشروع الاستعراضى دون أن نضطر لإقامته، وإلى رهن محصول القطن عشــرين ســنة كاملــة للروس، وهم بدورهم راحوا يبيعونه لقاء محصول أناناس أو صفقة أحذية ، أو مجرد تراب الفلوس ، وهم طبعاً أجهل الناس سواء بالقطن أو بالبيع .

أمــا الكهــرباء فهى اليوم تمثل أقل من عشرين فى المائة من إنتاجنا من الطاقة . إلا أن المصيبة الكبرى لا تتمثل فى هذا . أيه إيجابــيات وأيــه سلبيات تلك التى نتحدث عنها ، وأى منافع وأى أضرار ؟ إذا كانت مصر ــ بسبب السد العالى ــ سوف تنتفى من الوجود وتختفى من الخريطة بكل إيجابياتها وسلبياتها؟! فدادين أيه وســردين أيــه ؟! مــا فــائدة مليونى فدان نضيفها إلى الأرض المزروعة إذا كنا :

أولاً: قــد أكلــنا مليونيــن مســاويين فى مشروعات الإسكان والــتجريف ، مناطق الهرم والجيزة والدقى والمهندسين والسواح

وحدائق القبة وحدها ، مئات الألوف من الأفدنة العظيمة الخصوبة لا تحلم بنصفها دول جنوب أوروبا أو شمال إفريقيا . أما التجريف فما تزال تربة مصر حتى الآن تتحول إلى أقبح عمارات وجدت على ظهر الأرض ؟! مجرد حوائط حمراء يستتر الناس داخلها .

ثانياً : سوء نحبس المياه بالسد العالى بحيث لا تأتينا منها قطرة، وسوف نحيل الأرض إلى مستنقعات مالحة؟

خلال سنة ١٩٩٩، كنت على صلة بإحدى الهيئات الإستشارية، واشتركت فى إلقاء محاضرات فى علوم الإدارة حضرها كبار العاملين بالوزارة ، كان منهم وكلاء أول للوزارة ومفتشون لرى المحافظات، سبعة برامج (سيمنار، كما يسمى) لمدة ثلاثة أيام كل منها . سألت بعضاً من كبارهم على انفراد، عما إذا كان صحيحاً ما يذاع فى أنحاء العالم من أن الطمى سوف يتراكم عند جسم السد وبطول البحيرة حيث يأتى يوم يتعذر فيه سحب المياه منها ؟ وأن هذا سيؤدى إلى تكوين دلتا أخرى جنوب أسوان تماماً كما تكونت الدلتا القديمة التى عشنا على خيرها آلاف السنين .

كان واضحاً أنهم لا يريدون الحديث فى هذا ، وعندما تكلم واحد منهم، وهو شخصية مرموقة ، قال إن هذا سوف يحدث على مدى ألف سنة . والواقع أن الكثيرين من الثقات تنبئوا بهذا عندما بدأ الحديث عن السد كمشروع ، وكان منهم واحد من الخبراء المصريين العظماء هو المهندس عبد العزيز أحمد، وبين يدى الآن كتاب لابنته الأستاذة الجامعية الدكتورة ليلى أحمد ، المهاجرة إلى أمريكا ، وهو بالإنجليزية وعنوانه A Border Passage تصف فيه الاضطهاد الذى لقيته الأسرة من الزعيم بسبب معارضته ، الرجل طبعاً لا يعرف أسلوباً غير هذا فى مواجهة المنطق ، لا يمكنك أن تلومه، فهذه حدوده، إلا إذا كنت تلوم القرش على أنه اقتضم ذراع سباح أو ساقه.

المهندس الكبير الذى قال لى "ألف سنة" ، كان طبعاً لا يريد

ذكـــر الحقيقة التي تذكرها مصادر الدنيا كلها وهي أنها خمسمائة سنة فقط .

معـــنى هذا أن نهر النيل من أسوان إلى البرلس سوف يتحول إلـــى قـــناة رملية تزحف إليها مياه البحر. معناه أن مصر سوف تتحول إلى دولة صحراوية جافة قاحلة مثل دول الحزام الإفريقي، تـــزرع السمك بدلاً من القطن . فتحت الإنترنت ، وحصلت على نـــبوءات متعددة، منها اقتباسات من التوراة، صحيح أنني لا أراها نـــبوءات تمتد إلى عصرنا هذا، بل إلى وقتها هي، ولكن الحقيقة تـــبقى وهـــي أن هـــناك من هم سعداء بموت مصر، هذه بعض النصوص الواردة :

من سفر حزقيال ٢٩ :

لذلـــك هكـــذا قـــال السيد الرب ، هأنذا أجلب عليك سيفاً وأستأصـــل مـــنك الإنسان والحيوان ، وتكون أرض مصر مقفرة وخـــربة ، فيعـــلمون أني أنا الرب لأنه قال النهر لي وأنا عملته . لذلـــك هأنذا عليك وعلى أنهارك وأجعل أرض مصر خرباً خربة مقفرة من مجدل إلى أسوان إلى تخم كوش ، لا تمر فيها رجل إنسان ولا تمر فيها رجل بهيمة ولا تسكن أربعين سنة .

ومن سفر أشعيا ١٩:

وتنشف المياه من البحر ويجف النهر وييبس .. حسناً ، "أربعـــين ســـنة" توحي بأن هذا كان في الزمن الماضي ، عقاباً لفرعون الذي طغـــى، ويلحق بما في التوراة بشأن الضربات العشر التي أنزلها به الـــرب، وليســـت النبوءة خاصة بسنة ٢٥٠٠ أو حتى ٣٠٠٠ ميلادية ؟

خمســـمائة ســـنة هو الرقم الذي يقدره خبراء العالم ، لسنا هنا طـــبعاً في مجال البحوث الهندسية ، ولكن ـــ بالعقل كده ـــ تبدو فعـــلاً خمسمائة سنة. ياه ! يا هنا من يعيش ! أو قل : يا هنا من

يمــوت ! لــن نكون نحن أحياء بالطبع عندما يحدث ذلك ، ولكن الكثيريــن مــنا ســوف يشــهدون تملح التربة كما شهدوا اختفاء السردين.

كل هذا من أجل أغنية لعبد الحليم حافظ ؟

الجفــاف والفيضــان أزمات تحدث فى كل الدنيا ، لأن القوى الكونية لا تخضع لاحتياجات سكان الأرض . فهل من المعقول أن ننتحر خوفاً من الإصابة بنزلة برد ؟؟

الشقيقة الكبرى :

يقــول نجيــب محفوظ : إن عبد الناصر عاش منهزماً ومات منتصــراً بعكس السادات ، فقد عاش منتصراً ومات منهزماً. أما أنــيس منصــور فيقول : إن المصريين على يدى عبد الناصر قد اعتادوا الهزيمة والبكاء على ما ضاع، وتأصل فى نفوسهم أن ما يــريدونه مســتحيل أصلاً وارتاحوا إلى هذا الاعتقاد واعتادوا ألا يحاولوا شيئاً أو أن يأملوا فى شىء ، فلما جاء السادات وكسب كل معركة خاضها وكل مواجهة أقدم عليها ، فإنه عراهم أمام أنفسهم وأثبــت لهم أن الانتصار ممكن وأن تحقيق المنى ليس مستحيلاً ، وبذلك أقنعهم بأن ما دأبوا عليه من خمول وما اعتادوه من استكانة هو السبب فيما هم فيه من ضياع ، كما أنه رفع أدوات البطش من فــوق رقــابهم فأحسوا بمسؤولية عن أنفسهم كانوا قد اطمأنوا إلى انعدامهــا وأخلــدوا إلــى راحة أبدية حرمهم هو منها ، وهذا هو السبب فى أنهم أحبوا عبد الناصر وكرهوا السادات ، مع أن الأول أضاع البلد وتسبب فى إفقارها وإذلال شعبها ، وحتى قناة السويس التى يتفاخر بإعادتها إليهم ــ ولعل هذه هى المعركة الوحيدة التى انتصر فيها أول الأمر ــ حتى قناة السويس مات وهى خربانة ولو عــاش لظلــت كذلك ، على أحسن الفروض ، وبرغم أن السادات

نجـــح بعـــد ذلك فى فتح القناة وتعمير المنطقة وإعادة سكانها إلى بيوتهم وإجلاء الإسرائيليين ومحو مستوطناتهم ثم فى إرساء أفكار جديـــدة للحياة والعمل ، كل هذا لم يشفع له ، بل إنه حتى انسحاب الإســـرائيليين من سيناء قال عنه وزير دعاية عبد الناصر (وأنا لا أعده صحفياً ولا أعدها صحافة طالما هى خاضعة للدولة) قال إن انســـحاب الإســـرائيليين مـــن أرض مصر قد حرمها من موقعها القـــيادى فى العالم العربى . لا أظن كل ما فى الدنيا من علامات التعجب يكفى هنا ، ومازلت حتى الآن أبحث عن جزء مما يسمى العـــالم العربى كان منقاداً لمصر أو لعبد الناصر ؟ الملك سعود أم الملـــك فيصل ؟ الملك حسين ؟ عبد الكريم قاسم الذى أطلق عليه هذا الاسم المضحك "قاسم العراق" ؟ أم عارف أم البكر أم صدام ؟ بورقيـــبة ؟ بومدين ؟ من ؟ السودان الذى كان مسرحاً لمهازل لا أول لها ولا آخر ؟ حتى اليمن .. ؟ والأقليم الشمالى ؟

ثم لماذا ؟ لماذا نريد مركزاً قيادياً ؟ ما الذى نفيده من ذلك ؟ أن نكون الشقيقة الكبرى ؟ ونحن بين الشقيقات ، بلد ممتهن ينظر إليه على أنه مستودع البشر الرخيص ؟

حقـــاً ، كـــان لنا مركز قيادى عندما كنا البلد الوحيد الذى فيه جامعة ، وجامعة من أرقى جامعات العالم وأرفعها مستوى ، وكان لدينا مدارس تسمى حقاً مدارس ، سواء بمعنى أنها منشآت للتعليم أو أنهـــا مدارس للأجيال وللشعوب ، تحولت هى أيضاً إلى أبواق لإذاعة الشعارات الجوفاء .

كـــان لنا مركز قيادى عندما كانت العمالة المصرية فى الدول العربية من نوع الدكتور السنهورى ، الذى ذهب إلى العراق ليضع لهـــم دســـتوراً . وليس من نوع صبيان دكاكين البقالة فى شارع السعدون ومختلف أنحاء بغداد، الذين قام سكانها بذبح ما يقدر بأنه بضـــعة آلاف منهم فى ليلة واحدة ووضعوهم فى صناديق خشبية وشـــحنوها إلـــى مصر . كان هذا سنة ١٩٨٨ عندما كنا أعضاء

معهــم فــيما سمى إذ ذاك مجلس التعاون العربى. لماذا كان هذا المجلــس وكيف نشأ ؟ كان قد سبقه ما يسمى "مجلس تعاون دول الخلــيج" ، وهــو ما يزال قائماً ، قد أتيح لى أن أزور جميع دول الخلــيج (وجمــيع الــدول العربــية فى الواقع) . وطفت أنحاءها بالســيارة فــى رحــلات عمل متعددة ، تخرج من أحدها وتدخل الأخرى دون أن تعرف ، فهى ذات النمط ، نفس المناظر فى كل شــئ، جمــيع المــدن جديدة ، والمال الوفير الذى جاء من النفط يجعلها كلها حديثة ، والسيارات كذلك، والملابس وكل شىء . قد يكــون لديهــم مــبرر لتنســيق أمــور التبادل التجارى والمالى والمصــرفى والعمــالى وشؤون العمل والإقامة، إلى جانب ربط شــبكات الكهــرباء والنقل والطيران..إلخ، ما أن نشأ هذا المجلس حتى نشأ مجلس تعاون آخر يضم مصر والعراق والأردن واليمن ، إلــخ ، إحنا كمان ، ما حدش أحسن من حد ، وفى الحال ، نشأ أيضاً مجلس التعاون المغاربى ، وهكذا . هذه هى السياسة العربية فى أروع صورة لها! كم من الملايين يتكلفه هذا وما الذى سيأتى من ورائه ؟ إحنا مالنا .. أتعرفون هذه أيضاً ؟ قال له : الدنيا حر النهاردة، فصاح به : حر حر إحنا مالنا يا أخى ..

من السهل أن نرى شبح الغوريلا وراء هذا ، أطمــاع صــدام الذى تحدث عن اقتسام الثروة، وهو يحكم بلداً لديه ثروة من النفط والماء والطاقة البشرية لو أحسن إدارتها لأصبحت العراق أمثولة للعالم . أظن أن الرئيس مبارك كان يحضر هذه الاجتماعات على مضــض، أعــتذر عــن اضــطرارى للتخميــن، إذ ليست هناك معلومات، ولكن الذى نعرفه أنه عندما وقع العدوان البهيمى على الكويت وقف رئيسنا وقفة الحاكم المسؤول، وبقية القصة معروف، وبعدها طبعاً انمحى هذا الشىء ..

الذى يعنينا فى هذا المقام أن مصر كانت عضواً مع العراق فى ذلــك المجلس عندما وقعت تلك المذبحة التى راح ضحيتها آلاف

من الشباب المصرى ، يقال إنها بدأت بماتش كورة ، ووقع اعتداء على المصريين فقاموا بمظاهرة فى شارع بغداد وسرعان ما جاء العراقيون يدوسونهم بسياراتهم ، يقتلونهم لا لشىء إلا لأنهم يمكنهم ذلك. لا شك أننا نقرر الحقيقة عندما نصف الإسرائيليين بالوحشية لأنهم يواجهون بالرصاص شعباً أعزل فى فلسطين ، فقط ، بماذا إذن نصف مذبحة بغداد هذه ؟ الأهم من ذلك: كيف ترى نظرة العالم إلينا ونحن نتحدث عن لم الشمل إلى آخره ؟ وعن حقوق العرب وأننا أمة واحدة ، إلى آخره هذه السفاهات .

ومما هو أكثر طرافة فى هذا الموضوع أن الزعيم الأوحد علق عليه بقوله مبتسماً : يظهر أن العراقيين منذ الحرب (يقصد الحرب مع إيران والتى كسبوها بالغازات السامة) أصبحوا يتكلمون بأيديهم بدلاً من ألسنتهم . فرحان حضرته بشجاعة شعبه فى دهس الناس بسياراتهم، ترى ما آخر تطورات فسيولوجيا الأعضاء فى العراق هذه الأيام ؟ بماذا يتكلم اشقاؤنا الآن ؟

ليست هذه هى المناسبة الوحيدة. وقع صدام بين الجزائر والمغرب فى الستينيات وتدخلت الشقيقة الكبرى، ووقع ضباط مصريون فى أسر المغاربة، وأيام الانفصال فى سوريا اعتبر الضباط المصريون أسرى عند السوريين ، وعقب الغزو العراقى اضطر المصريون إلى الفرار عن طريق الأردن لأنه لا يوجد طريق آخر، وطبعاً ينتشر المدرسون والأطباء والفنيون المصريون فى جميع الدول العربية . فى جميع هذه الحالات عومل المصريون ــ ومازالوا يعاملون ــ على أنهم كائنات دنيا. عبيد المنطقة .. بل إنه معروف عن أحد حكامها أنه لا يتحدث عن المصريين إلا بتعبير معين مهين ، يشير إلى فقرهم وحاجتهم . لن أقول : بسبب القضية ، نحن الذين جئنا بهذا كله لأنفسنا .

الفظائع التى نسمع عنها لن أورد منها شيئاً هنا ، ومنها مثلاً اغتصاب أطفال ، وجلد آبائهم عندما يحتجون ، وضرب المدرسين

بواسطة التلاميذ ، ولم لا ؟ إنه معتاد جداً أن تسمع في مجالسهم : ولمـــاذا لا نحارب ؟ ماذا لو مات بضعة ملايين من المصريين ؟ الـــذى يعنينى هنا أكثر من أى شىء آخر هو الجهل الذى ينطوى علـــيه هذا الكلام . هل الحرب الحديثة مسألة كم مليوناً يموتون ؟ أتعـــرف كـــم إسرائيلياً ماتوا فى حرب ١٩٦٧ ؟ حوالى ستمائة . ولكن الزعيم الخالد هو الذى سبق إلى هذه الفكرة ، أخذته الجلالة فى واحدة من خطبه وصاح طالباً التصفيق : نجند خمسة مليون ! هم ما يقدروش يعملوا دى ! وفى مناسبة أخرى ، بعد الوكسة هذه المـــرة، كان يتحدث عن مقاومة أى غزو يحدث : "أهو بالسكاكين بالنبابيت ، أيه سكاكين يا هذا وأيه نبابيت ؟ لم يذكر من أين سنأتى بخمســـة ملاييـــن نـــبوت ، يمكن من تشيكوسلوفاكيا ، يظهر أن الرئيس اليمنى يشاركه عقيدته القتالية ! على قدر افتقاره للعلم بكل شـــىء فى هذه الدنيا ، كان جهله بالأمور الحربية يفوق نظيره فى كل ناحية من نواحى الحياة ويدل بوضوح على مدى عجزه عن أن يتعلم أو يستوعب أى شىء . وأظن أن هذا كان واضحاً تماماً سنة ١٩٦٧ بـــل إن هذا ليس كل شىء ، فى عقر دارنا تقع حادثة مثل سميرة مليان . "الثرى العربى" كما أسمته الصحف، هو وأشباهه، لا يـــرون فـــى مصـــر سوى ملاهى الهرم وملحقاتها من بيوت الـــزمالك والعجـــوزة، وهـــم فوق القانون ، من الذى يجرؤ على محاســـبتهم . بداية هذا كله كان زوجة الطالب السودانى وزعامة أمـــثال صلاح سالم . لعل هذا كان فى ذهن الرئيس مبارك عندما قـــال لهم : حاترجع تانى نحارب لآخر جندى مصرى ..؟ صدق والله ، فالمصريون يتندرون بهذا منذ سنوات طويلة .

لمـــاذا ؟ تفسير هذا عند المتنبى ، ولو أنه لم يكن يقصد مصر هذه المرة :

من يَهُن يسهل الهوان عليه ما لجُرح بميت إيلامُ

عبد الناصر والسادات :

أوردنا فيما سبق ما هو منسوب لنجيب محفوظ وأنيس منصور بشـأن هذيـن الحاكمين، كلتا المقولتين لها قيمتها، وإن تكن غير مكتملة المنطق والمضمون .

لكي نتحدث عن النصر والهزيمة ويكون لكلامنا قيمة ومغزى ، لابد لنا أن نحدد على من كان الانتصار وأمام من كانت الهزيمة ، وأن تكون رؤيتنا واضحة ، فلا نقول مثلاً أننا خرجنا سنة ١٩٦٧ منتصرين لأن هدف إسرائيل ـ وهو إسقاط الثورة ـ لم يتحقق ! مع أن كلاً منا يعرف في قرارة نفسه أن الإسرائيليين لم يستفيدوا من شيء بقدر ما انتفعوا بما نسميه نحن الثورة ، ولو أنهم أرادوا إسـقاط عـبد الناصر لفعلوا بسهولة في تلك الأيام ، ولأقاموا له تمـثالاً فـي تل أبيب كما يقول الأستاذ الحكيم . المصريون الذين أحسوا بالانتصار في تلك المناسبة هم الذين رقصوا عندما تأكدوا أن مرتباتهم مستمرة .

ويلحـق بذلـك أيضـاً نصر ١٩٥٦ الذى تحقق عندما أعلنت القوتان العظميان في ذلك الوقت أنه "لا ثالث لهما"، وسقط أنتوني ايدن لا لأنه "خرع" بل لأنه ـ هو أيضاً ـ لم يدرك أحوال العالم جيداً ، وبالتأكيد فإن إيدن لم يكن ـ بحكم ماضيه ـ اختياراً موفقاً لـزعامة حـزب المحافظيـن ـ ومـن ناحية كسب عبد الناصر للصراع فنحن طبعاً نعرف ماذا كان مصير القناة وماذا كان يكون لـو لـم "يرحل عن دنيانا". حياة عبد الناصر كانت كلها فشلاً في فشل، سوريا، اليمن، العرب، حيثما ذهب لم يحقق شيئاً، والأسهل أن نعد انتصاراته، هناك معركة عسكرية واحدة انتصر فيها وهي معـركة كمشـيش . فينا نقص فظيع عندما نفكر في هذه الأمور، مضمونه أننا لا نحاول أبداً أن نتصور رؤية العالم لنا ونحن ننقض بالدبابـات على أسرة من الفلاحين بنسائها وأطفالها، وكما نشرت

الصحف، ومنها الأخبار، بعد "الرحيل" طبعاً، الكثيرون رأوا فيها ما لا تقارن به دنشواى التى فضحنا بها الإنجليز . لا أحد يعرف حقيقة الموضوع حتى الآن ، قال أيه عضو فى الاتحاد الاشتراكى قتلوه . نأتى بالكلاب تهاجم الرجال والنساء، ونلبس الرجال ملابس النســاء ولجـم الخـيل .. مــا الذى يدل عليه هذا سوى البهيمية والخيــبة؟ ثم .. لجنة تصفية الإقطاع ، فرقة من الحشاشين والقتلة وخبراء التعذيب واللصوص .. نعم، عبد الناصر مات منتصراً فى التليفزيون فقط، والآن إلى السادات.

كما نعرف كانت سياسة مصر ــ واقتصادها وصناعتها ــ تقوم على الشعارات بصفة أساسية، وفى عيد العمال سنة ١٩٧١ وقف الســادات يحــذر "اللى بيخدعوا الشعب بالشعارات"، وما لبث أن بطــش بهم بشكل يدل على مدى خيبة هؤلاء الذين كان الشعب ــ ومازال للآن ــ يرتعش منهم خوفاً ! إذا أردت مقارنة بين هذين، خــذ هــذه : "دولة تصون ولا تهدد، تحمى ولا تبدد، نصادق من يصــادقنا، نعــادى من يعادينا"، الركاكة وحدها تكفى، هذا السجع الردئ والمضمون السفيه ، فقط تأمل هذا المبدأ الذى يصلح تعبيراً عن السلبية : نصادق من يصادقنا، نعادى من يعادينا ؟! معنى هذا أنــنا لا إرادة لنا فى الأمر، نحن نجلس هكذا كالبلهاء، إذا غازلونا استجبنا لهم، وإذا هجرونا بادلناهم الشعور ! طبعاً، فنحن لا نعرف شيئاً عن العالم، سواء الأصدقاء أو الأعداء، ألا يذكرك هذا بــ "إذا أرادت إسرائيل الحرب فأهلاً وسهلاً "؟ أنا أقعد كالتيتل وهم الذين يقررون ما يريدونه وما نفعله نحن نتيجة لذلك . قارن هذا بقرار السادات أن يبدأ بالهجوم الجوى على قوات تملك ثالث أقوى سلاح طــيران فى العالم ، قارن هذا بقرار الاقتحام الذى أعطى إسرائيل علقــة لــم يسبق لها مثيل ..، ونحن نحارب بأسلحة عتيقة رديئة، قارن هذا بقرار إخراج السوفيت من مصر قبل ذلك بسنة واحدة، وللذيــن يهــرفون بــأن عبد الناصر كان ينوى الحرب، والروس

موجودون يا ترى؟ هم أيضاً لا يحاربون إلا فى لتوانيا وأذربيجان، هـم أيضـاً قعدوا كالبلهاء إلى أن محقهم النازيون، وكان طردهم أساسـياً لشـن الحـرب ضد إسرائيل، وقبلها بسنة واحدة، حدثت المواجهة مع العصابة التى أسموها "مراكز القوى" ــ إذا أردت أن تـتأكد أن المصـريين يفهمـون جيداً، خذ هذه النكت التى كانوا يحكونها: "أنا حامشى على خط عبد الناصر..بالأستيكة !" ــ سائق السادات يقول له : الريس عبد الناصر كنا لما نيجى هنا يقول لف شمال، "طيب، سوق يا ابني، إدي إشارة شمال، ولف يمين " .

لماذا ؟ لماذا ألبس السادات نفسه عباءة عبد الناصر وحمل نفسه مسؤوليتها مع أنه لم يكن يشارك فى السلطة بشكل يجعله مسؤولاً عما وقع ؟ بل إنه بمجرد أن تولى السلطة ، قال بوضوح "أنا مش حـاكون ماركسـى" ــ هكـذا بوضوح ؟ لماذا لم يقف كما وقف خروشوف ويفضح تلك "الحقبة السوداء فى تاريخ مصر" كما ورد فى حيثيات إحدى قضايا التعذيب ؟ بل إن الأمر وصل بنا إلى أن عـدداً مـن كتابنا ومفكرينا تقدموا إليه قبل حرب أكتوبر ببضعة شـهور بالعريظة المشهورة ، والتى يشكون فيها من ضياع البلد وحالة أجيال الشباب من حيث الإحتلال .. الخ ؟ السؤال الذى هو أكثر جدارة هو: ما الذى كان يحدث لو أن هذه العريظة قدمت إلى الحـاكم الـذى وقع كل هذا فى عصره، يا ترى ؟ مذبحة الكتاب والصحفيين ؟ الواقع أن الوليمة عندما انتهت ، كان دور السادات هـو أن يدفع الفاتورة ! مع أنه الوحيد الذى لم يحضر المأدبة أو على الأقل لا ذنب له فى ذبح الجاموسة .

بل إنه ذاق الأمرين من جميع الفئات والطوائف . كل الطوائف كانـت مهضومة الحقوق منعدمة القدرة مكتومة الأنفاس، الأقباط مـثلاً، لم تكن تحس بوجودهم أيام عبد الناصر، لا فى الجيش ولا فـى الحكومـة ، العسكريون منهم لا يصلون إلى الرتب الكبيرة وحـتى من يتعاطون الحشيش (إن وجدوا ، كانوا قليلين) لم يكن

منهم أحد فى شلة النائب الأول ، السادات ، ولأول مرة ، عين واحداً منهم قائداً للجيش الثانى . وكانت قد سرت إشاعة قذرة منحطة تزعم أنهم تعاونوا مع الإسرائيليين فى عملية الثغرة ، إلا أن هذا لم يشفع له ، فقد جاء بعد عصر العبودية ليبشر بالحرية والانفتاح والديموقراطية . ألست تقول الحرية ؟! حسناً ، أنا أيضاً أريد الحرية ! الحرية يعنى للجميع ! وهكذا قامت قيامة الجميع من ماركسيين وإسلاميين ، ولو كان فى البلد دروز لقامت قيامتهم هم أيضاً. وقد أدى هذا إلى شعور إخواننا الأقباط بأن لديهم شكوى أيضاً. وطبعاً ، من العبث أن نشكو من رحلوا، ولعل من أسوأ ما رأيناه فى عصر السادات تلك الأزمة التى حدثت مع البابا شنودة ، صحيح أن السادات حاول كثيراً إصلاح الموقف، أنا أعترف له بذلك، إلا أنه كان يجب أن يتحاشى الإساءة إلى رجل فى هذا الموقع، مهما كان الذى سيتحمله نظير ذلك. وبالتأكيد، لم يكن ما فعله معه ضرورياً على وجه الإطلاق.

إلا أن هذا كله هو ما يأتى ــ فى رأيى المتواضع ــ تحت عنوان التحول من الشمولية إلى الوضع الطبيعى لحياة البشر، وهو ما أحب أن أسميه "أن تلزم السلطة حدودها" ــ وأن تعرف الحكومة أن عملها هو إقرار النظام العام وليس أن يمسك البيروقراطيون بالرغيف ويوزعون اللقمة على الذين دفعوا هم ثمن هذا الرغيف .. "سيندروم الخصخصة" هذا، وهو محتوم أن يحدث .

"كنا عبيد وبقينا أحرار" :

هكذا تقول الأغنية الشهيرة "ع الدوار" . إنصافاً للحقيقة فإن هذه الأغنية ظهرت فى أعقاب الحركة المباركة مباشرة، وإن كنا ما نزال نرتكب جريمة إذاعتها فى أعياد الثورة المجيدة. والجريمة هنا لا تتمثل فى مجرد خديعة الأجيال بهذا الكلام السفيه، بل فى

الإسفاف فى النغم والركاكة فى اللفظ، إفساد أذواق الناس بالهبوط، وتعويدهم على الطبل والزمر بالسماجة التى ألفناها ، وغرس فكرة أنـــه لا حــياة لشعب بدون فلان الفلانى، هو فرض أسوأ نوع من العبودية عليهم . قد يكون فى التاريخ حكام "عظماء" ، إلا أن هذا فى رأيى المتواضع أمر نادر الحدوث ، وأنا فى الحقيقة لست أرى فى أمثال حامورابى و بختنصر وتحتمس الثالث ويوليوس قيصر ونابليون ، لست أرى فيهم سوى قتلة متوحشين ، وأظن أن القارئ ســيوافقنى لــو أنه تخيل نفسه مكان رب أسرة فى المناطق التى اجتاحــتها جــيوش هؤلاء ، لو أنه تصورهم وهم يقطعون رقبته ويغتصــبون امرأته وبناته ويبيعون أبناءه فى أسواق العبيد ، كان هذا يحدث، بل ومضى يحدث لغاية الحرب العالمية الثانية ، على أيــدى النازى وحلفائهم اليابانيين ، وكان يعتبر أمراً شرعياً تماماً وقانونــياً تمامــاً . حتى نابليون الذى يريد أن يغزو العالم بدعوى نشــر مــبادئ الحــرية والإخاء والمساواة أعدم آلافاً من الأسرى الأتراك ، ثم تركهم يمسكون به ويحبسونه كالفأر ، طب انتحر زى هتلر أو .. "عبد الحكيم" . كل هؤلاء يموتون ، ويبقى وجه ربك . كلهــم ماتوا ، ماوتسى تونج كان أقرب شيء إلى الحاكم "الإله" ــ والعياذ بالله ــ فى العصر الحديث . مات ! وكذلك عبد الناصر ، وأنا أميل تماماً إلى تصديق نظرية أنه مات بنفس السم الذى قتل به كثــيراً مــن أعدائه وأعوانه ، وهذا كان موضوع كتابات كثيرة . كــان الغرض هو إزاحة هذا المتسلط الذى يظن أن الشيوعية هى أداة فــى يده بينما أنبياؤها يرون العكس . وكان على صبرى ــ بــتاع السجاجيد ــ هو الخليفة المنتظر ، فتأمل أى قدر من الأذى أزاحه السادات عنا . هو طبعاً لم ينقذنا ، لست أقول هذا إطلاقاً ــ فلا يقدر على إنقاذنا إلا سبحانه وتعالى، إذا شاء !

إن القــول بأن شعباً لا حياة له إلا بقائد معين ، حتى ولو كان يســتحق هــذه التسمية ــ والحالة التى نحن بصددها ليست كذلك

إطلاقاً – هذا القول هو أقسى إهانة توجه لهذا الشعب . إذ إنه كيف تكون حياة الشعب – وهى تمتد آلاف السنين – رهينة بحياة بشر لا تمتد عادة إلى قرن واحد فقط ، وكما رأينا فإن زعيمنا البطل لم يستطع حتى أن يعيش إلا نصف قرن فقط ؟ ثم "رحل عن دنيانا" ؟؟ ومازلنا على أى حال نعيش، وسوف نظل نعيش إذا تمكنا من إزالة آثار العدوان ، ليس عدوان إسرائيل، فهذا أزلناه، عدواننا على أنفسنا هو المطلوب إزالته.

تأليه الحكام كان دائماً طريقاً إلى عبودية البشر، بدأ هذا النوع من العبودية يتلاشى مع تقدم المعرفة وبداية عصور التنوير، وظهور الحاجة إلى إشراك الشعوب فى إدارة شؤونها.

ما هى العبودية ؟ أو بلاش "هى" عشان ما يزعلوش مننا بتوع النحو، ما العبودية ؟

العبودية هى إمتلاك فرد – أو أسرة – لفرد آخر، وبالتالى لأسرته . وكما هو معروف ، فإن المهاجرين إلى الدنيا الجديدة، كانوا يمتلكون العبيد المستوردين من إفريقيا ، فى واحدة من أحداث التاريخ البشرى التى تشكل وصمة قبيحة على وجه إنسان هذا الكوكب ، ويتمثل امتلاك الأسرة لأسرة أخرى ، فى أنهم يرثون العبيد كما يرثون الأرض ، وعندما تلد امرأة سوداء، فإن وليدها يصبح أيضاً عبداً مملوكاً لمن يملكها هى ، سواء أنجبته من زوج أسود مملوك ، أو من السيد الأبيض الذى يملكها . ومعروف أن هؤلاء "السادة" كانوا يمارسون الإنجاب من هؤلاء النسوة ، لكى .. يبيعوا هذا الإنتاج الزراعى كما يبيعون الإنتاج من الماشية ، بشكل يذكرنا بقصة يوسف الشارونى "الرجل والمزرعة" ، حقاً ، لماذا لا تعامل المرأة معاملة المزرعة ، تغرس فيها البذور ويلى ذلك تسويق الإنتاج ؟ نحن نعرف أنه بعد إلغاء الرق ، مازال هذا يحدث طواعية ، بسبب الفقر .

إلا أنه علينا أن نذكر أن المهاجرين الأوربيين إلى أمريكا ليسوا

هـم الذين اخترعوا الرق ، كان موجوداً قبلهم بآلاف السنين، وإن كـان لا بـأس طـبعاً بأن نقول أن الأمريكان هم الذين ابتلوا به البشرية إن كان يلذ لنا ذلك . الواقع أنهم خاضوا حرباً أهلية أغلبنا لا يعـرف عـنها إلا أن حب سكارليت أوهارا لآشلى "ذهب مع الـريح" ، هـذه الحرب المأسوية الفظيعة استمرت خمس سنوات وراح ضـحيتها مـئات الألـوف من الأمريكيين، كان سببها أن الولايات الشمالية رأت تحريم الرق، أسوة ببقية أنحاء العالم ومنها كـندا إلى شمالها والمكسيك إلى جنوبها، ولكن الولايات الجنوبية الـتى كانـت تعيش على زراعة القطن فى زمن لم تكن تشيع فيه الطاقة الآلية، رفضت ذلك وأعلنت الانفصال عن الاتحاد مما كان مخالفاً لميثاقه ، فقامت الحرب ، ولكن العبودية ترجع إلى مجـئ الزراعة بعد عصور التجوال وممارسة الصيد وجنى الثمار .

نذكـر هـذا كله لا لعلاقته المباشرة بما نحن فيه ، وإنما لندلل علـى العلاقـة الوثـيقة بين النشاط الاقتصادى من جهة ، والقيم الإنسانية من جهة أخرى .

كـان الـناس يفرضون العبودية على المستضعفين من البشر لدوافـع اقتصادية فى المقام الأول ، وإن تكن لهم فى ذلك مآرب أخرى كحريم السلطان وغير ذلك .

كـان مجئ الطاقة الآلية سبيلاً إلى نبذ هذا كله ، وبرغم ثورة العبيد بقيادة الزعيم سبارتاكوس ، والتى جاءت قبل ميلاد المسيح بسـبعين سـنة ، فإن التحريم الكامل للرق جاء فى أواخر القرن التاسـع عشر ، سبقت ذلك خطوات وتطورات كثيرة طبعاً. ولكنه استمر بأشكال متعددة ، مازالت تتمثل حتى يومنا هذا .

الديموقراطـية هى أيضاً فكرة قديمة ولكنها تبلورت أيضاً فى ذلـك الوقـت ، ومن مفارقات القدر أن يكون ظهور كتاب كارل ماركس "رأس المال" مصاحباً لتعميم حقوق الانتخاب فى بلاد مثل انجلترا وألمانيا (على يدى بسمارك) ـ كلاهما كان يعد سبيلاً إلى

الحرية ، ماركس ــ بنظرة اقتصادية بحته ، تكاد تتجاهل كل شيء آخرـ يرى الشر كلّه فى الرأسمالية ولا يرى سبيلاً إلى تهذيبها ، وعلـــى الجانـــب الآخر نرى بين الرأسماليين ــ ومن هؤلاء مثلاً هـــنرى فورد الذى أنشأ صناعة الإنتاج الكثيف وأعلن أنه سيجعل من عمال مصانعه ملاكاً للسيارات ، ونجح ــ نرى من بينهم من يؤمن بأن الحرية تتمثل فى رغد الحياة ، وبأن الحرية سياسية بقدر ما هى اقتصادية ، وأنه يمكن بكل تأكيد إصلاح قوانين العمل بما يمكـــن مـــن الحد من شرور الرأسمالية مع الاستفادة بثمارها التى تـــأتى من إطلاق طاقات الإبداع الخلاق ، وكما نرى فى عصرنا هـــذا فإن علوم الإدارة قد تطورت إلى حد أن صنع القرار أصبح يأتى بالمشاركة الديموقراطية ، لا على مستوى الدولة فحسب ، بل فى المؤسسة الاقتصادية أيضاً ، وقد أصبحت الإدارة والقيادة كل مـــنهما علماً له نظرياته وقواعده. أنا شخصياً وقد انتميت لصنعة الإدارة وتنمـــية المـــورد البشـــرى أربعين عاماً ، لست من هواة إخضـــاع سلوك البشر لقواعد العلم التجريبى ولكنى ما أزال أؤمن بـــأن الملاحظة واستنباط القواعد هى السبيل الوحيد إلى المعرفة ، والمعرفة هى السبيل الوحيد إلى القوة .

كان التطبيق الأول للنظرية الماركسية فى الاتحاد السوفيتى كما معـــروف. لســـت أرانى مضطراً لأن أكتب عن الفظائع ، فالدنيا مليـــئة بمؤلفات ألكسندر سولزنتسين وأندريه ساخاروف وغيرهما مـــن قائمة طويلة من الذين عاشوا تلك التجربة التى سأصفها بأنها غير آدمية ، وسأكتفى بأن أذكر أن لينين ــ الذى يشهد له فيلسوف مثل برتراند راسل بأنه لم يكن مجرد طامع فى السلطة بل زعيماً يؤمن فعلاً بما يدعو إليه ، والذى آمن به رسل نفسه فى شبابه ثم زار الاتحـــاد السوفيتى وقابل لينين وأصيب بخيبة أمل بقيت معه نصـــف قـــرن لغايـــة وفاته ــ لينين كان يوقع قوائم الإعدام على بـــياض ويعطـــيها لتروتســـكى ليضع الأسماء ، وبعد موته ، لقى

تروتسكى نفس المصير على يدى ستالين الذى أرسل فرقاً تلاحق أولاده وتقــتلهم ثــم تقتله هو فى مقر إقامته فى المكسيك ، واتخذ ستالين لنفسه جلاداً هو لافرنتى بيريا، وبعد موته انقض مالينكوف وبولجانين وخروشوف على هذا الأخير وقصموا رقبته فى اجتماع المكتب السياسى للحزب ، وهكذا ..

كــل شــعب يكون شعباً من العبيد عندما تكون رقبة الإنسان مصــيرها فى يد الحاكم، ومعها رزقه أو لقمته طبعاً. بائع الفجل كــان حــراً فى حياته فى بلادنا وفيما يعمله من أجل رزقه ولقمة أولاده، لا يمكــنك أن تتعرض له بالإيذاء أو أن يصل هذا إلى حد تعذيبه وقتله، مساعد نيابة تخرج أمس من الجامعة يمكنه أن يحرك الدعــوى الجنائية ضد من يرتكب جريمة كهذه ، كنا إذ ذاك عبيداً وأصــبحنا أحــراراً عــندما أصبح وكلاء الوزارة والدبلوماسيون يضــربون بالشلاليت ويحبسون فى الأقبية، عندما أصبحت رقابنا تقطــع لمجــرد الاحــتجاج علــى خراب البلد واحتلالها بواسطة "عصــابات الهمج الصهاينة"، بأحكام إعدام تصدر فى مقر القيادة الــذى كان مرسى لسفن الملك الفاسد الذى انصلحت أحوالنا عندما تخلصــنا منه، كنا عبيداً عندما كان رجال القانون عندنا من نوع السـنهورى ــ الذى ضرب فى قلعة القانون بأيدى رعاع يقودهم رعــاع، ووحــيد رأفــت، وقضــاة يقدمون على الانتحار عندما يــرغمون على مخالفة ضمائرهم، وأصبحنا أحراراً عندما لم يعد هناك داع لذلك، عندما أصبحت محاكمنا يرأسها أمثال جمال سالم والدجوى، كنا عبيداً عندما كان عندنا أطباء مثل أنور المفتى، الذى صدر حكم بإعدامه أيضاً، كنا عبيداً عندما كان لدينا أدباء يعيشون من دخل مؤلفاتهم، حياة متواضعة طابعها التقشف، بلا شك، مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم، فهذه هى الحياة التى يريدونها، حياة "راهب الفكر"، وأصبحنا أحراراً عندما أصبح كتابنا يخاطبون لجان وزارة الــثقافة ومجالســها ، هذا إن كان هؤلاء يقرءون ما يقدم

إلـــيهم، وليس الجمهور، فليس هناك جمهور، فالعبيد ــ سواء فى الدنـــيا الجديدة أو القديمة، لا يقرءون .. إنهم مشغولون بلقمة تلقى إليهم، فقد رأوا الوزراء يقال لهم: أنا ماعنديش حد يستقيل، لماذا؟ لماذا لا يحق للوزير أن يستقيل ؟ لأنه ليس حراً، إنه عبد مملوك. "أنـــا أطرده معلش !" ــ وعندما طرد الوزير ممتاز نصار، خرج من مكتبه ووراءه "قانون" يمنعه من كسب لقمته خمس سنوات!

هذه هى الحرية التى نلناها بعد العبودية .

لعنة الله عليها وعلى من جاء بها إلى يوم يبعثون ..

أوجاع الخصخصة :

قــرأت محادثة فى مجلة عالمية ، مع جنرال ألمانى كان رئيساً للأركان فى ألمانيا الغربية ، عند توحيد شطرى ألمانيا . وكان مما قالـــه أن مشـــكلة توحـــيد القـــوات المسلحة ليست فى التسليح أو التدريـــب، كـــل هذا مقدور عليه ، إنها تتمثل فى أن إنسان ألمانيا الشرقية ليس هو إنسان ألمانيا الغربية ، إنه فصيلة مختلفة .

للقـــارئ أن يمســـك بخريطة العالم ويتأمل دول أوربا الشرقية وأحوالها قبل وبعد اندحار الشمولية . إلا أن هذه الدول سوف تجد من يمد يده إليها لينتشلها من أوحال الحكم الشمولى ، فهى ما تزال أعضاء فى النادى الغربى وأجزاء من التراث اليهو مسيحى الذى بدأ يسود العالم منذ أربعة قرون ومازال يسوده بفعل تقدم المعرفة ووسائل القوة ونوعية الحياة . إلا أن الأمر يختلف تماماً فى دول العـــالم الثالث كما يسمى ، وكما نعرف فإن العالم الأول يضم كندا والولايـــات المـــتحدة واســـتراليا ونيوزيلندا واليابان ودول أوربا الغربـــية وإســـرائيل (أنـــا لا ذنب لى فى هذا ، فالتقسيم له قواعد ومقايـــيس فى مستوى المعيشة والأجور والتعليم والنظام السياسى والإدارى..إلـــخ ، ســـتجد أن جمـــيع المـــراجع العالمية تتبع هذه

المقايــيس) أمـــا العالم الثانى فهو ــ أو كان ــ الاتحاد السوفيتى وتوابعـــه الأوربية ، بقية العالم هو العالم الثالث، وهذا أصبح الآن ينقسم إلى خمس فئات ، إذ إنه لا يمكن أن نساوى بين الأرجنتين و رواندا مثلاً . مصر الآن تصنف على أنها من الفئة الثانية ، بس مـــن تحت .. يعنى ليس دوننا ــ بحكم المقاييس التى ذكرناها ــ ســـوى البلدان المصدرة للخامات فقط . وسوف تجد أن هذه الفئة الثانـــية تضم جميع دول العالم الثالث التى ألبسها دكتاتور أو آخر عـــباءة الشـــمولية . التطبيق الشيوعى فى دول العالم الثالث يأتى مصـــحوباً بالـــتخلف الأصـــلى ، الفقر والجهل والمرض ــ هذا الثالوث التاريخى ــ تتكون منها نقطة البداية ، إنها ليست النتيجة النهائـــية ، الفرق هنا يشبه ما تجده فى حالة اثنين أدمن كل منهما الحشـــيش والخمر مثلاً ، أحدهما كان شاباً صحيح البنية ، والثانى عجوز معتل ، بدلاً من أن "يمشى جنب الحيط" ، فعل بنفسه هذا .

أصـــبح واضحاً تماماً أن الشمولية تنطوى على تطبيق لدرجة مما يسمى "التماسك الاجتماعى "social cohesion " يفوق بكثير ما هـــو مطلوب لتحقيق الأمن ، فردياً كان أم جماعياً ، وعلى انتفاء لكـــيان الفـــرد يقتل الموهبة ويدمر الشخصية وتنتفى معه الآدمية تمامـــاً . ولكنه مريح جداً للحاكم الذى يريد أن يرث الأرض ومن عليها وما عليها . إما الشيوعية وإما الشيعة أو شىء مماثل لها ، وقد رأينا واحداً من حكام دولة عربية إفريقية يمارس الأولى ولما أوشـــك أن يســـقط لتآمر أعوانه عليه ، انتقل إلى الثانية . الفكرة واحـــدة، تكويـــن فرق من الفتوات تثير الذعر فى النفوس وتقتسم الغنـــيمة. هناك ثلاث كوارث، إذا أصابت واحدة منها ــ أو أكثر طـــبعاً ــ مجـــتمعاً أو آخر، فإنه يصبح مثل المريض بالإيدز، لا يمكـــن علاجـــه إلا بالموت، ويا ويل من سيدفنونه، هذه الكوارث هـــى: تدخل الجيش فى السياسة أو خروجه بأى درجة عن واجبه فـــى الدفـــاع وخدمات الطوارئ، ثم: استيلاء الدولة على النشاط

الاقتصـــادى أو ســيطرتها عليه، ثم : استخدام الدين فى ممارسة السياســة وإدارة الحكم . آلاف الأمثلة من التاريخ القديم والحديث لــك أن تنفق سنوات فى دراستها إذا شئت . النظرية ليست جديدة على الإطلاق .

مجـتمعات كثيرة بدأت تحاول التخلص من نتائج هذه المصيبة الكــبرى: الشــمولية. مــنها مصر كما نعرف: الجهود التى تبذل صــادقة، ولكن المشكلة ليست سهلة، إنها تشبه تماماً حالة المدمن الذى يريد أن يكف عما جلبه لنفسه. ولكنه سرعان ما يكتشف أن :

أولاً : الانقطاع عن الصنف لن يؤدى إلى شفائه من الأضرار التى نجمت عنه، خلايا مخه التى تلفت لن تعود إلى الحياة لمجرد أنــه "بطَّل الشئ"، سيظل يعانى من دمار جهازه العصبى. أو إذا كنــت تفضل التشبيه بمريض الإيدز، فإن هذا الأخير لن يتخلص مــن الفــيروس اللعين بمجرد الإقلاع عما كان هو الطريق الذى جاءه منه أصلاً .

ثانــياً : بدايــة العلاج تصيبه بتقلصات فظيعة تجعله يحن إلى الصنف، ويأتى عليه أوقات يحس فيها بأنه جلب لنفسه مصيبة بأن لجــأ إلى الطب النفسانى، وأنه كان أحسن حالاً وأهدأ بالاً قبل أن يفعل هذا بنفسه، ليس هناك أى إشباع لحاجاته الملحة ..

حالة مصر تشبه حالة قطار توقف فى المحطة. قطار به بعض الأعطــال والمشكلات الآلية ولكنه يسير بشكل لا بأس به. توقف فــى المحطــة وبينما السائق يتناول رشفة من كوب الشاى، دخل واحد من الركاب وقذف به من باب القاطرة وحل مكانه. لم يعرف مــاذا يفعــل بهــذه الأذرع المحيطة به فبدأ يجربها. بقية العمال افترضــوا أنه لابد لديه دراية بما يريد عمله، فتركوه أول الأمر، وإذا بالقطار يندفع بسرعة مخيفة ومتزايدة، حاولوا مقاومته فاتضح أنه ليس وحيداً فى عملية الاختطاف هذه فمعه جيش من الفتوات، صيحات المصابين من جراء مقاومة بقية أفراد العصابة امتزجت

بصـــيحات ركاب الدرجة الأولى وعربة الطعام وعربة مخصصة للسائحين. خرج القطار عن القضبان ولكنه مضى يزيد من سرعته ظـــناً مـــنه أن القطـــار مزود بعجلات من المطاط، انقلب القطار وتبعثرت العربات هنا وهناك، مات من الركاب نحو ربع مليون، وجـــرح كثيرون، سرعان ما تكاثرت الطيور الجوارح إلى حد أن الدنـــيا أظلمـــت من كثرتهم، وعندما هبط المساء جاء الضباع من أعماق الصحراء ينهشون الأحياء والأموات، فالجيفة ملأت أنحـــاء المنطقة.

تخـــيل نفسك رئيساً للجنة مهمتها إنقاذ الموقف ورفع العربات تمهيداً لنقلها إلى ورش السكة الحديد، وأيضاً إسعاف من تبقى من الركاب. بعض أفراد من الدرجة الأولى وعربة الطعام اندسوا بين ركاب الدرجة الثالثة والمتشعبطين فوق السطح وأخذوا يحرضونهم على ركاب عربة الطعام وعربة السواح، وسرعان ما استجاب لهم الجرحى والجياع، وأنت وأعضاء اللجنة مضطرون لحماية أنفسكم أولاً مـــن الهجمـــات الشرســـة من الحدايات والضباع وأيضاً من الفـــتوات الذين أصبحوا الآن يتحكمون في بقية الركاب باستخدام الـــتحريض وإشعال نيرانِ الغيرة، أصبح هؤلاء يعتقدون أن الفتك بالسواح سيفسح لهم مكاناً فوق السراير المريحة، وأنت تعرف أن الفـــتوات قـــد استولوا على السراير وعلى ما تبقى من الطعام فى عـــربة الأكل، بل واختطفوا الصحون والأدوات وأخفوها ليتجروا بهـــا بعد ذلك، وأنت تصرخ فى التليفون مطالباً المصلحة بإرسال عربات إسعاف وعربات نقل وأوناش لرفع العربات..وهم يقولون لـــك أنهـــم لعدم توفر هذه الإمكانات، قد تعاقدوا مع شركة أجنبية ســـتأتى بإمكانياتها الحديثة لتفتح مستشفيات ميدانية ونقطاً لتوزيع الطعام والأغطية، فبرغم أن الحادث وقع فى يوليو إلا أن الشهور مضـــت وجاء الشتاء، وسرعان ما تكتشف أنت أن الشركة ليست فاعلة خير، فالدنيا ليس فيها فاعلو خير على هذا المستوى، بل إن

أفــرادها بينهم هم أيضاً نصيبهم من الفتوات والأفاقين وسماسرة الخراب والنصابين وطالبي العمولات وأمناء القروض ..إلخ .

الترجمة الأكثر صدقاً لهذا الموقف هي :

ـ حكومــة وقطــاع عام بها عمالة في غاية التضخم وبطالة مقنعة تجعل البني آدم يكف عن أن يكون آدمياً، أجره زهيد لا يفي باحتــياجاته ولــيس مطلوبــاً مــنه أن يعمل شيئاً على الإطلاق، خصوصــاً وأن أفواجاً جديدة من الخريجين سوف تأتي غداً على الأكثر .

ـ ولكــن هــذا الفرد لديه شيء من السلطة، من الساعي إلى رئــيس الشركة، من رجل الأمن إلى الوزير، وعندما يبدأ الانفتاح يأتي رجال الأعمال الذين تجري الفلوس بين أصابعهم . ومن أين هذه الفلوس؟ من البنوك، التي هي نفسها أصبحت دائنة لكل شركة صــناعية أو شركة مقاولات بعشرات الملايين، ولكنها لا تستطيع أن تكف عن التمويل .

ـ كل فرد في الحكومة يمارس فرض الإتاوة على كل إجراء مطلــوب، والإجراءات كثيرة جداً، لن نستطرد هنا لأن القارئ قد شــبع من حكايات تبسيط الإجراءات أمام المستثمرين وأيضاً مما ينشر عن "الدرج المفتوح" .. إلخ .

ـ الدخــول فــي الســوق العالمــية يحد من اللجوء إلى طبع البنكنوت ، فهناك رقابة صندوق النقد وغيره ، العملة المحلية تتخذ وضــعها الصــحيح والصادق ، وهو أنها لا تزيد على واحد من عشرة مما تدعيه . أنا عندما زرت روسيا سنة ١٩٦٣ كان للروبل ثــلاث قــيم ، واحدة رسمية والثانية غير رسمية (الأولى جنيهان ونصــف والثانية ثلاثة جنيهات ونصف ، على قارعة الطريق أما الســعر الحقيقي فهو الدولار يشترى بأربعة روبلات مع أن سعره الرسمي دولار وواحد من عشرة) . طبعاً التصرفات العصبية تزيد الأمر سوءاً ، منها ما وقع عندنا في أوائل الثمانينيات عندما صدر

قــرار بمنع التحويل من الحسابات الخاصة ، "اللى عنده دولارات يجيــبها وأنا اخصص له احتياجاته" ـ نكسة من نوع جديد هذه ، وأنــا حضــرت اجتماعاً للغرفة التجارية الأمريكية كان من بين المدعويــن إليه المرحوم السيد كمال حسن على رئيس الوزراء إذ ذاك ، والسيد مصطفى السعيد وزير الاقتصاد ، الأول دعا الثانى ليجيب على سؤال عن مدى استعداد الحكومة لإعادة النظر فى هذا الإجراء الفظيع ، وكانت إجابته certainly not ، يعنى بالقطع لا، سرعان ما اتضح أنه بالقطع نعم، فالمشكلات الاقتصادية لا تنحل بالقَرارات وإلا ما كانش حد غلب، هذه العَملة تسببت فى مزيدٍ من انهــيار الجنــيه، أما الإجراء الآخر فكان أنكى وأضل سبيلاً وهو إصــدار قــرار بــأن تدفع الرسوم الجمركية على السلع المعمرة بالدولار، أدى هذا إلى تزايد سعر الدولار بمعدل عشرة قروش كل طلعــة شمس! فى كلتا الحالتين لم يكن الأمر يقتضى عبقرية آدم سـميث لكـــى نــتوقع النتائج. السلطة تتطلب شيئين : المفهومية والإخلاص. أحدهما لا يكفى . بعد هذا اقدمت الحكومة على رفع كبيرٍ لسعر الفائدة لتشجيع الناس على الادخار بالجنيه ، وحدث هذا فعــلاً وباع الكثيرون أرصدتهم بالعملات الأجنبية، وأمكن تثبيت سعر الدولار لعدة سنوات ، فقط ، مرة أخرى ، مثل هذه المشاكل تــنفع معها السياسة الحكيمة طبعاً ، ولكن إصدار القرارات أسهل بكثــير من أن يكون عملاً له قيمة أو له فائدة ، تماماً كأن يصدر الطبيب قراراً بشفاء المريض ، سواء من الإدمان أو من الإيدز . ارتفــاع ســعر الفــائدة هو نفسه شىء بالغ الضرر للمستثمرين وللاقتصــاد بأكملــه . وقــد بدا ارتفاع سعر الدولار يفرض الآن نفسه، لأن ثباته كان نتيجة إجراء إدارى ، لا اقتصادى .

ـ ارتفاع سعر العملة الأجنبية يرفع سعر كل شىء فى الدنيا، موجــة غلاء فظيعة تأتى مع الخصخصة ، يصاحبها ظهور شنيع لما أسميناه "السلع الاستفزازية" ، وهو تعبير يدل على إقرارنا بأننا

"غلابــة" ــ حسناً، نحن فعلاً كذلك، للأسباب المذكورة فى كل ما سـبق . الغـيرة ليست هى العاطفة الوحيدة التى يحس بها البشر ولكــن الحــرمان يقــدم أرضيه نافعة وخصبة تماماً لزرع الحقد وتدبير أحداث الأقصر، الضباع ومن وراءهم يلعبون علــى هــذا الوتر، وهذه من ألعن المشكلات التى تصاحب التحول.

ــ عندما يجد المستثمرون الأجانب أنهم يأتون بعملاتهم بأسعار مشجعة ثم تتزايد هذه الأسعار بشكل يعرضهم للخسائر فإنهم طبعاً لا يــتورعون عن أى عمل يحميهم منها ، بما فى ذلك الهرب بما تطوله أيديهم .

ــ الخصخصــة نفســها ، بمعــنى بيع الشركات ، تكاد تكون أصعب شيء فى العالم ، من الذى سيقبل على شراء شركات :

١- غارقة فى الديون .

٢- مثقلة بالعمالة والبطالة المقنعة .

٣- معداتها قديمة وتكنولوجيتها متخلفة .

ــ الوضــع السياســى : عندما تعلن الحكومة أنها تفتح عصراً جديــداً مــن الحرية والديموقراطية ، وهى النظام السياسى الذى يناســب الخصخصــة ويجلــب ثقة المستثمرين ورجال الأعمال العالمييــن ، فإنهــا طــبعاً لا تســتطيع أن تقاوم عملاء الخراب بإجــراءات القمع أو الحراسة أو التعذيب والاغتصاب (هذا البند الأخــير من أمجاد الثورة ، لا أنصح أجهزة الأمن بممارسته إذ لا أظن أنهم سيستطيعون أن يعثروا على الكفاءات المطلوبة ، "فرج" الــذى صاح كمال الشناوى يستدعيه ليطلقه كالكلب المسعور على ســعاد حســنى، كان من بقايا العهد البائد ، مثل بقية رجال الفكر والفــن والرياضــة ، الذين انقرضوا بعد ذلك) ولكن الاستقرار السياســى مطلــب أساسى ، لكى لا نتداوى بالتى كانت هى الداءُ بحركة غير مباركة .

ــ على الصعيد السياســى أيضــاً ، لابــد من إعــادة "دولــة

المؤسسات" ، ثم "سيادة القانون"، استمرار الشمولية الإدارية يتنافى مع الحرية الاقتصادية التى لابد منها للخصخصة ، رجال الأعمال لــن يســتثمروا ــ سواء بإخلاص أم بغيره ، وأنت تقول لهم أنك "ستصــادر نشاطه إذا انحرف" أو ستأتى فى أى يوم وتقول له أنه بــنى مصانعه "من أموال الشعب" ــ الديموقراطية إذن ! فقط .. الأحــزاب .. إلــخ ؟ الحــرية تكون للجميع ، بما فى ذلك أعداء الحــرية وسماسرة الخراب .. ، الحرية لك لوحدك وإلا أيه ؟ فى أوربــا وأمــريكا وكل العالم الحر ، ينشىء الناس ما يريدونه من أحزاب ، فما هذا ؟

هذا واحد من أوجاع الخصخصة ، "سيندروم" الخصخصة ..

الــنظام السياســى ؟ هــل نفتح الباب ونتعرض لما جرى فى الجزائر والسودان ؟

أم نقفله ، وبذلك تستحيل الخصخصة ، أو تصبح مجرد شعار ؟

العالم الثالث وأنظمة الحكم :

يقول ابن خلدون فى مقدمته إن "الملك منصب طبيعى للإنسان" وأن البشــر يستحيل بقاؤهم فوضى دون "حاكم يزع بعضهم عن بعــض" ، وأن هــذا بمقتضى الطبيعة البشرية هو "الملك القاهر المتحكم" ، وهو محق تماماً فى ذلك ، فالحكومة أكثر شرور الحياة ضــرورة ، وقد اجتهد المفكرون فى إيجاد الوسيلة للحد من شرها وتعظــيم فوائدهــا ، وكما قال ونستون تشرشل عن الديموقراطية الغربــية ، أنها "أسوأ الأنظمة ، إذا استبعدنا البقية من المقارنة" ، كمــا هو واضح من هذه الكلمة اليونانية ، فهى تعنى حكم الناس لأنفســهم ، أو علــى الأقل مشاركتهم فى صنع القرار فى الأمور التى تمس مصائرهم وفيما يعيشون به من لوائح وقوانين .

وقد وجد علماء الإدارة المحدثون أن الديموقراطية لم تعد أساساً

للحكم فقط ، بل أيضاً لإدارة المؤسسات ، والذى يتابع ما يستجد فى علوم القيادة الإدارية ، سيجد أن القضية علمية وليست أخلاقية، إشراك العاملين فى اتخاذ القرار ليس مقصوداً منه مجرد تحقيق العدالة، بل الوصول إلى الرأى السديد، والذى أصبح فى ظل مقتضيات العصر أكثر تشعباً وتعقيداً من أن يقدر عليه فرد مهما بلغ من الحصافة .

والواقع أن فكرة الديموقراطية ليست شيئاً جديداً ، فكما جاءت حضارة الإغريق بملوك ليسوا آلهة، فإنها سبقت ذلك بعلماء ومفكرين ليسوا كهنة، وهذا لأول مرة فى تاريخ البشر . من حامورابى ملك بابل القديمة ، إلى هيروهيتو إمبراطور اليابان الحديثة ، كان الحكام يرثون السلطة بحجة أن دماءهم مقدسة، وبالتالى فلا حق لأحد أن ينازعهم الملك أو حتى يبدى أى اعتراض على ما هو ـ والعياذ بالله ـ مشيئة إلهية ، والذين لا يدعون أنهم آلهة ، مفوضون ، مزودون بالتفويض الإلهى .

كانت أثينا القديمة أول مجتمع يمارس قدراً من إشراك سكانها فى الحكم ، التجربة الأولى فى الحكم "الجمهورى" أو "الديموقراطى" ، ويهمنا هنا أن نؤكد أننا نستخدم هذه التعبيرات بمفهومها الأصلى ، وليس كما كان فى "جمهورية ألمانيا الديموقراطية" وأشباهها . لماذا تجمد هذا الاتجاه لما يزيد على ألفى سنة من تاريخ البشرية ؟ لماذا لم تتبلور الفكرة بظهور الأحزاب ـ وهى ضرورية لممارسة المعارضة ـ إلى أن جاء هذا منذ ما يزيد قليلاً على مائتى سنة ؟ الذى نظنه أن الأفكار والفلسفات والعقائد هى أمور لا تنطوى بمفردها على إمكانية تطبيقها . كان لابد من مجئ الطاقة الآلية لكى يتسنى تحريم العبودية ، وكيف يكون للعبيد حق التصويت ، سواء فى أثينا القديمة أو أمريكا الحديثة ؟ كان لابد من مجئ الصناعة لكى يتحقق قدر من الرخاء يمكن من سمو الإنسان فوق غرائزه ،

ولكى يستطيع أن يهتم بأمور المجتمع ويعبر عن موقفه منها دون أن يكــون مهدداً بتجويع أطفاله ، كان لابد من مجئ الطباعة لكى تــتخذ الصــحافة موقعهــا كسلطة رابعة ، كان لابد من اكتشاف الكهرباء لكى تأتى الإذاعة كوسيلة جديدة لتثقيف الجماهير ولحماية الــرأى العــام والارتقاء بالمعرفة والفنون ــ صحيح أنه فى ظل الأنظمة الشمولية تحولت هذه الوسائل إلى أدوات للقمع والإذلال . إلا أن هــذا يدلــنا علــى أن الفلسفة السياسية تصلح لتوجيه هذه الوســائل نحو ما فيه خير المجتمع ورفاهيته ، ولكنها ليست بديلاً عنها ولا تصلح وحدها لتحقيقها .

بــل إن الديموقراطــية هى أيضاً سلاح ذو حدين. الواقع أنها بدون وعى جماهيرى رفيع المستوى ، خليقة بأن تخنق نفسها. وقد رأيــنا الاقــتراع الديموقراطى الحر يأتى بالنازية إلى السلطة فى مطلــع الثلاثينيات، وبالماركسيين فى شيلى بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة، وبالأصوليين فى الجزائر بعد هذا بفترة مماثلة. وبينما نحن هنا لسنا فى مجال الحكم على هذه المذاهب بأنها خير أو شر، فإننا لا نقول عنها إلا أنها النقيض المباشر للتعددية الحزبية. وفى أوائل حكم النازيين قام عدد من المفكرين وأساتذة الجامعات فى ألمانيا، مــع عدد من قادة الجستابو، بحركة اعتراض عليه، وما كان من أدولــف هــتلر إلا أن قاد بنفسه فرقة من القتلة انقضت عليهم فى بيوتهم وأماكن عملهم فى مدينة ميونيخ ، ولم يحدث بعد ذلك شىء مــن هــذا لغاية انتحار هتلر، وأما فى النظم الماركسية، فقد كان الخروج على مبادئ الحزب جريمة يعاقب مرتكبها بأى شىء على الإطــلاق، وأمــا الأصــوليون فنحن نراهم يستحلون دماء الناس وأموالهم وهم خارج السلطة، فما بالك وهم حائزون لها! وقد تعب فلاسفة السياسة فى هذا التناقض، هل يجب على الديموقراطية أن تســمح بقيام جميع الأحزاب بحرية تامة، بما فى ذلك من يرفعون شعارات الحزب الواحد والأيديولوجية المستبدة ؟ أم أنه يجوز لها

أن تحظـــر قـــيام أحـــزاب كهـــذه ؟ وهـــم يسمون هذه المشكلة Toleration of the Intolerant، يعنى احتمال ــ أو "إطاقة" ــ من لا يطـــيقون غـــيرهم ولا يحتملون أى معارضة وإذا وصلوا إلى السـلطة فـإنهم سـيمحقون جمـيع الأحزاب والفرق، ولما كانوا سيصـــلون إليها بالاقتراع الديموقراطى فإنه لأمر عجيب حقاً أن تستخدم الديموقراطية التعددية فى القضاء عليها! كيف يسمح لفرقة أن تدخل كأس العالم بينما شعارها أن يكون اللعب بالنبوت وليس بالكرة ؟

الواقع أن الضمان الوحيد للديموقراطية هو الوعى الجماهيرى الـــذى لا يســمح بالانتقاص منها مع قدر من الرخاء يجعل الناس قادريـــن علـــى التفكير فوق مستوى اللقمة . كان هذا هو ما رآه العـــالم يحـــدث فـــى أوربا وأمريكا الشمالية ، وبينما كان الخديو إســـماعيل يعبر عن أمنيته أن تصبح مصر قطعةً من أوربا، كان جـــد هيروهيـــتو يشرح الطريقة. "لقد أصبح لزاماً علينا أن نطلب المعرفة من كل مصدر توجد فيه فى أنحاء العالم وسوف يكون هذا هـــو الأساس الذى يقوم عليه الجهاز الإمبراطورى" ــ صدر هذا الإعـــلان ســـنة ١٨٦٨ وأطلقوا عليه اسماً يشبه "العهد الموثوق"، ورفـــع اليابانـــيون شـــعار "دولـــة غنية وجيش قوى" صحيح أن الممارســـة الكاملـــة للديموقراطـــية (والذى نقصده بهذا هو فصل السلطات وإطلاق الحرية التامة للصحافة وللأحزاب ، وعدم وجود سلطة مركزية يحق لها تعطيل الدستور أو إقالة الحكومة إلا بنص الدســـتور). صـــحيح أن هـــذه الممارسة لم تأت إلا سنة ١٩٤٦، وبدأت بأن أصدر الإمبراطور إعلاناً شهيراً آخر فى بدايتها، يفيد بأنه قد تنازل عن ألوهيته وأقر بأنه مخلوق عادى مثلنا ، فقد كان إرســـاء الديموقراطية التعددية فى اليابان عندئذ ــ وبعد البدء فى حركة التحديث الشاملة بثلاثة أرباع قرن ــ كان هذا ترجمة لواقع مـــادى حاصل ملموس، وليس مجرد أمل فى حرية لا تتوفر لدى

الـــناس أركانهـــا. فهل هناك تجربة أخرى فى دولة أخرى خارج أوربا وأمريكا ؟ نعم، الهند ..

جاء استقلال الهند بعد إعلان إمبراطور اليابان عن آدميته بعام واحـــد، وحظى حزب المؤتمر بالأغلبية ، برئاسة زعيم له تاريخ طويـــل في الكفاح، قضى فى سجون الإنجليز ما مجموعة خمس عشـــرة سنة. هل نجحت الهند فى الوثوب فوق قرون طويلة من التطور فى عالم الغرب؟ أم عاقتها عن ذلك عوامل الفقر والتخلف؟

الوراثـــة تقليد قديم وراسخ فى تراث القارة الهندية. وليس سراً أن جواهـــر لال نهـــرو بذل جهوداً كبرى ليتخذ من ابنته الوحيدة وريـــثاً له فـــى الزعامة ، وليس سراً أنها لم تكن راغبة فى ذلك وأنهـــا تزوجـــت برغمه شاباً سكيراً لم يكن هو راضياً عنه ، ما لبـــث أن مـــات بعـــد أن أنجبت منه ولديها واكتسبت اسم أسرته "غاندي" ، ليست هناك صلة بالمهاتما العظيم ، ولكن للاسم سحره طـــبعاً ، ورثـــت أنديـــرا رئاسة الوزارة بعد موت أبيها بسنتين ، ضماناً للاستقرار فى صفوف الحزب وفى المجتمع كله، (وقد رأينا سيريماقو باندرانيكا ترث زوجها فى سريلانكا المجاورة ، ثم ابنتها تـــرثها بعد ذلك) ، وبدأت تعد ابنها الأصغر سانجاى لوراثتها ، معـــروفة نوادره فى الفساد مما أدى إلى سقوطها وسقوط الحزب فـــى أواسط السبعينيات ، بل وإلى حبسهما معاً ، إلا أنه بعد أربع سنوات فقط ، ورغم فشلها فى مشروعات كثيرة منها تعقيم الذكور للحد من التكاثر، عادت أنديرا إلى رئاسة الوزارة ، وبعد اغتيالها ســـنة ١٩٨٥ــ وكـــان سانجاى قد قتل فى حادث طائرة ــ أصبح الأخ الأكبر راجيف هو الوريث الطبيعى ، برغم أنه ــ مثلها ــ لم يكـــن راغباً فى ذلك ، ومثلها ، سقط ومعه حزب المؤتمر ، الذى رأســـته بعـــد اغتـــياله زوجته الإيطالية المولد ، والذى تعد ابنتها بريانكا لوراثة العرش أيضاً. من بين أربعة وخمسين عاماً مضت علـــى اســـتقلال الهند حاز نهرو وسلالته ما يقل قليلاً عن أربعين

عاماً منها . هل القيادة الصينية محقه فى أن الإصلاح الاقتصادى يجـــب أن يســـبق الديموقراطية ، وأنها لا تأتى من ميدان السلام السماوى ؟

مجانية التعليم : من أمجاد الثورة :

ولا هو مجانى، ولا هو تعليم، ولا هو تعليم مجانى ؟

مبدئيا كده، ليس هناك شىء مجانى فى هذه الحياة . الأصل فى الحياة أن الإنسان يعمل ويتقاضى أجره أو ربحه إذا كان صاحب عمـــل، ثم يعطى جهده نظير احتياجاته ، اتفاقية تبادل هى: القطن المصـــرى فى مقابل الأناناس . ولكن السلطة تظل تتدخل فى هذه التعاملات بكل ما تتصف به من بهيمية .

لا يوجد شىء مجانى فى هذه الدنيا ، إلا إذا كان غير مرغوب فـــيه . وأرجو من القارئ أن يسامحنى عندما آتى بمثل بلدى كان يشيع فى بلدتى بورسعيد أيام أن ولدت ونشأت فيها : "مفيش حاجة ببلاش إلا العمى والطراش"، نعم ، إذا كنت لا تريد أن تبذل جهداً أو مالاً ، اجلس كالتنبل إلى أن يأتيك هذا وذاك فى أرذل العمر .. كفاك الله شر هذا وذاك .

ما معنى مجانية التعليم ؟

معـــناه أن أولادنــــا يذهبون إلى المدارس والكليات (ومنهم من يســـتخدمون البورش والبى ــ إم ــ دبليو لهذا الغرض ، وهؤلاء هــــم الذين احتجوا على أحكام الطيران ، حقاً ، العمى والطراش ، بعـــيد عـــنك) ، ويجلســـون فى غرف الدراسة ولكنهم لا يدفعون المصاريف .

هل هذا يجعل التعليم مجانياً ؟

من الذى يدفع تكاليفه إذن؟ المبانى والكتب والمدرسين .. إلخ؟

هل القائمون على التعليم فى الدولة السنية قد ورثوا عزبة عن أجدادهم وهم ينفقون من إيرادها على أداء هذه الخدمة ؟

الواقع أن المكاتب الفاخرة والسيارات المرسيدس والبودى جارد والتغطية الإعلامية ، ثم رواتب الوزراء ومعاونيهم وكل ما هم فيه مـن نعيم، كل هذا من فلوسنا .. وإلا فمن أين يأتى؟ أولياء أمور هؤلاء الذين يتعلمون مجاناً، يدفعون ضرائب للدولة، والدولة تبيع المحاصـيل والمشـغولات التى ينتجها هؤلاء أنفسهم ، فما معنى كلمة "مجانى" هنا ؟

لسـت أفهـم ما يتشدق به بعض الناس فى هذه المسألة ، هل الحكومـة صـاحبة فضل على الناس؟ أنها تعلمهم؟ الواقع أنها لو كانت تعلمهم لما كانت هذه طريقتهم في التفكير .

ثم لماذا ؟ لماذا يكون التعليم مجانياً ؟

هـل هو أهم شيء فى الحياة ؟ أهم من المأوى واللقمة وعلاج المرضـى ؟ هـل يـأتى قبل كل هذا ؟ الواقع أن من لا مأوى له سـيكون كالقطة الضالة ، لا يمكن أن يتعلم ولا أن يكون آدمياً . لماذا إذن لا تكون المساكن والملابس مجانية هى أيضاً ؟ لماذا لا نقـيم موائـد الرحمن لكل هذه الملايين ؟ لماذا لا نوزع كوبونات الكسـتور والدمـور علـى الناس ؟ نعود من جديد إلى مغامرات الشـيوعية . طـبعاً هـذا مرغوب فيه ، لأن إذلال الناس وسلب كرامتهم يجعل السيادة عليهم أسهل بكثير .

ثم هيا نتأمل شيئين : مستوى التعليم ، ومدى مجانيته .

الدولة نفسها أقرت ــ قبل أن يرحل الزعيم الخالد عن دنيانا ــ أن مظاهرات "الاحتجاج على أحكام الطيران" (لا حول ولا قوة إلا بـالله !) . قـام بهـا طلبة كليات القمة الذين هم بالضرورة أبناء الأغنياء الذين ينفقون الآلوف على الدروس الخصوصية ومن هنا التحقوا بهذه الكليات .

التعليم إذن :

أولاً : يتكلف الألوف في الدروس الخصوصية .

ثانياً : لا يحدث فى المدارس بل فى البيوت .

هكذا يقول بيان الحكومة . وبالتالى فإن الفقراء لا يتعلمون .

هل هذه مجانية التعليم ؟

إنهـا ـ مجانـية التعلـيم هـذه ـ لا هى موجودة ، ولا هى مطلوبة، إنها فى الواقع خدعة حقيرة ، ومصيبة كبرى. خصوصاً إذا كانت السلطة قد بددت ثروة البلد فى مغامراتها الحمقاء ثم تأتى لتقول لى : أنا حاعلم ابنك أو بنتك مجاناً ! تسرق محفظتى وفيها راتبى الشهرى ثم تعزمنى على العشاء الذى هو ساندوتش طعمية. وجايف، لا يؤكل !

هل لابد أن تدخل الجامعات، كلنا ؟!

هل هناك شعب كله جامعيون ؟ مليون خريج جامعى كل سنة؟!

نحـن نعـرف أن خـريجى كليات مثل الطب أصبحوا عمالة فائضـة، بعضهم يشتغل بكل شىء إلا الطب، وأيضاً يعرف عما يشتغله أكثر بكثير مما يعرف عن الطب . "كلمتين وبس" كما يقول عمو فؤاد .

هـذا لأن التعلـيم أصبح هو أيضاً شعارات ، وسيلة "للطبطبة" علـى الشـباب، أوعوا تزعلوا ، كلكم حاتدخلوا الجامعة . رأيت خـريج زراعـة يشتغل بإصلاح التليفزيون فى العجمى ، ورأيت سـاعياً فـى مكتـب صـديق لى يحمل ليسانس الحقوق ودبلوم تخصـص. لمـاذا ؟ لأن الغـرض من التعليم هو التعليم ، ولأن الجامعـة هى عقل المجتمع ، وليست مؤسسة لتوزيع الشهادات ، مكتب التنسيق يقول لك أين تذهب ، وأين تذهب يعطونك قصاصة ورق تخـرج بها إلى الحياة ، تبلها وتشرب ميتها. خريجو الآداب فى الآداب الأجنبية لا يتكلمون اللغة التى درسوها، وخريج الطب لـم يلمـس مريضاً فى حياته. كان عادل إمام صادقاً تماماً : بلد بتاعة شهادات.

والشـعار المرفوع : ابن أفقر الناس يدخل الجامعـة ! ليست هذه هى القضية. المهم أن تكون جامعة أولاً، ولا يهم بعد ذلك ابن

من يدخلها. أنا قضيت خمس سنوات فى هندسة القاهرة، ومن بين سـبعمائة طالـب كان هناك أصحاب سيارات يعدون على أصابع اليدين . وكانت مصروفات الدراسة خمسة وأربعين جنيها سنويا، خفضت ونحن فى منتصف الطريق إلى خمسة وعشرين ، كان هذا إذ ذاك يعادل مرتب شهر أو شهرين لصاحب دخل متوسط . كان الأسـاتذة فـى الطب من نوع كامل حسين ونجيب محفوظ، وفى القـانون من نوع السنهورى ووحيد رأفت ، وفى الهندسة من نوع همـام محمـود ووليم سليم ، أما فى الآداب فلست فى حاجة لأن أذكر أسماء ، لا أحد يعرف أبناء من كان هؤلاء ، وليس منهم من هو واضح أنه سليل أثرياء أو باشوات . الواقع أنه كان من السهل أن تتجنب دفع المصروفات، كان هناك طريقان: أولهما "المسابقة"، كل سنة توجد مسابقة لطلاب الثانوية (التوجيهية كما كانت تسمى)، فى كل فروع التعليم ، إذا نجحت فيها نلت المجانية طوال سنوات الجامعة ، الطريق الأخرى هى أن تنجح بدرجة معقولة من التفوق وتـتقدم باسـتمارة معدة لهذا الغرض ، تقول فيها أنك ــ أو ولى أمرك ــ غير قادر على دفع المصروفات فتنال المجانية .

التعليم ليس قضية سياسية . مجانيته أداة سياسية ، بكل تأكيد.

كنـت طالباً فى بورسعيد الثانوية ، وكنت شاعراً ، ولهذا كنت أتـبادل الحـب والإعجاب مع مدرسى اللغة العربية. وجاءنا مرة مـدرس قضى بضعة أيام ثم نقل إلى الإبراهيمية ، وذكر لنا هذا "الإبراهيمـية ــ جاردن سيتى" ــ لم أكن أعرف شيئاً عن جاردن سيتى وظننت أنها لابد أن تكون حديقة عامة مثل "جنينة فريال" فى بورسـعيد . انتابـنى شعور لا أنساه عندما اختفى من حياتى هذا المدرس الأديب ، وكتبت له خطاباً أعبر فيه عن شعورى ، ومعه رسم للفصل وفيه علامة تدل على موقعى لعلها تذكره بى، جاءنى رده فـى الحـال، يـبدى إعجابه بـ "الرسم الجميل" الذى أرفقته ويضـيف أننى لم أكن فى حاجة إليه، أنا أذكرك جيداً، أنت الذى

قلت كذا وكذا فى الدرس الفلانى .. هكذا كانت علاقتنا بمعلمينا .
وأنا فى الهندسة كنا فى محاضرة فى موضوع عويص، الأستاذ فى المدرج أحس بأن نقطة شرحها لم نفهمها جيداً ، فتوقف متسائلاً عما إذا كنا فهمنا ما شرحه ، وتصادف أن كانت أنظارى ملتقية بأنظاره، سألنى : أنت فهمت ؟ فلما أجبت نفياً، قال : ولماذا لم تقل ذلك ؟ أجبته : ربما أكون أنا وحدى الذى لم يفهم، أجاب : ولماذا تظن أننى لن أعيد الشرح من أجلك وحدك ؟ هكذا كان التعليم عندما كنا عبيداً .

إلا أنه ، حقاً ما فائدة كل هذه الخزعبلات من الفيزياء والكيمياء والأحياء وأبحاث الفضاء ؟ إذا كان التقدم الاجتماعى عوضاً عن التكنولوجيا والفارما كوبيا وكل أنواع اللوبيا والفاصوليا .. أليس الهدف النهائى هو الرفاهية ؟ سنوزع على أنفسنا عمر أفندى وملايين الأفدنة وخزائن المجوهرات ونصبح كلنا أغنياء .

الأقباط :

كلمة "مصر" واردة فى القرآن الكريم، مرات عديدة، وهى أيضاً تعنى "بلد" أو "قطر" ، خصوصاً فى صيغة الجمع "الأمصار"، ولكنها مع ذلك تأتى فى نصوص سامية اللغات "مصريم" ـ فيما يقال ، كانت اسم مصر فى أزمنه سابقة لنزول القرآن. ولكن كلمة "خمت" أو "كمت" كانت هى اسم البلد فى اللغة الفرعونية القديمة ، وكان معناها "الأرض السوداء" إشارة إلى لون أرضنا، الذى هو لون الطمى الذى نحن أيضاً مصنوعون منه، وإليه نعود . وقد كانت كلمة "القبط" هى التعبير الذى استخدمه الرسول الكريم فى رسالته إلى "المقوقس ـ عظيم القبط"، ومن كمت والقبط تأتى "إيجيبت" التى يستخدمها العالم كله فى الإشارة إلى مصر، فيما عدا المتحدثين باللغات السامية، ومنهم الإسرائيليون. والله أعلم. ولو ترجمنا "إيجيبتير" حرفياً فإنها تكون

"الخطـوط الجويـة القبطية"، ولكننا مع ذلك نستخدم تعبير القبط والأقباط فى اللغة والمناسبات الرسمية فقط، أما فى أحاديثنا العادية فإننا نشير إلى "إخواننا الأقباط" بتعبير المسيحيين، ظناً منا أنه تعبير مهذب وأكثر لياقة، وهو ليس كذلك على الإطلاق، ففى تاريخنا أربعة قرون هى "العصر القبطى" ولا يمكننا أن نسميها العصر المسيحى ، كما أن اللغة قبطية والفن القبطى والمتحف القبطى، فى كل هذا لا يمكننا أن نستخدم كلمة "مسيحى" بدلاً من قبطى، كل ما هو قبطى مصرى، أما مدلول المسيحية ـ سواء البلدان أو الناس أو الفنون، فشىء مختلف تماماً .

التماسك الاجتماعى ظاهرة أساسية وبالغة الأهمية فى حياة البشر. وهى فى المجتمع القبلى تتمثل فى أعلى درجاتها، القبيلة تضمن للفرد حياته وغذاءه وأمنه، وهو يعطيها الإخلاص والطاعة والالتزام. مع التطور، أصبح واضحاً فى المجتمع الحديث ضرورة إيجاد التوازن بين التماسك الاجتماعى الذى يحقق الأمن للمجموع وللفرد، وبين الفردية التى تهيئ الاستقلالية والحرية، والإبداع والنبوغ .

من هنا فإن كل مجتمع على وجه الإطلاق توجد فيه الفئات المختلفة ، والدرجات المتفاوتة من الانتماء ، والفئات أو الجماعات قد تكون دينية أو عرقية أو لغوية ، الأكراد فى العراق مثلاً يجمعون بين هذه الخواص الثلاث ، وكذلك الفرنسيون فى كندا، والطامعون فى السلطة والزعامة السياسية يلعبون على ما يجدونه من هذه الأوتار الثلاثة طبعاً ، ويملؤون قلوب الناس بالحقد ويصيبونهم بما لا حدود له ولا نهاية ، من التعاسة والبغضاء التى يجنون هم ثمارها متمثلة فى كل ما تأتى به من النعيم : السلطان وحريم السلطان ، قصة قديمة ومعروفة. إنها أحسن تلخيص لتاريخ البشر .

وقد درج الناس على استخدام كلمة "الأقلية" لوصف هذه الفئات

الاجتماعية، لأنهم عادة يتميزون عن باقى المجتمع بأنهم أقل عدداً، والأقليات قد تكون أدنى مستوى من أغلبية المجتمع وقد لا تكون. من أشهر الأقليات وأكثرها أهمية ودلالة الأقلية السوداء فى الولايات المتحدة ، والتى تحولت من عبيد أرقاء جاء بهم تجار الرقيق متكدسين فى أقبية السفن يجدفون تحت لسع السياط فى ظروف تقوم قيامة العالم فى عصرنا هذا لو استخدمت مع المواشى ، تحولوا من هذا إلى واحدة من أعظم القوى الاجتماعية فى هذا العصر . وهذا بفضل زعيمهم العظيم القسيس الشاب مارتن لوثر كنج ، الذى بنى فلسفته على رؤية المهاتما غاندى للزعامة السياسية التى تقوم على العصيان المدنى لا على العنف أو اللجوء للقوة . وهذا طبعاً كان قد ظهر بين الزنوج الأمريكيين من يدعون إليه ، وما يزالون . فأمام الأقلية عدة طرق تنهجها عندما تحس ــ أو عندما يجعلها قادتها تحس ــ بأنها مضطهدة ، وقد ظهر بينهم من يدعون إلى الماركسية لتكون سلاحهم فى محاربة السطوة أو السلطة فى هذا المجتمع الرأسمالى الذى تقف القوى الشيوعية العالمية منه موقف العداء ، ومنهم من دعا إلى الإسلام كسلاح للمقاومة فى هذا المجتمع الذى تسوده المسيحية ، ومنهم من دعا إلى مجرد العنف : النسف والإغتيال .. إلخ ، هذا الزعيم اتخذ الأسلوب الوحيد الذى ينفع الضعيف فى مواجهة القوى وهو استخدام العقل . أن الإنسان البدائى ــ والحديث ــ يغلب الأسود والنمور لا بأنيابه بل بعقله .

والواقع أن الامتياز هو أقوى سلاح فى يد الأقلية الاجتماعية وسبيلها إلى الثبات فى مواجهة الأغلبية بل وإلى التحكم فيها أحياناً، سواء كان معنوياً ــ كالتفوق فى العلوم أو الفنون ــ أو مادياً كالثراء . وهذا هو ما توصل إليه اليهود على مستوى العالم، وما توصل إليه الزنوج الأمريكيون ، فى غضون النصف الثانى من القرن العشرين وبفضل السياسة التى اتبعتها قيادته ــ سانتيا

جراها" ، هو اسمها بالهندية ، يعنى "قوة الحقيقة، أو الحب" ، وقد كتــب كنج يقول أنه كان قد نشأ على الاعتقاد بأن سياسة التسامح التى دعا إليها السيد المسيح لا تصلح إلا للتعامل بين الأفراد وليس الجماعات ، ولكنه عاد فوجد أن المهاتما غاندى هو المفكر الوحيد الــذى اســتطاع أن يترجم تعاليم المسيح إلى فلسفة سياسية قومية وعالمــية . ومــن هذا الطريق توصل الزنوج الأمريكيون لا إلى المســاواة التامة فى الحقوق مع بقية المجتمع ، بل لقد سادوا دنيا الفــنون والرياضــة علــى مســتوى العالم كله وأصبح من بينهم شخصيات وفرق على أعلى مستوى بكل مقياس .

"الأقباط المصريون ليسوا أقلية" ، هكذا يقول البابا شنودة ، وهو طــبعاً يقصد أنهم ليسوا مختلفين عن الشعب كله في شيء وليسوا متميزيــن حتى يتعرضوا للتمييز . صحيح هذا طبعاً فى قدر كبير منه ، فالأقباط لا يتكلمون اللغة القبطية بل لا يعرفونها، وإذا دخلت كنيســة لتحضــر الصلاة فإنك ستجد أغلب الأناشيد الدينية عربية اللغة، أما على الجانب العرقى ، فالأصول العرقية بالطبع مختلفة ، فالمصــرى ـ إذا افترضنا النقاء العرقى، وهو مستحيل طبعاً بعد مضــى كل هذه القرون من التزاوج مع كل الأجناس ، سواء كنا مسلمين أو أقباطاً ـ المصرى قد يكون سليل العرب الذين جاءوا ســنة ٦٤١ م ، أو قبطــياً من نسل المصريين القدماء ـ والذين تناســلوا مــع الفــرس والإغريق والرومان بدرجة أو أخرى أو خــالطوهم أو امتصوهم كنازحين ، كما قد يكون ـ المصرى ـ سليل التزاوج بين العرب والقدماء الذين اعتنقوا الإسلام ، ولا يبدو أن أحــداً يعرف نسبة هؤلاء على وجه الدقة ، فهو تاريخ قديم . كائــناً مــا كان الأمر ، فالمصريون ـ أقباطاً كانوا أو مسلمين ، يــتخذون أشكالاً متعددة ، حسين فهمى مثلاً مصرى مسلم كما هو واضــح مــن اسمه ، وأحمد زكى أيضاً ، لويس عوض ونجيب الــريحانى قبطيان مصريان وهكذا . وكان الريحانى زوجاً لبديعة

مصابنى وهى ـ مثل الكثيرين من أبناء الطائفة الكاثوليكية ، تبدو "خواجايـة" أكـثر من حسينٍ فهمى . خلاصة القول أن المصرى "الـنمطي" لا يخـتلف كثيراً فى ملامحه عن البقية مسلماً كان أو مسـيحياً . الأسـماء هى التى تدل على الهوية الدينية فى مصر، وكما يختلف السلوك الاجتماعى للأقليات كما أسلفنا ، فإن الأقباط المصـريين قـد يتسـمون بأسماء فرعونية ، وكان لى زميل فى المدرسـة اسـمه تحـتمس ، إثباتا لهويتهم الأصلية ، أو بأسماء مسيحية مصرية (وأغلبنا لا يعرف أن المسيحية انتشرت فى مصر قبل أوربا بكثير) مثل يوحنا ، ومنهم من يستخدم الصيغة الأوربية لنفس هذا الاسم ، وهى "جون" ـ وأعرف صعيدياً اسمه جون ـ ومـنهم مـن يفضل الصيغة العربية لنفس هذا الاسم فيسمى ابنه "يحـيى" ، جميع هذه الأسماء تستخدم ومعها كل أسماء المسلمين التى ليست أسماء الرسول عليه السلام أو صحابته المقربين . ومن بين أبناء يوسف الشارونى وأحفاده ستجد أسماء "شريف" ثم "شادن" وهـى الإذاعـية المعروفة ، وهذا اسم عربى صرف من أسماء الغـزال ، ثم تجد "جويس" وهو اسم خواجاتى طبعاً ، ثم "رؤوف" وهكذا . أما "يوسف" ذاتها فهو اسم جميع الأديان ولا عجب ، فقد كان يوسف رسولاً عبرانياً ، وكان أيضاً مصرياً عاش ومات فى مصر، ثم هو مذكور فى القرآن الكريم طبعاً .

الأقباط المصريون إذن قد لا يكونون أقلية لأنهم ليسوا متميزين أو منفصـلين، لا عـرقاً ولا لغة (ولا يفوتنى أن أشير إلى تحفة المفكر الراحل جمال حمدان، "شخصية مصر" وقد أفرد فيها فصلاً عـن تفسـيره لوجـود أقلية دينية فى مصر ولكنها هجرت لغتها القديمة واتخذت العربية، والفرق بيننا وبين المغاربة فى أن أقلياتهم فعلـت العكس، فهى عرقية لغوية وليس دينية) ولكن هذا لا ينفى أنهم اقل عدداً من المسلمين. وهذا فى طبيعة البشر يخلق إحساساً بضرورة التعويض، بالامتياز الفكرى أو المهنى أو بوفرة المـال

..إلخ .

لغايــة .. "الــثورة" ، (أمرى إلى الله ، أظن أنه قد آن الآوان لــتعديل القاموس والكلمات كثيراً ما يتغير مدلولها فى كل اللغات، ثــار يثور ، ثار الشىء أى أمسك به ورزعه فوق الأرض فانهال قطعــاً متــناثرة) ـــ نعم ، لغاية الثورة كان ما نسميه الآن "السلام الاجتماعي" سائداً بشكل لا نظير له . ويقال أن غاندى كان معجباً بسعد زغلول لأن قيادته حققت وحدة كاملة بين الطائفتين. كان هذا طبيعــياً للســبب الــذى أسعى إلى إظهاره ، وهو أن ألعن أسباب التعصب والفرقة الاجتماعية هو الفقر ، وقد كان الفقر ـــ ومازال ـــ يتمثل فى القارة الهندية بشكل تحسدها عليه الزعامات السياسية فــى أنحاء العالم ! أما المصريون فى عصر سعد زغلول فكانوا طــبعاً فقراء أيضاً بالنسبة لأوربا ولكنهم لا ينامون على الأرصفة بالملاييــن ولا يهلكــون بفعل الجوع والأوبئة . ومعروف تاريخ الأقــباط فــى الكفــاح ضد الإنجليز وأنهم لم يكونوا أقل تعرضاً لرصاص الإنجليز ومشانقهم .

مــاذا كان موقف الأقباط من الإنجليــز ، من حيث أن هؤلاء وهؤلاء كلاهما مسيحى ، ومصر الآن دولة دينها الإسلام ، وأغلب شــعبها مسلمون ؟ كما قلنا فيما سبق ، الإنسان لا يتكون من دينه فقــط . هــناك وطــنه ولغته وأسرته ، وهناك انتماءاته الفردية والفكــرية . ومن هذا كله يتكون موقفه السياسى . مبدئياً، الأقباط المصــريون أغلــبهم أرثوذكــس يتبعون الكرازة المرقصية التى يرأســها بطريرك الإسكندرية وسائر إفريقيا ، وهو كرسى بابوية مستقل عن بقية كنائس الشرق والغرب منذ منتصف القرن الخامس المــيلادى ، وبذلــك فــإن العقــيدة المسيحية عند الإنجليز وعند المصــريين ليست واحدة لأسباب فلسفية دينية والفارق لا يختلف كثيراً عن الخلاف العقائدى بين الشيعة والسنة عند المسلمين ، وإن كــان طــبعاً ـــ كما هو الحال ـــ دائماً ـــ مشوباً بالسياسة . نقول

"دائمــاً"، لأن كــل ديانة جديدة تظهر وكل مذهب يتبلور داخلها ، تكــون له عواقــب سياسية ، خروج موسى بقومه من مصر كان هرباً من اضطهاد فرعون مصز لهم ، وكذلك فإن صحابة الرسول علــيهم الســلام ، وكل من آمنوا به ، هاجروا معه من مكة لأن "فراعنة" قريش أحسوا بأن سطوتهم السياسية بدأت تنحسر وأرادوا أن ينقضــوا على المسلمين بسيوفهم ، وهذا طبعاً أدى إلى غزوة بدر وما تلاها من الحروب .

القــبطى المصرى ليس "خواجا" بأى شكل ولا بأى درجة، ولا القبطــية المصــرية خواجاية. ومما يذكر هنا أن "المجاهد الكبير" مكــرم عبــيد حذف اسمه الأول "وليم"، وكان الوفديون المسلمون يســمون أبناءهم "مكرم" ــ وكذلك فعل أخواه فكتور(فكرى مكرم) وفــريدريك (فــريد). وفكــرة تعاطف الأقباط مع الإنجليز أو مع الإسرائيليين هى وليدة التعصب الجديد الذى جاء مع الثورة والتى تــتحمل مســؤوليته بما جلبته على البلد من هذا الشيء الذى هو التربة الخصبة التى يترعرع عليها التعصب ولا ينمــو إلا فيــها: الفقر .

الإخــوان المسلمون طبعاً موجودون من قبل أن تأتى الحركة المــباركة ، بل إنهم تبادلوا صلات الغزل والغرام مع تلك الحركة وزعماؤهــا احــتفظوا بها بعد حل الأحزاب ليستخدموها كأداة ثم استداروا إليها وواجهوها بكل وسائل البطش. ولكن حركة الإخوان لم تنجح بزعامة حسن البنا لأن الفقر لم يكن كافياً، ولأسباب أخرى مــنها أنها بدأت تدعو لأفكارها لا بالحكمة والموعظة الحسنة بل بالقنابل والاغتيالات .

فى فيلم سينمائى فى تلك الحقبة اسمه "أرواح فى البحر"، نرى جــارى كوبــر يقود زورق نجاة بعد غرق باخرة، ويتخذ وضع "الزعــيم" ، وعــندما ازدحم القارب أخذ يلقى ببعض الركاب فى البحر لكى لا ينقلب زورق النجاة ، ويموت الجميع . الناس عندما

يجوعــون فــإن قــيادتهم قد تجد أن عليها أن تتخلص من بضعة ملاييــن لكــى يتسنى أن يعيش البقية على القليل المتاح . من هنا تظهــر "المذاهب الهدامة" وهو التعبير الذى كانت تطلقه الصحافة المصرية على الشيوعية والإخوان والفاشية متمثلة فى مصر الفتاة مــثلاً . إلا أن الســلطة ــ أى ســلطة ــ تستطيع أن تنقض على أوكــار الشيوعية وتصادر "خطوة للأمام وخطوتان للخلف" أو "ما العمل" وغيرها من خزعبلات لينين وأشباهه . فقط لن تستطيع أن تصــادر المصحف وصحيح البخارى أو مسلم. ولكن الحق ، كما قــال علــى كرم الله وجهه، قد يراد به الباطل. ولدينا من العلماء الأجلاء من أفادونا بأن قتال غير المسلمين أيام الدعوة كان دفاعاً عن النفس وأن الدعوة فى أواننا سبيلها الحكمة والموعظة، وليس المفــرقعات والرشاشات. ولكن الحقيقة تبقى وهى أن السلطة لابد أن تدفــع عن نفسها تهمة الكفر، وعليه فإن ميكروفوناتها لابد أن تعلــو فــوق صوت المعركة هى أيضاً . خصوصاً عندما تتحول أماكــن العبادة إلى مقار للحزب العالمى، ولابد من أداء الصلوات الخمس فى المسجد لا لأن الله يأمرنا بذلك، فهو يأمرنا بأداء صلاة الجمعــة فقط هناك، ولكن الفتاوى ــ وهى حق لا ينكر، يراد به أمــر آخر ــ تؤكد أن الثواب هنا أعظم، لكى تحكم القيادة قبضتها وتنشر أنواعاً من ال "يونيفرم" فى مظاهرة فاشستية شبه عسكرية.

لا أحــد يعــترض على الاحتشام ، ولكنه هنا ليس سوى نظير للقمصان السود والزرق ، رداء عسكرى ، وكانوا قد بدأوا يرشون الأحمــاض الكاويــة علــى كل إمرأة لا ترتدى لباس الحزب، بل ويشــجعون الشــباب علــى الاعــتداء عليهم ، فى إحدى قضايا الاغتصــاب ، قيل إن الشباب معذورون ما دامت الفتيات يظهرن أمــامهم بشــكل مثير ! يعنى كونوا ألعن من الحيوان ! من الذى يســتطيع أن يحــبس غريزته عندما يرى ذراعى امرأة ؟ لا أحد يعترض على " السلام عليكم " ، فهذه تحية درجنا عليها . ولكنها

هنا هي " هايل هتلر " ـ كل هذا يجد تربة صالحة في المعاناة واليأس والحرمان . من هنا جاء الاعتداء على السواح في مصر ، أسهل طريق لمزيد من الفقر في ساعة واحدة !

يرى البعض أن السادات هو الذي تسبب في كل هذا عندما استعان بالجماعات الإسلامية لقمع الشيوعيين ، وأنا أقول أنه لا السادات ولا أي سلطة تستطيع أن تبث دعوة كهذه في مجتمع يجد فيه الناس أعمالاً يشتغلون بها وحياة يعيشونها ومدارس يتعلم فيها أطفالهم . البطالة والفراغ هي التربة الصالحة لبذور التعصب والحض على العنف ، باستغلال مشاعر الغيرة الطبيعية ، وهي ـ كما أسلفنا ـ جزء من سيندروم الخصخصة، والمشاعر طبعاً موجودة أصلاً ، ولكن النظم الفاشية هي أصلح النظم لكبح الفاشية، والوحشية في قمع حركة الإخوان بدرجة من الفظاعة لم يكن هناك داع لها، لعبت ـ إلى جانب إفقار البلد ـ دوراً أساسياً في تشجيع هذا التيار ، ونذكر القارئ بحادث الاغتصاب الجماعي الذي تعرضت له ابنة أخت واحد من المعتقلين (لعله كان سيد قطب)، إن العلاقة الزوجية التي شرعها الله وسيلة لبقاء الحياة واستمرارها، لا تستخدم كعقوبة إلا عند من هم دون البهائم ، فالبهائم تعرف كيف تمارس الحياة كما خلقها الله، ووصفهم بالبهيمية إهانة .. ، للبهائم .

ولي صديق ينتمي لما يسمى الناصرية ، قال لي مرة : أنسيت المحاكم المختلطة (وأنا لم أنسها فقد كان بيتنا مواجهاً لها في بورفؤاد) ، أنسيت أنه لو تشاجر أبوك مع خواجا ، فإنه كان سيقف موقف المتهم المحكوم عليه سلفاً من قاضي تلك المحكمة؟ أجبته : ربما ، ولكني واثق من شيء واحد ، وهو أن أمي لم يكن سيؤتى بها إلى قشلاق الشرطة العسكرية في الجيش الإنجليزي ليغتصبوها وأبي وأنا واقفان نتفرج . أنا شخصياً أفضل أن أقف أمام القاضي الخواجا (كان في المحاكم المختلطة قضاة مصريون ،

وكـــان أحدهـــم يقضـــى الصـــيف فى بورفؤاد وكان صديقاً لنا ، المرحوم المستشار حسين إدريس) ـــ أفضل هذا كائناً ما كان الظلم الـــذى ســـيقع ، فالظلم من طباع الآدميين ، أما الاغتصاب فلا ، أفضـــل هـــنا أن أقتـــبس هذا العنوان الذى رأيته على غلاف فى معـــرض الكـــتاب ، لكاتب سودانى كانت صورته بردائه الوطنى على الغلاف : ملعون أبوكى بلد !

هكـــذا يجعلون الإنسان يتجرد من أصوله ، يسخط على التربة الـــتى نبت منها ، يحاول أن يخرج من جلده ، يهرب من دمه كما يقـــول إبراهـــيم ناجى . حقاً! ملعون أبوكى بلد إذا كان هذا ثمن الوطنية ، أمى وابنتى وكرامتى وكيانى ، ووجدانى ، وكل شىء. كـــل هـــذا مـــن أجل اقتسام الغنيمة ؟ من أجل حفنة جنيهات فى الخزنة؟! أنا واحد ممن لم يؤخذ منهم شىء ، ولم يكن لدى وليس لدى الآن ما يستحق الأخذ . الذى أخذوه منى هو مصر ، قبطيتى هـــو ما أخذوه ، وليس لدى أمل كبير فى استردادها ، لأنه لم يبق منها هى أيضاً ما يستحق أن يسترد .

يذكـــرنى هذا بجلسة على مقهى فى المغرب ، نبيل شعث ، لم يكـــن وزيراً إذ ذاك ، كان ـــ وما يزال ـــ يملك مؤسسة "الخبراء العرب فى الهندسة والإدارة" ـــ وأنا كنت واحداً من هؤلاء الخبراء ١٩٧٩ ـــ ١٩٩٤ ، وكـــنا فى رحلة عمل ، وكان ثالثنا واحد من شـــركائه ، (وهم لبنانيون وفلسطينيون ومصريون) دار الحديث ، وسألنى هذا : قل لى يا سيد حديدى ، أنت واحد ممن أضيروا من الـــثورة ؟ ونظـــرت إليه قائلاً : أنت سعيد بضياع الضفة الغربية والقدس ؟ دعنا من سيناء ، أنا منشغل بالقضية ، ما رأيك ؟ قال : "مـــن حيـــث النتائج طبعاً .." ـــ تبين لى عندئذ حقيقة وضع عبد الناصـــر عندهم ، أنه صاحب دكان يبيع الـــ "ميلك شيك" ـــ لبن الجاموسة ممزوجاً بدم أصحابها .

هذا التيار الدينى ، ما أثره على الأقبـــاط ؟ وعلاقتهـــم بأبنـــاء

وطنهم ؟ عندما يسمعون من يقول أن أموالهم ومتاجرهم حلال لنا وأنهم كفرة ..إلخ ؟ السادات هو الذى فعل هذا ؟ إن الشرور التى أزاحها عنا عندما أزاح العصابة الإجرامية، تكفى ــ فى رأيى ــ عــذراً له فى هذا، ولا ننسَ الأزمات التى أخذ يجتازها واحدة بعد واحــدة بما يكفى لتحطيم أشد الإرادات صلابة. ولكنى أكرر: مثل هذه الشعارات وما يصحبها من ممارسات يستجيب لها الناس بقدر معاناتهم، وهى تحدث فى كل بلد. فى الحزب الجمهورى الأمريكى يوجــد جناح يدعو إلى "العودة إلى يسوع"، وكان زعيمه فى وقت مــا شابٌ رأيته يتحدث فى التليفزيون. لا يشعر به أحد ، فرصته فى الزعامة أن ترتفع نسبة البطالة أو تحدث كارثة قومية .. إلخ .

شرفت وسعدت بلقاء البابا شنودة مرة واحدة فى حياتى ، منــذ أكــثر من ربع قرن ، فى دير فى وادى النطرون، كنت قد ذهبت مــع جمــع من الأصدقاء لنزور مهندساً تربطنا به علاقات عمل وأخــوة وصداقة ، كان قد دخل لتوه سلك الكهنوت ــ رحمه الله كان إنساناً نادراً ، وتصادف أن رأينا البطريرك وهو يقترب منا، وكان قد أسمى هذا الزميل باسمه ، "شنودة" ، تكريماً له ، قدمنا له أنفســنا ، كــنا حوالــى خمســة عشر أو أكثر ، والتقطنا صوراً تذكاريــة، وبدأت المحادثة : "شوف يا أستاذ حديدى .." هكذا كان ينادى كل واحد باسمه كما لو كان يعرفه : كان ما يزال فى شبابه إذ ذاك طبعاً ، لو أن نعمة الله عليه ما تزال ، فلن أدهش كثيراً لو أننى قابلته الآن ، ووجدت أنه مازال يذكرنى .

أنت مالك ؟

"أسرّ إلى أحد المقربين من الرئيس الراحل سنة ١٩٦٦ أن صفياً من أصفياء الرئيس جاءه ضابط من المخابرات يشكو جريمة ارتكبت أمامه وهى أن فلانة بنت أخت المعتقل فلان ، وهى لم تتجاوز الرابعة عشرة، قد أحضروها وفسقوا بها جندياً بعد آخر حتى ماتت . وذعر الصفىّ لهذا النبأ وذهب فى سيارة الراوية إلى بيت الرئيس لينهى إليه هذا النبأ الخطير الذى تجرد من إنسانية الإنسان ونقل مصر إلى حياة الغاب ، وإذا بالرئيس يقول له "وأنت مالك ؟ هى بنت أختك ؟"

الدكتور . إبراهيم عبده : تاريخ بلا وثائق

أظن هذه القصة وحدها تكفى لتفسير ما يدور فى الشوارع من علامات الساعة.إذا كان كل واحد منا غير مختص سوى بشؤونه هو؟ومع إقرارى بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، فإننى أقطع ــ كما قلت فى ندوة قريبة ــ بأن مشكلات الفوضى التى تسود شوارعنا لا يمكن أن تتحسن، بل إنها ستظل تسير من سئ لأسوأ، لأنها مشكلة نفسية، ولا علاقة لها بالأحزمة ولا بأى شىء آخر يمكن استيراده .

سألنى صديق لى : ألا ترى أننا نتحسن ؟

أجبته : إننى أرى قدراً هائلاً من التحسن والجهود الطيبة المثمرة . فى مجال المادة فقط ، جسور وكبارى وانفاق وطرق ومطارات وفنادق سياحية ، وشبكة تليفونات تذكرنى بيوم فى أوائل السبعينيات ، استبد بى الغيظ وانطلقت إلى السنترال الذى

اتبعه ، مبنى يشبه الإسطبل (ليس إسطبل داوود ، إسطبل العتريس) ، ودخلت إلى حيث كان المسؤول ، وقلت له : ما عنديش حرارة بقالى شهر! أجاب الشاب : يابيه شيل التليفون اللى على مكتبى إذا كان فيه حرارة يبقالك الكلام . المجارى مثلاً ، سبق أن ذكرت الوحل الذى غرقنا فيه ، لولا عشرات الألوف من الملايين التى أنفقت أخيراً على شبكات الصرف الصحى من أموال المعونات الأجنبية لما كنا الآن غارقين فى الوحل وحده . كبارى القاهرة كلها تجددت ، لم يبق سوى كوبرى قصر النيل ، وأدعو الله ألا يقربوه ، أن يتركوه لنا كذكرى عزيزة لماض عزيز .

أما الإنسان فليس إصلاحه سهلاً. الكثيرون منا يصلحون سياراتهم أو أجهزة حياتهم، ولا يجدون إصلاح أنفسهم بهذه السهولة .

استرداد القيم .. أصعب كثيراً من إضاعتها ، ولكن هناك أساساً يجب إرساؤه ، وهو أن نصارح أنفسنا والعالم بالحقيقة ، لكى نتجه إلى المجتمع الدولى ، وهو ما دأبنا عليه الآن أكثر من نصف قرن، علينا أن نكتسب احترام العالم ، والناس لن يحرصوا على صالح من يخدعون أنفسهم ومن يلهجون بحمد من أذلوهم وأوردوهم أسوأ وأهون مصير .

كتب واحد من الفضلاء منذ فترة يقول أن أبناءنا فى المدارس ، لديهم كتابان ، أحدهما يقول إن محمد نجيب هو أول رئيس جمهورية لمصر ، والثانى يقول إن جمال عبد الناصر هو أول رئيس جمهورية لمصر ، ما الذى نريده من المجتمع الدولى ، إذا كان يرانا نكذب على أبنائنا فيما لديهم من كتب تعليمية هزلية ؟

قرأت منذ فترة عنواناً فى جريدة : "مداهمة وكر للدروس الخصوصية" ــ وكر للتعليم ! علمونا أنه من الأفضل أن نمنع الخير لكى لا يقال اشمعنى هذا ولماذا ذاك . أما سكان المعمورة وأصحاب الفيلات التى "تقام فوق الربى والتلال" كما قال المرحوم

سراج الدين ، فمسألة أخرى .

مازلـــنا نتحدث مع أبنائنا فى المدارس، ولأنفسنا فى التليفزيون والصـــحف، عـــن ثورة يوليو المجيدة مع أننا نبذل كل جهد لمحو أمجادهـــا! ألم نرجع الأحزاب بعد إلغائها؟ ونتصالح مع الدنيا بعد أن قطعنا علاقاتنا مع طوب الأرض نفسه؟ ألسنا نستميت من أجل الخصخصـــة بعد تأميم كل شيء، لا من أجل ظروف طارئة، بل لأن هـــذه هى "عقائدنا". كل هذا كان مجرد أخطاء صغيرة يجرى تصحيحها؟

مـــن الأمـــور الـــتى طالما حيرتنى : جاء الإنجليز إلى مصر وطـــبعاً أثـــار هذا نفس رد الفعل الذى حدث عندما جاء نابليون . أحدهمـــا كان سيأتى على كل حال ، فقط ما يحيرنى هو ، عندما وقف زعماؤنا فى وجه هذا وذاك ، هل كانوا ــ مصطفى كامل أو محمد فريد ــ يفضلون الحكم العثماني ؟ لقد اكتسبنا بعض المعرفة من الإنجليز، أظن أكثر الناس تعصباً لن يستطيع أن ينكر ذلك، فما الذى تعلمناه من العثمانيين ؟ الضولمة يا ترى أم الظلمة ؟

قـــرأت فـــى شبابى كتابين جلبا لمؤلفيهما قدراً لا بأس به من الســـخط، الأول هـــو "الإنجليز فى بلادهم" للدكتور حافظ عفيفى، الـــذى كـــان مـــن أقطاب الاقتصاد والسياسة وكان رئيساً للديوان الملكـــى لغايـــة قيام الحركة المباركة، والثانى "أمريكا الضاحكة" لمصـــطفى أمين، مؤسس أخبار اليوم. كل منهما يصف الحياة فى تلك البلدان. شئنا أم لم نشأ، هؤلاء هم صناع حضارة العصر الذى نعيشـــه، أكـــرههم كما تشاء وقاطع كل ما جاؤوا به، من قرص الإســـبرين إلى قرص الكومبيوتر، فقط قل لى ما الذى سيتبقى مما هو ليس مصدره هذه الحضارة ؟ إن كوب مـــاء تشربـــه يجعـــلك تتعامل معهم .

هـــؤلاء الناس تهذبوا كثيراً . الذين تحفل كتابات أدبائهم بأبشع روايـــات التنكـــيل بالعبيد (كوخ العم توم مثلاً ــ جذور) والتفرقة

العنصرية (السيرة الذاتية لمارتن لوثركنج ــ روايات وليم فوكنر)
هــؤلاء مــنحوا أرفع أوسمة من الكونجرس والرئاسة الأمريكية
لامــرأة ســوداء مكافأة على أنها قبل ذلك بأكثر من أربعين عاما
تحــدت قانون ولاية آلاباما ورفضت أن تعطى مقعدها فى حافلة
الركاب لأمريكى أبيض . وهؤلاء أيضاً ، بعد أن مارسوا الاعتقال
والســجن ضــد زعمــاء الأمريكيين السود (فقط بدون تعذيب أو
اغتصــاب) جعلوا من عيد مولد الزعيم الزنجى مارتن لوثر كنج
عــيداً قومياً تعطل فيه الأعمال ، وتعمدوا أن يعينوا رفيق كفاحه
أنــدرو يونج سفيراً لهم فى جنوب أفريقيا التي كانت أمثولة العالم
فى بشاعة التفرقة العنصرية ، وأصدروا قانوناً بمقاطعة تلك الدولة
إلــى أن تثوب إلى رشدها وتسترد ضميرها ، ومما يذكر أن هذا
كــان فى عصر الرئيس ريجان وأنه رفض التوقيع على القانون ،
وطــبقاً للدستور ، أعيد إلى الكونجرس حيث حصل على الأغلبية
التى جعلته يصدر رغم أنفه القبيح .

أكبر خطأ نرتكبه هو أننا نقيس أداء المؤسسة الحاكمة فى مثل
هذه الدولة بمقياس واحد وهو مدى استجابتها لمطالبنا واحتياجاتنا ،
وننسى أنها ــ تلك المؤسسة ــ مسؤولة عن شعبها هى وليس عنا
نحــن ، لقــد بلــغ المواطن الأمريكى أقصى ما وصل إليه النوع
الإنسانى من جودة الحياة ومن الحرية ومن المعرفة ، وبدلاً من أن
نســمح لسماســرة الخــراب أن يجعلونا ننام ونصحو على الحقد
والغيرة فقط ، أظن أننا نحقق صالحنا أكثر عندما نجعل هذه القوة
المهيمــنة على هذا العالم تتهذب أكثر مما تهذبت وتحس بقدر من
الاحترام نحونا . سوف يتحقق هذا القدر من الاحترام عندما يرون
المجتمع يعمل على تنوير أجياله وتبصيرها بحقائق الأمور وعندما
نبدأ فى تعليم أجيالنا أن لهم شأناً ببلادهم لأنهم يملكونها . صحيح
أن قــدراً كبيراً من الحرية فى إبداء الرأى على الأقل قد تحقق ــ
وأظــنه أقصــى ما هو ممكن فى ظل الظروف التى اجتزناها بل

وربما يكون متجاوزاً لما هو مأمون ، ولكن خداع أجيالنا وأحفادنا بالحديث عن أمجاد الثورة ـــ وعلى رأسها إرساء تكنولوجيا التعذيب ودعم الممارسات الحيوانية المصاحبة له ـــ هذا لا يكسبنا احترام العالم. ولكننا درجنا على الانصياع للقيادات الآثمة الضالة، والتى تعلمنا ـــ كما في إيران مثلاً ـــ أن نكره كل شيء وكل بلد وأن نحقد ونغار بدلاً من أن نتصافى ونتعاون ونتعلم . كم سفارة سينسفونها وكم فرقاطة سيثقبونها وما هى نهاية كل هذا ؟ الإدمان مشكلة كبيرة عندهم ، وهم يبدأون علاج المدمن بأن يجعلوه يقف أمام الجميع ويعلن أنه مصاب بالإدمان وأنه جاء هنا لأنه يريد أن يتخلص منه . التحسن يبدأ بممارسة الصدق .

أنا لست أنادى بثورة أخرى من جانبى (واحدة كفاية !) الواقع أننى لا أنادى بشيء لأننى لست أدرى أين أذهب بإحساساتى أنا نفسى ! ولكنى أرى أننا فى حاجة إلى قدر هائل من الصدق .. مع العالم ومع أنفسنا .

ارتقاء البشر :

علينا أن نلتقط أنفاسنا وسط التيارات التى تعبث بنا كخيوط مسرح العرائس ، وندرك أن جهوداً صادقة ومخلصة قد بذلت فى سبيل إبعاد البشرية عن الصراع الدموى وتقريبها من النزاع القانونى وتحكيم النزعة الإنسانية ، من معاهدة جنيف (١٨٦٤ ثم ١٨٦٨) بشأن معاملة جرحى وأسرى الحرب ، وإعادة صياغتها بما يتفق مع أساليب القتال المستجدة سنة ١٩٠٦، والتى اعتمدتها الدنيا كلها، ثم إنشاء عصبة الأمم فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، صحيح أنها عجزت كما لو كانت "جامعة" ـــ عجزت عن فعل شيء فى الغزو الإيطالى الهمجى للحبشة سنة ١٩٣٥، ثم فظائع اليابان فى منشوريا والصين، والحرب الأهلية الإسبانية. ولكن العصبة كانت أساساً لنشوء الأمم المتحدة عندما انحلت سنة

١٩٤٦، جهــود صادقة كثيرة بذلت، إنشاء محكمة العدل الدولية، محادثــات نــزع الســلاح فى أوائل الستينيات، اتفاقيات الحد من الأسـلحة الاستراتيجية "سولت"، ثم جهود القوات المتحالفة وحلف الأطلنطى فى الكويت ثم البوسنة ثم كوسوفو، سوف تجد برغم هذا كلــه مــن يقول لك : أتدرى لماذا يعملون هذا ؟ ثم يشعرك بأنك مخـــدوع ويأتـــيك بـــنظرية أو أخرى . لقد قطعت البشرية شوطاً طويلاً نحو هويتها، وانتفت أقبح شرورها وأفظع ضلالالتها بفعل تقــدم المعــرفة وتطور الفلسفة، وتهذبت طباع الناس نتيجة لرغد الحياة . ولكن أكبر الكوارث هى الزعماء والحكام الذين ـ لجهلهم ولكونهــم أقــرب إلى الضباع منهم إلى البشر ـ يريدون استعباد شعوبهم لتستمر سيطرتهم عليهم، ويرفضون كل محاولة لتعليمهم أو تــنويرهم، إذ إنـــه عــندئذ ســيفقدون رواتــبهم وامتيازاتهم، والملــيارات الــتى لو أنفقوها على خير هؤلاء المظلومين لربما اكتشفوا آدميتهم الضائعة .

لقــد أصــبحت صــناعة الاستجداء فى بلادنا علماً له أصول وقواعــد ويخضــع لبحوث العمليات وحسابات الانتظار والتدفق والتقاطر. كلما رأيت "المنادى" كما يسمونه.(وذات مرة أشار إليهم الزعــيم الخالد وقال أنه يعرف أنه "بيقسم مع عسكرى البوليس")، سألت نفسى! ما الذى يعمله هذا؟ ثم: كم مليوناً أنفقت من رزق هذا الغلبان على أمور مثل محاربة الاستعمار ومساندة حركات التحرر وكسر احتكار السلاح وبيان ثلاثين مارس وأول إبريل..إلخ؟

هل هناك مَخرج ؟

عايز الدوغرى ، لأ مفيش .

الــذى قد يكون ممكناً هو "اللطف فيه" ولنتحدث فى هذا قليلاً. عــندما يذهب إلى الطبيب شخص مريض منذ أمد طويل ، رفض العــلاج وأهمل صحته وأسرف فى الطعام والشراب والمعسل ..

إلـــخ ، فإن الطبيب نادراً ما يقول له إنه لا يرى فائدة من حالته ، عـــادة يســـحب روشتة ويكتب عليها شيئاً ، خصوصاً إذا كان قد تقاضى منه أتعاباً ولا يجوز له أن يتركه يذهب لا يائساً من صحته فحسب ، بل ناقماً لضياع فلوسه أيضاً.

ونحن أضعنا الكثير جداً، سبق لى تقديره بمجمل نتاجنا القومى لمـــدة ثلاثيـــن سنة، ومن ضمنه الغطاء الذهبى لعملتنا التى ظلت عشـــرات الســـنين تســـاوى الجنيه الإسترلينى مضافاً إليه بضعة قروش .

وأنـــا طبعاً لن أتخذ وضع الطبيب، ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه.

أنـــا مجـــرد إنسان يفكر، لست زعيماً ولا "ناشطاً" بأى درجة (كســـينا هـــذا المصـــطلح)، الواقـــع أننى شديد البغض للزعامة السياسية، وأتمنى لو اختفى كل الزعماء وحل محلهم مديرو أعمال أذكـــياء يتحدثون عن الربحية والإنتاجية والكفاءة والفاعلية، وليس عـــن الماركســـية والأصـــولية والماويـــة والمشعارفإيهية، حتى الناصـــرية! وأنا أيضاً فى الخامسة والسبعين وليس هناك احتمال كبير أن يحدث ما أتمناه قبل أن أرحل عن دنياكم أنا أيضاً.

ويالها من دنيا !

ما الذى أتمناه ؟

أتمـــنى ــ كما ذكرت فى إهداء هذا الكتاب لحفيدى الصغير ــ أن أكـــون مخطـــئاً . ولذلـــك يا قارئى العزيز ، أرجو أن يكون اعتراضـــك علـــى أفكـــارى وتصـــوراتى، وليس على "شخصـــى الضـــعيف" كمـــا يقولـــون. فهـــو ضعيف فعلاً وحقاً ولا يستحق المهاجمـــة. أنا لست شهيراً، أعترف بذلك ، فقط قد لا يكون هذا ضـــرورياً، مـــا أكثر المشاهير الذين لا يستحقون لا الشهرة ولا غيرها .

أتمنى أن يقف حفيدى وهو فى أوائل شبابه ، علـــى كـــورنيش

النيل فى أى موضع ، فى أوائل أغسطس ، يتأمل المياه الحمراء وهى تجيش ، وتدور حول نفسها ، كما تقول أغنية أم كلثوم ، "الموجة تجرى ورا الموجة عايزة تطولها" ، فقط هذه موجات دورانية غريبة الشكل ، ولكنها تنبض بالحياة ، تحمل مصر فى طياتها الكثيرة ، تدور وتدور ولكنها فى زحفها الخفى إلى دمياط ورشيد ، تجرف الكثير من الشوائب ، شوائب ذكريات تثير الأسى واليأس ، كابوس صحوت منه ، لم يكن حلماً ، كان كابوساً فظيعاً وحقيقياً . والآن ، قد عاد النجاشى إلىعرشه .

عندما تصل الدوامات إلى البحر ، فإنها تدخل فى صراع مع أملاحه ، حرب يكسبها السردين الدمياطى البورسعيدى ، حفيدى سيعجبه ذلك ، لأنه هو أيضاً دمياطى بورسعيدى ــ وعلى الجانب الآخر دقهلاوى منوفى ، يحب التربة الخصبة .

سوف يتلفت حوله ليشهد الناس على روعة المنظر ، وعلى صدقه ، أنه مصر ، مصر نفسها .. ولكنه لا يكاد يجد أحداً .. أين ذهب سكان مدينة المعز لدين الله ؟! آه ، مات منهم ملايين انتهت آجالهم على مدى السنوات العشرين الأخيرة ، ثم ماذا ؟ لم يولد أحد .. وأصبحت شوارع المحروسة هادئة ونظيفة ، قليلة العربات وقليلة المهملات والمخاط ، وغيره من نفايات البشر والجاموس .

الناس أصبحوا قليلين ، فقط كأنهم ورثوا عن الذين رحلوا ــ عن دنيانا ــ كل ما كانوا يعرفونه . وهكذا فإن تلميذ المدرسة يعرف ما كان يعرفه أربعة أو خمسة تلاميذ ، والمدرس لديه عشرون تلميذاً على الأكثر ، إلى حد أنه يعرف أسماءهم .

الجامعات انكمشت إلى ثلاثة ، منها واحدة فى الصعيد ، إلى جانب جامعتين أجنبيتين، تتقاضيان مصروفات طائلة من أولاد الــ .. الأغنياء، مما أدى إلى تخفيف الضغط على الجامعات الأهلية .

الشحاذة أصبحت هواية ، تمارس بعض الوقت فقط ، فمع قلة التعداد ــ انخفض إلى أقل من ما كان عليه عندما رحل جده عن

دنيانا ، ولذلك فقد تحسنت الأجور ، ليس إلى الحد الذى كانت عليه عـندما كان جده شاباً ، فهذه أيام مضت . فقط لا بأس بشىء من التحسـن . يجعل الناس يختارون ما يريدونه ويدفعون ثمنه ، إنهم لا يتوقعون صدقة من سلطة كانت هى التى أحوجتهم إليها .

تحسـنت الـزراعة كثيراً مع تجديد التربة ، وترك المزارعين كأنمـا ولدتهم أمهاتهم أحراراً . المحكمة الدستورية قضت ببطلان قوانيـن الإفساد الزراعى ، وذكرت فى حيثياتها أن الناس أحرار فيما يملكون ما داموا لم يكسروا القانون .

التنوير أخذ أبعاداً هائلة. لم يعد معظم المصريين ينفقون الجزء الأكـبر من دخولهم على هواياتهم المألوفة : ربع طن من الشاى والقهـوة كـل يوم ، والدخان والمعسل ، وممارسة ألعاب الزواج والطلاق وكأنها عشرة طاولة . فقد أخذوا جرعة كبيرة من العوَز فى العهد الفائت ، وأصبحوا الآن أكثر حرصاً على رزق الأولاد ، أو "الولدين" ، فمن مميزات لغتنا العتيدة ، أن فيها صيغة المثنى .

القـيم عـادت بدرجـة لا بأس بها ، وأصبح الناس يتعاطفون بدرجة معقولة، الشباب لديهم أمل فى الزواج ، ذات يوم . المشكلة هـى المسكن ، وإن كان رحيل الأجيال القديمة قد فتح الباب إلى مساكنهم ، التى ليست آيلة للسقوط .

يعبر واحداً من الجسور الجديدة التى بنيت على النهر فى الفترة بين الألفيتين ، عندما جرى تجديد البنية التحتية، إنشاؤها من جديد، ومعهـا الطريق الدائرى ، ومترو الأنفاق وكوبرى قناة السويس ، يتكئ على سور الكوبرى ويتأمل الدوامات مرة أخرى ، ويأخذ به العجب الذى أخذ بشوقى : "أمن السماء نزلت؟ أم فُجِّرت من عليا الجنان .. جداولاً تترقرق ؟"

المصارحة ، "جلاسنوست" ـــ هذه الكلمة الروسية التى بدا بها جورباتشوف عصره الجديد والتى دخلت قواميس اللغات الأخرى ـــ هى مفتاح الموقف .

أنا لا أزعم أن ما أتمناه مسألة سهلة ، أو حتى ممكنة ، كل ما أقـولـه هـو أن حـل مشكلتنا لن يصبح ممكناً إلا إذا تحققت هذه الأشـياء . كيف تتحقق ؟ سؤال يستلزم حشد العقول وتعبئة شعور قومى بالكبرياء وبأن الفقر المدقع والمذلة الفظيعة ، واليأس القاتل، والعـبودية التى تأتى من الحرمان ، ليست قدراً محتوماً .. لقد تم إيقـاف عربات القطار على عجلاتها ، وإصلاح القضبان ، وجئ بقاطـرة جديـدة ، وإبعاد الضباع ومظلات الذباب إلى حد كبير، ولكن المشكلة هى الركاب . لابد من "الجلاسنوست" .

من السهل أن نبنى مدرسة وقد بنى الكثير منها ، ولكن إصلاح ما يدور بداخلها ليس بهذه السهولة .

لو صدقت عزيمتنا ، كلنا ، لا مجرد قيادة أو أخرى ، لو أمكن لكـل منا أن يسترد مصر ، يسترد روحه وضميره ، سيصبح كل شىء ممكناً ، وبسهولة !

من قائمة الإصدارات

العنوان	المؤلف
موسوعة تاريخ حضارات العالم	ترجمة: زينات الصباغ
رحلة الكلمات	د. على فهمى خشيم
تكنولوجيا الحضارات القديمة	هشام كمال عبد الحميد
عصر المسيح الدجال	هشام كمال عبد الحميد
العدل والحرية	سالم القمودى
أعلام النهضة العربية الإسلامية	صلاح زكى
حوارات الزمن الصعب	محمد همام
العلوم للجماهير	ترجمة د. عبد الحكيم بدران
رسالة إلى العقل العربى	د. عبد الحكيم بدران
خيانة المثقفين	د. عبد الحكيم بدران
صراع الحضارات (اثبات الأنا ونفي الآخر)	شعيب عبد الفتاح
عالم المعلومات الجديد	ترجمة: بهاء شاهين
الجات والتبعية الثقافية	د. مصطفى عبد الغنى
حقيقة الغرب	د. مصطفى عبد الغنى
صورة العرب في الغرب	د. عزة على عزت
خفايا المستقبل	محمد الحديدى
بدائل العولمة	د. سعيد اللاوندى
عبد الرحمن بدوى فيلسوف الوجودية الهارب الى الاسلام	د. سعيد اللاوندى
إشكالية ترجمة معانى القرآن الكريم	د. سعيد اللاوندى
المياه العربية بين خطر العجز ومخاطر التبعية	عبد الله العقالى
المياه فى الوطن العربى (الندرة .. التلوث)	د. عبد الحكيم بدران
العرب وإسرائيل (ميزان القوى ومستقبل ..)	د. محمد عبد الشفيع عيسى
السلام الإسرائيلى (قراءة فى المشروعات الاسرائيلية)	حسين معلوم
السوق الشرق أوسطية (من هرتزل الى ....)	إكرام عبد الرحيم
مشروع للانتحار القومي !	مصباح قطب
السلام القاتل (سلام ضد هولاء من الحروب)	محمد خليفة
أوهام السلام	عبد الخالق فاروق
في جنازة المقاطعة العربية لإسرائيل	شفيق أحمد على
عبادة الشيطان على ضفاف النيل	حسين عبد الواحد
الماسونية	خليل إبراهيم حسونة
الحركات الهدامة	خليل إبراهيم حسونة
القدس	خليل إبراهيم حسونة
حماس .. حركة المقاومة الإسلامية	خالد أبو العمرين
يهود ضد إسرائيل	ياسر حسين
أساطير التوراة	عاطف عبد الغنى
الحرب العالمية الرابعة	ياسر حسين
سقوط نجم مخابرات إسرائيل	جمال الدين حسين
عملية السرب الأحمر	جمال الدين حسين
الاختراق الإسرائيلي للزراعة في مصر	صلاح بديوى
اختراق الأمن الوطني المصري	عبد الخالق فاروق
الهجرة وتهديد الأمن القومى العربى	د. عبد اللطيف محمود
دموع الجواسيس	أحمد فؤاد
أسرار الجاسوسية ولعبة المخابرات	يوسف هلال
المخططات اليهودية للسيطرة على العالم	أحمد أنور
أزمة الانتماء في مصر	عبد الخالق فاروق
التطرف الديني ومستقبل التغيير في مصر	عبد الخالق فاروق
محاضرات فى القانون الدولى العام	د. ميلود المهذبي
قضية لوكيربي وأحكام القانون الدولي	د. ميلود المهذبي
أزمة لوكيربي والخروج من بيت الطاعة الأمريكى	د. السيد عوض
العلاقات الليبية - الأمريكية	د. السيد عوض
الإخوان والعسكر	حيدر طه
التعريب فى الجزائر (كفاح شعب ضد الهيمنة ...)	د. عثمان سعدى
البربر الأمازيغ عرب عاربة	د. عثمان سعدى
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
من يحمي عروش الخليج (النفط والتبعية)	د. أحمد ثابت
إعدام صحفى	سعيد حبيب
الصحافة المشبوهة	سيد محمود
عمرو موسى (الملفات السرية)	شهاب نصار
عبد الناصر واليمن	د. عبد العزيز المقالح
الوحدة اليمنية	حسنين كروم
عبد الناصر والذين كانوا معه	حسين قدرى
عبد الناصر .. هذا المواطن	سليمان الحكيم
حوارات عن عبد الناصر	سليمان الحكيم
عبد الناصر .. والإخوان (أسرار العلاقة الخاصة)	سليمان الحكيم
المرأة التي أحبها عبد الناصر	شفيق أحمد على
ظل الرئيس (مذكرات محمود الجيار مدير مكتب ناصر)	عزازى على عزازى
عبد الناصر وعبد الحليم والزمن الجميل	حسن صابر
البديل الناصري (قراءة في اوراق التنظيم الناصرى)	سيد زهران
ناصرية جمال عبد الناصر	جورج المصرى
ناصرية الناصرية الغائبة	جورج المصري
براءة سياسية	أحمد شرف
برلنتي والمشير (القصة الحقيقية)	محمد متولى/سيد زهران

الكتاب	المؤلف
الهندسة الوراثية في القرآن	هشام كمال
الحركة الإسلامية في مصر	صالح الورداني
الكلمة والسيف "محنة الرأي في تاريخ المسلمين"	صالح الورداني
عيسى المسيح والتوحيد	محمد عطا الرحيم ترجمة: عادل حامد
الحكومة والسياسة في الإسلام	ترجمة : سيد حسان
رسالة التوحيد للامام محمد عبده	تحقيق د. محمد عمارة
الإسلام والعروبة	مجدي رياض
قيثارة السماء "الشيخ محمد رفعت"	محمود توفيق
حروب المشايخ	أحمد الدسوقي
السحر في القرآن الكريم	سمير فراج
كشف المستور من قبائح ولاة الامور (تراث)	د أحمد الصاوي
النقود المتداولة في مصر العثمانية	د. أحمد الصاوي
النقود الاسلامية في مصر	د. رأفت النبراوي
Word 2000	م أحمد ظريف المعاني
Excel 2000	م أحمد ظريف المعاني
"Visual basic 6"	م . أحمد ظريف المعاني
امن وحماية البيئة	خالد القاسمي / وجيه البعيني
الفيلم والعمل	د. عفت عبد العزيز
الابر الصينية في العلاج والتخدير	د. لطفي سليمان
الأعشاب الطبية	د. موسى الخطيب
طعامك طريقك إلى صحتك	د. نجدي إبراهيم
تعليم الموسيقى والعزف على آلة الاورج	محمد كريم
الجنس والشباب الذكي	ترجمة أحمد عمر شاهين
تجارة الجنس	ترجمة زينات الصباغ
اشهر فضائح القرن العشرين	حسن صابر
امريكا .. الانهيار السياسي والاخلاقي	حسين عبد الواحد
بنات ابليس (نساء في مملكة الشر)	حسين عبد الواحد
الامبراطورة فوزية (أولى زوجات شاه ايران)	سمير فراج
الانسان والمجهول (سر السحر في القصور الملكية و...	سمير فراج
هاجس الكتابة	د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد	د . أحمد إبراهيم الفقيه
أثر الإسلام في الأدب الإسباني	ترجمة د. حامد أبو حمد، وآخر
عبد الله البردوني .. حياته وشعره	د. أحمد عبد الحميد
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة	أحمد عزت سليم
مغامر حتي النهاية	إدوار الخراط وآخرون
من حديث الشعر والشعراء	د. جميل علوش
الصنعة الفنية في التراث النقدي	د. حسن البنداري
جدلية الأداء التبادلي	د. حسن البنداري
أباطيل الفرعونية	سليمان الحكيم
مصر الفرعونية	سليمان الحكيم
رواد الأدب العربي في السعودية	شعيب عبد الفتاح
الثقافة الشعبية وأوهام الصفوة	د. صلاح الراوى
إنتاج الدلالة الأدبية	د. صلاح فضل
منهج الواقعية في الإبداع الأدبي	د صلاح فضل
تأثير الثقافة الاسلامية في الكوميديا الالهية لدانتي	د صلاح فضل
حدود الأدب المقارن	ترجمة د. عبد الحكيم حسان
نقد وشعر وقص	د عدنان الظاهر
بحثا عن فرعون العربي	د . علي فهمي خشيم
اعلام في الأدب العالمي	علي عبد الفتاح
الصولجان والقلب [illegible]	د. فاروق أوهان
محمد مندور شيخ النقاد	فؤاد قنديل
الهندسة الصوتية الايقاعية في النص الشعري	د. مراد مبروك
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع	محمد الطيب
السرد في مواجهة الواقع [illegible]	محمد قطب
أبو رجل مسلوخة	محمد مستجاب
ادب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل	ممدوح القديري
مقالات في الحياة والأدب	ممدوح القديري
الرواية في زمن الغضب	ممدوح القديري
الرواية العربية ، رسوم وقراءات	نبيل سليمان
حديقة المتعة (تجارب سينمائية عبر العالم)	نجاح سفر
يحدث أحيانا	هبة عنايت
اشكاليات التأصيل في المسرح العربي	هيثم يحي الخواجة
في الأدب العماني	يوسف الشاروني
القصة .. تطورا وتمردا	يوسف الشاروني

بالإضافة إلى العديد من الكتب الأدبية ؛ رواية .. قصة .. شعر .. دراسات ونقد
وكتب متنوعة : سياسية ، قومية ، دينية ، معارف عامة ، تراث ، وأطفال .
خدمات إعلامية وثقافية

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز

المؤلف

ـ تخرج فى هندسة القاهرة ثم تخصص فى آليات ومعدات الإنشاء .

ـ انـتقل إلى تخطـيط وتنمية الموارد البشرية فى الصناعة ، ثـم إلى علوم الإدارة بصفة عامة ، خبيراً استشارياً وكاتباً ومؤلفاً ومترجماً ومحاضراً ومديراً للعديد من مشروعات التطوير المؤسسى .

ـ ترجم مرجعين عالميين فى الإدارة وألف كتاباً فى إعداد التقارير فى الصناعة .

ـ أسهم بقدر وافر فى المجالات الأدبية والثقافية ، وصدرله :

مؤلفات ومترجمات فى الإدارة :

(١) كـتابة التقارير فى الصناعة والأعمال ، الخبراء العرب فى الهندسة والإدارة ، ١٩٧٧ .

(٢) أفكـار عظـيمة فى الإدارة (عن الإنجليزية) ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ .

(٣) ثورة فى عالم الإدارة (عن الإنجليزية)، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، ١٩٩٤.

أعمال فكرية : خفايا المستقبل ، مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩ .

أعمال أدبية :

(١) أنشودة الغرباء (شعر) ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥.

(٢) الجدران (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٢ .

(٣) شبان هذه الأيام (رواية) ، كتابات معاصرة ، ١٩٧٣ .

(٤) شخص آخر فى المرآة (رواية) . مطبوعات الجديد ، ١٩٧٥ .

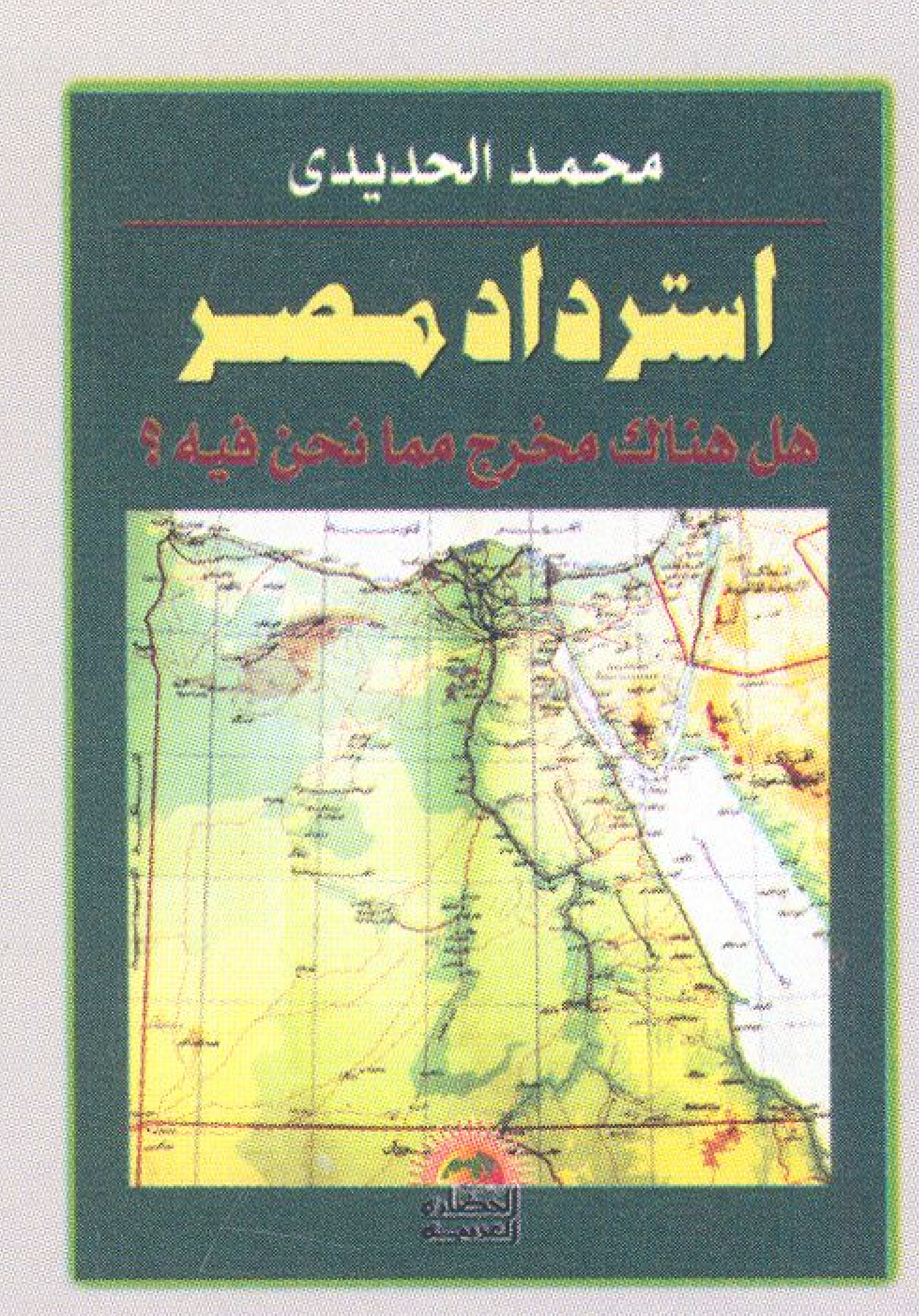
(٥) قبل أن يهبط الظلام (رواية) . دار الهلال ، ١٩٧٩

(٦) امرأة أخرى (رواية) كتاب اليوم . ١٩٧٩

(٧) الحب رجل (رواية). الدار القومية للنشر والتوزيع ، ١٩٩١.

دراسات أدبية : نماذج من الرواية العالمية ، كتاب الهلال، ١٩٧٥ .

تـرجمات أدبـية : ترجمة ومراجعة ومقدمة نقدية لحوالى عشرين عملاً من الدراما العالمية لسلسلة المسرح العالمى الكويتية .



REGAINING EGYPT

IS THERE A WAY OUT?

BY

MOHAMED EL-HADIDI

تلك الحقبة من تاريخ مصر المعاصر، التى تمتد من العام ١٩٥٢ وحتى العام ١٩٧٠، كان لها، وسيظل لها، أثر هائل فى أحوال مصر ومصير شعبها، إلى قرون طويلة ستأتى.

وقد تناولتها كتابات كثيرة:

البعض يمجدها إلى حد التقديس، والبعض يقيّمها بمقاييس يسميها سلبيات وإيجابيات، ويعدد مآثرها وكبواتها، والبعض لا يرون فيها إلا كارثة ماحقة.

ومؤلف هذا الكتاب من أصحاب هذا الرأى الأخير.

إذ لم ير من ثورة ٢٣ يوليو وقائدها التاريخى إلا السلبيات والأخطاء..

ونرى أن التقييم الموضوعى والأمين للثورة وقائدها جمال عبدالناصر يضعها فى المحصلة النهائية إنجازًا تاريخيًا عظيمًا وعلامة خالدة ومضيئة فى تاريخ مصر والأمة العربية فى العصر الحديث.

ومع اختلافنا مع كل ما أورده المؤلف فى

فقد نشرنا الكتاب إيمانًا منا بحق الآخرين

الذى نأمل أن يبقى دائمًا فى أطره الموضوع

